



همسة فتاة

أقوى من الزمن



يوسف السباعي



يوسف السباعي

همة غابرة
أقوى من الزمن

يطلب من مكتبة مصر

٣ ش- كامل صدقي - القباله

مقدمة

هذه مجموعة من القصص التاريخية القديم تقوم هياكلها على عمد من الأحداث التاريخية المشهورة ، قدم رسومها في مجلة «بريتانيا آندايغ» الرسام الإنجليزي ماتانيا تحت عنوان «قصص قديمة يعاد قصها ثانية» وقد قدمتها إلى قراء العربية عام ١٩٤٥ في مسامرات الجيب معيدا قصتها «ثالثة» آخذا منها المحور التاريخي والجو الزمني .

وأنا حين أقدمها في هذا الكتاب أضيف توأما ثالثا لكتابتى ، هذا هو الحب، و «سماز الليلالى» إذ يجمع الثلاثة رسوم ماتانيا الرائعة . ولوحاتة التاريخية المتقنة التى سجل فيها كل سمات العصر ودقائقه وتفصيله ومميزاته .

وإذا كان ماتانيا قد قدمها بعنوان قصص قديمة يعاد قصها ثانية فإننى أكره أن أقدمها بعنوان قصص قديمة يعاد قصها ثالثة ، وأجد فيها نوعا من الرقة يجعلنى أسرها «همسة غابرة» .. فى أذن القارئ .. من همسات الماضى الحالم البعيد .

يوسف السباعى

نهاية بطل

بعد لحظات .. سأنتقل إلى حياة قد خلت من هذه القيود . وليس فيها تكران الجميل ولا جود ،

- ١ -

انقلبت ظلمات الدار أضواء باهرة ، وتحولت دياجيرها المعتمة إلى مناء وبهاء ، واختفت من حجراتها المناسج العتيقة ، والأنوال البالية . وصمتت أصواتها الكثيرة التي كانت أشبه بنعيب البوم أو نحيب التكاالي ، ليحل محلها رنين الكئوس وضحكات النشاوي ويضع في جنباتها بريق الصهباء وإشراقها . ووقف (دومينكو كولومبس) يحك ذقنه ويسائل نفسه ! أي حمق دفعه إلى أن يقضى مامضى من عمره أسير تلك الأنوال الهرمة ، وسجين ظلماتها ، ولم يحاول - قبل اليوم - أن يحطمها ويضع مكانها هذه الدنان المليئة بعصير الكرم ورحيق العناقيد ؟

كان ذلك عام ١٤٧٠ ، عندما حول كولومبس منسجة إلى حانة ، وكان ابنه الأكبر كريستوف كولومبس لايزل في السابعة عشرة ، فتى قوى الجسد ، متين البنيان ، يرى فيه أبوه خير عون له .

وكانت دار السيد كولومبس تقع على مقربة من ميناء جنوا ، وكانت جنوا وقتذاك مركز التجارة في حوض البحر الأبيض ، ولها أسواق في مشارق الأرض ومغاربها ، وأعلامها تخفق في ربوع البلاد حتى الهند الصينية .

ولقد أثبتت الأيام أن الرجل كان حكيماً عندما قرر أن يحول منسجه إلى حانة ، ولم يكن هذا الأمر يحتاج منه إلى كثير جهد : بضعة مقاعد خشبية ، ومناضد مستطيلة ، ورفوف مثبتة بالحائط ، ودنان ملأت الحجرات وبلغت قارعة الطريق .

وبدأ يقد على الحانة ألوان متباينة من الرجال : بحارة مغامرون ونجار من كل جنس ودين ، وبائعوا رقيق ، وقراصنة سفاكون .. وفي هذا الجو الصاخب ، وبين هذا الخليط العجيب نشأ كولومبس الصغير ، والتقط ذهنه معظم معلوماته عن جغرافية العالم - ففي كل قصة وصلت مسامعه عن الأراضي البعيدة المجهولة كان يجد حافزاً يدفعه إلى أن يحسن ويعدل في تلك الخرائط الابتدائية التي كانت موجودة في ذلك الحين ، ولم يكن يوجد في ذلك الوقت إلا كتب قليلة مخطوطة باليد ، لا يقتنيها إلا أثرياء القوم ، ومع ذلك فقد وقع في حوزة الفتى كتاب استطاع أن يلهب حواسه ، ويؤجج مشاعره وهو «يوميات» مركوبولو الرحالة الفينيسي الذي تمكن منذ مائتي عام أن يجوب ربوع اسيا ، فاكتشف أرض القنار ، ووصل إلى مملكة خان الأكبر . وكانت اليوميات تصف سلسلة من المخاطرات الجريئة والعادات الغريبة . والمقابلات مع مختلف الملوك ، وحياة أجناس عجيبة من المخلوقات البشرية والحيوانات ، مما أشعل رغبة الفتى الكامنة .

واستطاع كريستوف بموارده المحدودة أن يتعلم الحساب ورسم الخرائط ، وكان بطبيعة نشأته منذ الطفولة بحاراً ماهراً وكان من الواجبات الملقاة على عاتقه منذ أن فتح أبوه الحانة أن يجوب ساحل الرفييرا العاصف ، منقبا عن

الخمرور في مختلف الموانئ ، يقضى الساعات الطوال بين الشراع وبين كتبه
وخرائطه .

ومرت ثلاث سنوات والفتى يجد نفسه مرغماً على أن يقضى حياته في
تفريغ الدنان ، وملء الكنوس ، وخدمة زبائن الحانة ، وتنظيف مناضدها .
وكثيراً ما كان يقف شارد الذهن مصغياً إلى قصة مغامرة يقصها أحد الزبائن
على أصحابه ، فلا يوقظه من شروده إلا صيحة أبيه . لقد كان يعيش في عالم
آخر من أحلامه وأمانيه ، ورويداً رويداً أحس أنه غريب عما حوله .

كان أكثر مايشغل الفتى تلك النظرية القائلة بكروية الأرض ، وبمضى الأيام
أضحى يعتقد اعتقاداً جازماً بصحة هذه النظرية ، ويأنه لو أبحر في اتجاه
الغرب فلا بد أنه واصل إلى الساحل الشرقى للقارة الآسيوية . وبدأ هذا الحلم
يساور نفسه ، وقوى الأمل الذي يضيء مستقبل حياته .

وفي ذات يوم أحس أن من العيب أن يفنى عمره في التمني والتطلع ،
واستقر رأيه على أن يقدم مشروعاً إلى « السناتو » ولم يكن ذلك المشروع الذي
تقدم به أكثر - في نظر أعضاء المجلس - من محاولة صبيانية خيالية ، لفتى
أهوج طائش ، فكان نصيبه الرفض والسخرية ، ولم يفت ذلك في عضده بل
زاده عناداً وإصراراً . وكان يحس أنه ينقصه الكثير من خبرة البحار وتجارها
فبدأ يخوض غمارها ملتحقاً بالسفن التجارية ، ولم تتعد رحلاته بادئ الأمر
البحر الأبيض ، حتى عام ١٤٧٦ إذ أبحر على إحدى سفن الأسطول التجارى
إلى إنجلترا .

ووصلت القافلة إلى جبل طارق ، ثم جاوزته واتجهت شمالاً ، وحركت
رؤية المحيط الثورة الكامنة في نفس الفتى ، وخفق قلبه بشدة ، وكان الطقس
معتدلاً والساحل يبدو على مدى البصر . وفي يوم ١٣ أغسطس لم تكد سفن

الأسطول تلف حول رأس سان فينسان حتى واجهها أسطول آخر وسرعان ما أعطيت إشارة الخطر . فقد كان الأسطول لأحد جبابرة القراصنة ، وكان مجرد ذكر اسمه يثير الهلع فى النفوس ، وهو كولون الفيس الأميرال الفرنسى .

وأطبق أسطول القرصان على فريسته واحتدم وطيس القتال ومرت عشر دقائق دون أن ترجح كفة أحد الفريقين . فبدأ كولون فى استعمال القنابل المحرقة ، رغبة منه فى أن يجهز على خصمه ، وسرعان ما شبت النيران فى أسطول جنوا ، وانتقل الشرر منها إلى أسطول القرصان ، وفى لمح البصر أضحى البحر كأنه قطعة من الجحيم .

وأغرقت السفن إلا سفينتين ، واستطاع كريستوف مع فريق من الرجال أن يتعلقوا بحطام السفن حتى حملتهم إلى الشاطئ البرتغالى ، وكانت تجربة قاسية للفتى ، ولكنها زادت له ولعاً بالمخاطر وركوب البحار ، ورحل كولومبس إلى لشبونة ومكث فيها بضعة أشهر ، استطاع أن يوطد فيها علاقته مع كثير من أهلها .

ورحل بعد ذلك إلى إنجلترا ، ثم عاد إلى لشبونة بعد أن صمم على أن يعرض مشروعه على ملك البرتغال ، وقدم أوراقه ووثائقه وخرائطه وجلس فى انتظار النتيجة . وطال انتظاره ، وهو لا يعلم أن غيره قد كلف سراً بأن يقوم بالرحلة بعد أن زود بخرائطه ووثائقه .

وعاد الرجل الذى حاول أن يقوم بالرحلة فاشلاً ، معزياً خيبته إلى كولومبس ، متهما إياه بأنه مخادع محتال ، واكتشف كولومبس الخديعة فلعن اليوم الذى ألقى به إلى البرتغال .

وفى ذلك الوقت بدأ الحب يتسلل إلى قلبه ، ولم يكن سوى هوى قصير نوى فى مهده ، فلقد تزوج فتاة نبيلة هى دونا فيلينا بريستولو التى أنجبت له ابنه ديجو ، ثم ماتت بعد فترة قصيرة .

ورحل إلى أسبانيا تاركا ولده مع أهل زوجته ، وقد نوى أن يجرب حظّه مع فرديناند وايزابلا ، بعد أن خدعه ملك البرتغال .

وتمكن كولومبس بعد مشقة أن يحظى بقاء الملك والملكة ، وركع أمامهما وأخذ يشرح مشروعه بحماسة وإخلاص ، وعندما انتهى من شرحه جلس ينتظر ، وقد تلاحقت أنفاسه ، وهز الملك رأسه متشككا ، ولم يبد عليه الاقتناع ، ولكن الملكة بدا عليها تأثر شديد ، فقد استطاع كولومبس أن يملك مشاعرها ، فأقبلت عليه تسأله مستوضحة عن بعض النقاط .

وخرج كولومبس من الحضرة الملكية دون أن يحظى مشروعه بالرفض أو التأييد ، ومضت فترة وهو حائر قلق ، حتى أتته الأنباء بأن مشروعه قد أحيل إلى لجنة من العلماء لفحصه وتمحيصه ، وأخيراً جاء الرد بأنه قد رفض ، وبأن عودته تعتبر غير معقولة ولا مقبولة .

ولم يكن عجباً بعد ذلك أن يدب الشيب في رأسه ، ولما يبلع الثلاثين بعد ، فقد أغلق أمامه باب الأمل ، وأحس بدياجير اليأس تحيطه من كل جانب ، وبدأ عليه كأنما يخوض معركة خاسرة يقاقله فيها الفقر والوحدة ، ولا يعاونه فيها سوى مخلوق واحد ، هو امرأة .

كانت المرأة التي شاركته آلامه وأحزانه هي بتريكس زوجته الوديدة الجميلة ، التي حاولت جهداً أن تحمل عنه أعباء كفاحه وجهاده ، وبعثت في حياته المظلمة بارقة أمل استطاعت أن تبقيه حياً ، وأن تمنحه العزاء والسلوان ، وأنجبت له ابنه الثاني فرناندو .

وبعد سبع سنوات طوال ، دفع القدر إلى كولومبس بنبييل إيطالي هو الدوق مدينا كوكلي الذي استطاع أن يقدم كولومبس إلى الملكة مرة أخرى فأعاد عليها مشروعه .

ومرة ثانية أحيل المشروع على لجنة أخرى ، وذهب كولومبس إلى خباء الملكة ، حيث كانت تقيم مع جيشها المحيط بغرناطة . يسمع نتيجة مشروعه ، وهناك فوجيء بنبايين سارين : سقوط غرناطة ، وقبول مشروعه .

وبدأ كولومبس يضع شروطه ، فاشتراط أن يمنح رتبة فيس اميرال ، وأن يعين حاكماً على البقاع التي يكتشفها ، وأن يستولى على عشر دخلها .

وقبلت شروطه بعاصفة من الغضب ، وقيل إنه لو قبلت هذه الشروط ثم صادفه النجاح لأضحي أقوى رجل في الدولة . ووقف كولومبس لينتلقى غضبهم في ثبات ، وأنباهم في هدوء أنه سيعرض مشروعه على ملك فرنسا .

وخرج كولومبس وقد ملأه الحنق واليأس ، وهو يحاول أن يدفن مرة أخرى حطام آماله التي بعثت من مرقدها بعثاً كاذباً ، وسار في الطريق مطأطئ الرأس مكندود الذهن ، ولم تمض فترة حتى سمع وقع أقدام جواد يمدو خلفه ، لقد أتوا لينبثروه أن الملكة قد قبلت شروطه !!

أيمكن أن يكونوا صادقين ؟ أم أنها مزحلة ماجنة ، وفرية كاذبة ، وتبعم كولومبس وهو يعتقد أنهم يعبثون به ، ولكنه لم يكذب يصل إلى خباء الملكة حتى أقبلت عليه تهنته وتخبره أنها قبلت شروطه .

وكان القوم قد راجعوا أنفسهم ، وأدركوا أن كولومبس لو لجأ إلى فرنسا وتحقق مشروعه - فسيكون ذلك كارثة على أسبانيا ، وستزداد موارد فرنسا وممتلكاتها وتصبح جارا خطراً قوياً .

وعامل آخر خفي : لو أدركه كولومبس من قبل لوفر عليه يأس سبع سنوات ، ولعجل بانتصاره ، وهو امرأة ساحرة ، هي دونا لياتريس دي بو بانيللا ، إحدى المقربات إلى الملكة ، والتي أخذت بكولومبس وهامت بحبه .

وبدأ كولومبس يأمر ويملي ، لايسأل ويستعطف ، وجهاز الأسطول وأنزله إلى البحر .

وفي حجرة صغيرة في كاردونا ركع كولومبس وقد أمسك في يده وثائقه وخرائطه ، إن الفشل لم يستدر بعه ، ولكن فرحة الانتصار قد استطاعت . وهمس كولومبس وقد رفع رأسه إلى السماء والحمد لله رب العالمين .

- ٢ -

كانت خطة كولومبس هي أن يبلغ بالبحر ما بلغه ماركو بولو عن طريق البر ، وأن ينشئ صلات اجتماعية ، وروابط اقتصادية ، بين الدول التابعة لخان الأكبر ، الذي كان يلقب وقتذاك بملك الملوك ، وكان غرضه من ذلك هو نشر الدين المسيحي وجمع شتات تلك الجماعات المسيحية المتفرقة التي كانت على استعداد للترحيب بأي مخلوق يقود هذه الحركة الدينية .

وقد حمل معه خطاباً من فرديناند وإيزابلا إلى خان الأكبر لم ينكر فيه شيئاً عن رغبته .

ولم يكن يخفى أن غرض البلاط الأسباني من هذه الرحلة مالي بحت ، فقد كان على كولومبس أن ينقب عن المناجم والكنوز ، وأن يرسل إلى أسبانيا السفن المحملة بالذهب والجواهر ، وأن يكشف الأراضي الطيبة والحقول الخصبة ، ليضع فيها أساساً لإمبراطورية إسبانية جديدة . وأطلقت له الحرية في الاستيلاء على ما يمر به من أراض ، ماعدا التابعة فعلا للدولة المسيحية .

ولم تغضب كولومبس هذه المطامع الشعبية ، فقد كان يعلم أنه لو أصر على الجهر بأغراضه الدينية ، لما سمح له أحد بأن يقوم برحلته .

وذات يوم صدرت الأوامر الملكية لحاكم بالو أن يجهز سفينتين كبيرتين

كما أمر حاكم سيفين بأن يعد لهما ما يلزم من مؤن وأسلحة ونخائر ، وحدد لذلك عشرة أيام تبدأ من الخامس والعشرين من شهر مارس سنة ١٤٩٢ ، على أن تسلم السفينتان بعد ذلك إلى رجل أطلق عليه اسم الكابتن كريستوبان كولون ، وله مطلق التصرف في أن يتجه بالسفينتين حيث شاء .

ونزل الأمر الملكي على بلدة بالو الهاندة نزول الصاعقة . فمن كان كريستوبان كولون هذا ؟ لم يكن هناك في المدينة من يستطيع أن يجلو هذه الأسرار الغامضة إلا رجل واحد هو مارتن بنزن أحد كبار التجار الذي يستطيع دائماً أن يعرف كل شيء . ومع ذلك فحتى مارتن بنزن قد أغلق فاه فما عاد ينبس ببنت شفة !

وفي اليوم التالي قام الكابتن كولون (كولومبس) بالتفتيش على السفن في الميناء ، يصحبه بعض الرجال المسئولين ، وقد أنبأت السلطات أصحاب السفن بأن غرض الرحلة لم يكن معروفاً اللهم إلا أنها ستبحر في اتجاه الغرب مباشرة ، وأن سفنهم مستأجر لمدة شهرين وأن مدينة بالو ستكون مسئولة عن أية خسائر يحتمل حدوثها .

ولم يكن تجنيد البحارة لتلك الرحلة المجهولة بالأمر اليسير فنتج عن ذلك تأخر في إعداد السفن . وبعد بضعة أسابيع أعلن مارتن بنزن أنه سيشترك مع أخويه في هذه الحملة ، وأنه ليس هناك ما يخشاه منها .

وأعطى اشتراك بنزن للناس ضماناً كافياً ، فما كان الرجل المجرب ليشترك في أمر إلا إذا كان الريح فيه مضموناً .

وكان بنزن هو آخر من يرغب كولومبس في الاشتراك في رحلته ، ولكن الأموال التي رصدها البلاط للرحلة لم تكن كافية ، وقد اضطر هو نفسه أن يدفع ثمن التكاليف ، وعرض بنزن أن يمول له الرحلة على أن يكون له نسبة في أرباحها . فرحب كولومبس بعرضه لأنه كان يتحرق للرحيل .

وكانت السفينة الأولى التي وقع الاختيار عليها بيتنا ، وتبلغ حمولتها مائة وخمسين طناً ، وكان على بنزن أن يتخذ قيادتها . أما كولومبس فقد اختار لنفسه إحدى السفن الكبيرة المسماة سانتا ماريا واختيرت كذلك سفينة ثالثة أصغر حجماً هي نينا ، وقد أعطيت قيادتها لنفسه بنزن .

وحمل كولومبس معه غير المؤن والذخائر والأسلحة صناديق عديدة مليئة بمختلف الحلى والأشياء التي تثير أعجاب القوم السذج البسطاء .

وسارت حركة تجنيد البحارة ببطء رغم تأثير بنزن ، ولم تجد وعود كولومبس البراقة الخلافة مع القوم نفعاً ، ولم يقبل على التطوع في السفن إلا كل هارب من وجه العدالة .

وأخيراً .. وبعد مشقة وجهه تجمع لكولومبس العدد المطلوب وهو مائة وخمسون بحاراً ، كان منهم سبعون لسانتا ماريا وحدها ، ومن بينهم ابنه ديجيو الذي بعث وجوده بعض الطمأنينة في قلوب البحارة .

وجاء يوم الرحيل ٣ أغسطس ووقفت الزوجات النائحات يحاولن أن يقنعن أزواجهن من البحارة بأن يقلعوا عن عزمهم ، وكان يوم الجمعة ، والقوم يتشاءمون من أن يبدعوا أى عمل لهم في هذا اليوم .

ووقف الرجال المسئولون يودعون كولومبس ، ووقف راعي الكنيسة يوزع بركاته ، وصعد كولومبس إلى سطح السفينة ، وفكت الحبال وجرت السفن الثلاث باسم الله مجريها ومرساها .

وكان عليه أن يتجه أولاً إلى جزر الكناري ؛ لأن عبور المحيط أسهل من هذه الناحية .

ووصل كولومبس إلى جزر الكناري ، فقام بإصلاح عطب أصاب السفينة بيتناً ، ثم واصل رحلته فتوقف في جوييرا ليجند مؤنه ، وهناك سمع أن بعض

السفن البرتغالية قد قامت لمطارنته ، والاستيلاء على سفنه ، حماية لممتلكاتهم في ساحل أفريقيا ، لأن الشك ساورهم عن حقيقة غرض الرحلة . فاتجه بسفنه إلى جزر الكنارى .

وبدأت الطبيعة تناصبه العداة ! ففي ليلة ٢٤ بينما كانت سفنه تسير بجوار ساحل تنزيف انفجر البركان القائم على تلك الأرض وصب حممه في المياه ، وأصبح كأنه جحيم يستعر أواره ، وأصاب البحارة فزع شديد ملأ نفوسهم تشاؤماً من الرحلة ، وخوفاً على مصيرهم .

وفي ٦ سبتمبر خرج كولومبس نهائياً إلى عرض المحيط . ومن هنا بدأت رحلته الحقيقية ، بعد أن خلف أوروبا وراءه وأمعن في اتجاه الغرب .

ومنذ تلك اللحظة بدأت أصوات التذمر تعلو في سانتا ماريا ، لقد فهم الرجال أنهم سيتجهون إلى جزيرة كييانجو القائمة على بعد ٧٥٠ فرسخاً ، وهم لم يسمعوا من قبل بذلك .. !! أتراها خدعة ؟ وإذا هبت عليهم عاصفة في أية لحظة أتراهم يجدون حولهم أرضاً يلجئون إليها تقيهم شرورها ؟!

لقد كان من العسير عليه أن يعيد الإيمان إلى قلوبهم الواجفة ، إذ أصروا على أن يعرفوا يوماً بيوم كم فرسخاً قطعت بهم السفينة حتى يحسبوا السبعمائة وخمسين فرسخاً التي أقسموا ألا يسيروا بعدها قيد أنملة .

ومرت الأيام دون أن تبدو في الأفق بارقة أمل .. لاشيء أكثر من أعشاب البحر الخضراء التي تمنى النفس بآمال كاذبة .

وفي يوم ١٨ حاول بنزن أن يعرج بسفينته ناحية ثلة من طيور البحر البيضاء آملاً أن تقوده إلى أرض قريبة ، ولكنه عاد في النهاية فاشلاً .

وأخيراً انتهت السبعمائة وخمسون فرسخاً ، والأرض لا يبدو منها أثر لعين ، وبدأ التذمر يسرى بين البحارة ، وأخذوا يطالبون بالعودة ويهددون

بالتمرد والعصيان ، واقترح بنزن أن يشنق منهم ستة أو سبعة ليكونوا عبرة
للآخرين . ولكن كولومبس رفض اقتراحه وقبض على زمام الموقف ، وفضل
أن يعاملهم بالحسنى حتى يتمكن من الوصول إلى الهند .

وفي ذات يوم ، أشرقت الشمس وضياءة تحمل في شعنتها بسمات الأمل ،
واقترشت صفحة الماء فجعلت من أمواجه لألاء ذهبياً يخطف مناه الأبصار ،
ولاح للقوم شيء عجيب .

شيء أحيى في النفوس موات الأمل ، وأشعل فيها خامد الرجاء فإذا بها تطير
فرحاً ، بعد أن طارت شعاعاً ، وإذا بالقلوب تهفو والألسنة تشدو .

لقد كان تلك الشيء ، غصناً نضيراً ، حمل بالزهر ، وأخذت الأمواج
تتناقذه ، والقلوب تتلقفه ، فأحست منه برداً وسلاماً وأمناً واطمئناناً .

وفي حلقة ليلة ١١ أكتوبر والساعة قد بلغت الثانية صباحاً ، شاهد كولومبس
ضوءاً في الأفق يظهر تارة ، ويختفي أخرى ، وشاهده بقية البحارة الذين لم
يغمض لهم جفن ، منذ أن أبصروا الغصن النضير الذي حملته المياه ،
وصدرت من السفن الثلاث صيحة مدوية كأنها صيحة رجل واحد :

« الأرض .. الأرض » .

وجن جنون القوم ، فاندفعوا في الصباح والرقص والغناء ، وأصليهم الفرح
بلوثة فأفاضوا الخمر أنهاراً .

وأشرق الصباح وحمل إليهم ضوء الفجر خضرة الأراضي المنبسطة على
مدى البصر ، وعندما زاد اقترابهم من الأرض استطاعوا أن يميزوا عليها
مخلوقات بشرية عارية . ورست السفن وأنزلت القوارب ، ونزل كولومبس
ليضع قدمه على الأرض الجديدة ، ولم تكد تمس قدمه الأرض حتى ركع شاكراً
لله بعيون دامعة .

وفي ذلك الوقت جرّو بعض الأهالي الذين كانوا قد اختفوا بين الأدغال على الظهر ، ومدوا رءوسهم في حذر ، يتطلعون إلى الزائرين الجدد ، وابتدأ عليهم الطمأنينة عندما لمحوا على وجوه ضيوفهم ابتسامات ترحيب ، وسمح لهم كولومبس بأن يقتربوا منهم ولتسمع كلماته التي وصف بها ما حدث ..

« ومنحتهم بعض الحلى من أقراط وقلائد وخواتم فأفعم قلوبهم الفرح ، وسرعان ما اكتسبنا صداقتهم وعطفهم ، وعرضوا علينا كل ما يملكون مع أنهم فقراء ، وكانوا عراة كما ولدتهم أمهاتهم وكانوا على شيء كثير من قوة الجسد ومثانة البنيان ، ولم يكونوا يحملون أسلحة ، وعندما حاولوا فحص خنجرى أدما به أصابعهم ، .

بهذه الألفاظ وصف كولومبس يومه الأول في الأرض الجديدة ، اليوم الذي حقق له أجمل أحلامه ، وذاق فيه حلاوة الانتصار ، بعد أن أمضته مرارة الفشل .. يوم ١٢ أكتوبر ١٤٩٢ .

- ٣ -

أطلق كولومبس اسم « سان سالفادور » على أول جزيرة حظ عندها رحاله في الدنيا الجديدة ، وقد أدهشه أن وجد أهلها يحلون أذانهم بأقراط ذهبية ، واستفسر عن مصدر تلك القطع ، فأنبئوه أن في اتجاه الجنوب ملكا يملك كميات هائلة من ذلك المعدن ، ورأى كولومبس ألا يضيع الوقت ، فأبحر بسفنه صوب الجنوب بعد أن أقنع بعض الأهالي من الهنود بمرافقته ليرشده في رحلته .

ورمت السفن عند جزيرة كوبا . وكتب كولومبس في مذكراته يقول : « إن هذه البقعة هي أجمل ما وقعت عليه عين إنسان ، وقد ظننا في بادئ الأمر كيانجو (اليابان) الأرض العجيبة التي وصفها ماركوبولو في يومياته . واستطاع الأدلاء الهنود السبعة الذين حملهم كولومبس في سفنه أن يغرّوا

بعض نساء كوبا اللواتي بالإبحار معهم ، وسرعان ما حملوهن في زورق إلى ظهر السفينة .

واستأنف كولومبس رحلته صوب الجنوب أيضاً ، ولكن بنزن قائد السفينة الأولى من السفن الثلاث أسرع بسفينته « بينينا » وانفرد بالسير بها ، رغبة منه في أن يكون له فضل السبق في اكتشاف كييانجو . وفي ٥ ديسمبر سنة ١٤٩٢ وصل كولومبس بسفينته ماريا والسفينة الثانية نينا إلى جزيرة هايتي وأطلق عليها اسم « هسبانولا » وفيها توصلت علاقات الصداقة بينه وبين جوكانا كاري أحد رؤساء القبائل ، وكان شهماً شجاعاً ، بذل لصديقه كولومبس كثيراً من المساعدات ، ولا سيما عندما غرقت السفينة سانت ماريا على أثر عاصفة قذفت بها إلى الشاطئ فتحطمت على صخوره .

ورأى كولومبس أن يعود إلى أسبانيا ليجهز أسطولاً جديداً يعاود به إتمام استكشافاته ، فعاد إلى ميناء بالو حيث استقبل ورجاله استقبالا رائعاً من الشعب ، ومن الملك والملكة .

مضت ستة أشهر استطاع كولومبس خلالها أن يجهز أسطولاً من سبعة عشرة سفينة وألف وخمسمائة رجل أبحر به في يوم ٢٥ سبتمبر من ميناء بالو . وبعد شهر من يوم الرحيل لاحت له الأرض الجديدة مرة ثانية ، وكان يحسن بلهفة شديدة على رؤية رجاله الذين تركهم في ناتيفيراد ، وأخذ في البحث عن الجزيرة حتى وصل إليها .

وأذهل كولومبس أن يجد المكان خراباً بلقاعاً ، وأن يجد الحصن الذي كانوا يقيمون فيه مهجوراً لا أثر فيه ، وتملكه جزع على رجاله ، وسأل بعض الهنود فأنبئوه أن الرجال طغوا وبلغوا ، وأنهم سبوا النساء ، ويطشوا بالرجال ، وأن « كانابوا » صاحب كنوز الذهب قد سمع بطغيانهم فهجم عليهم برجاله ذات ليلة وفتك بهم فتكا شديداً .

وحزن كولومبس - رغم أنه قد أحس في نفسه أن رجاله قد تقوا جزاء ما اقترفوا من إثم - وصمم على أن يبذل جهده كي يستعيد عطف المواطنين وصدقاتهم . وأن يضاعف الحراسة على سفنه ورجالها خوفاً من أن يعيد كانابوا هجومه فيفتك بهم . وبحث عن صديقه جوكانا كاري فوجده راقداً في كوخه يستجم من جرح أصابه عندما كان يحاول الدفاع عن رجال كولومبس ضد كانابوا .

وتعانق الصديقان ، وأفعم قلب كولومبس بالشكر لصاحبه على ما بذله من أجله ومن أجل رجاله ، وصمم على أن يصحبه معه إلى سفينته ، وأن يكون عوناً له في كل أعماله ، فقد وجد فيه من الوفاء ما افتقده في غيره من الرجال .

وانتقل جوكانا كاري إلى سفينة كولومبس ، واحتل بين الرجال مركزاً ممتازاً ، وساعده ذكاؤه المفرط وشخصيته القوية الجذابة على أن يسيطر على قلوب البحارة ، واعتبط كولومبس بذلك فقد حمل عنه عبئاً كبيراً طالما أنقل كاهله ، دون أن يجد من يعاونه في حمله .

وسرعان ما تعلم جوكانا كاري اللغة الأسبانية ، وبدأ يدبر مع كولومبس خطة للقضاء على كانابوا ، والاستيلاء على ذهبه وأراضيه .

وكانت بين النساء الهنود اللاتي حملتهن السفينة كولومبس من هايتي فتاة تدعى كاتالينا .

وعندما وقع بصر جوكانا كاري على كاتالينا أول مرة بين غيرها من الفتيات لم تثر في نفسه أي اهتمام ، فقد كان ذهنه مشغولاً بما يدبره من خطط للقضاء على كانابوا ، ولم يكن بالفتاة ما يميزها عن سواها حتى تسترعى انتباهه .

ولكن ... هلى تدرون كيف يصاب الإنسان بالبرد ؟

لقد أصيب جوكانا كارى من كاتالينا بإصابة تشبه إلى حد كبير الإصابة بالبرد .

هل يدري الإنسان الذى يصاب بالبرد ، كيف يصاب به ؟ لا أظن ، وإلا لحاول وقاية نفسه منه ، ولكنه يصاب به دون أن يحس ، قد يكون تعرض لتيار هوائى ، وقد يكون انتقل من مكان دافىء إلى مكان بارد ، وقد ... وقد ... كل هذه أسباب محتملة للإصابة ، ولكن متى بالضبط ، وكيف ؟ هذا ما لا يستطيع الإجابة عنه ولا يدريه . ولكن الذى يدريه . هو أنه يجد نفسه قد عطس فجأة ، ثم أصابه زكام ، ورشح أنفه ، وتحول الزكام إلى سعال ، والسعال إلى نزلة شعبية ، والنزلة إلى التهاب رئوى ، ويجد نفسه قد أصابته حمى ، قد يشفى منها وقد تودى به .

ويمثل هذا البرد أصيب جوكانا كارى ، ولكنه لم يكن الذى أصابه برد ، بل أصابه حب ، أو « لطفة هوى » . لقد أحس أنه قد أصيب « بالعطسة الأولى » عندما وجد نفسه قد بدأ يميز كاتالينا عن غيرها من الفتيات ، و « بالثانية » عندما وجد عينيه تنقبان عنها ، و « بالثالثة » عندما وجد قدميه تسوقانه إلى جوارها .

وظهرت بوادر الزكام ، زكام الحب ، عندما أمسك بيديها بين يديه ، وسرت من عينها إلى عينيه نظرة حوت كثيراً من المعانى ، وأحس بنفسه يضل فى حلكة شعرها ، ويغرق فى أغوار عينها السوداوين ، ويحترق فى لهب جسدها الدافىء الممتلىء .

وسرعان ما تحول الزكام إلى سعال ، والسعال إلى حمى ، حمى أصابت القلب فجعلته يستعر بين الضلوع .

وحل يوم المعركة ، وهوجم كاتالوا ، فهزم شر هزيمة ، واقتيد مكبلا بالأغلال .

وأخذ كولومبس يتأهب لوضع أكاليل الغار على شامة صاحبه المظفر ،
ولكن جاكانا كارى لم يبد له أثر ، ويحدث القوم عنه عيباً ، وفجأة صاح أحد
البحارة : (ها هو) .

ونظر كولومبس فوجد البحار يشير بأصبعه إلى الأفق البعيد . واستطاع
أن يلمح نقطة تتحرك في الماء وتبتعد عن السفينة متجهة إلى الشاطئ .
ودهش كولومبس وتساءل عما حدا بالقائد المنتصر إلى الفرار بعد
المعركة ، وبعد أن تم انتصاره فيها ، وإذا كان المنتصر قد فر ، فماذا يفعل
المهزوم إذن ؟ لاشك أن الرجل قد جن .

ولو استطاع كولومبس أن يميز تلك النقطة المتحركة في الماء ، لأدرك أنها
نقطتان ، كانت إحداهما رأس القائد الهارب ، أما الأخرى فكانت سبب هربه !!
كانت رأس كانالينا .

لقد فر جوكانا كارى من متعة النصر : لينعم بمتعة كان يتلف عليها ،
وعندما وصل إلى الشاطئ واختفى بغنيمته بين الأدغال واحتوى جسدها
الدافىء حدث نفسه :

« أيها الحمقى الذين تتعمون بالضجيج ، هنا متعة الحياة ونعيمها ، هنا أجمل
ما يستطيع إنسان الحصول عليه في هذه الدنيا ، هنا الحب وكل شيء ما خلا
الحب عيب ، » .

- ٤ -

عندما استقر كولومبس في الأرض الجديدة كان يدرك أن أول ما يجب عمله
هو أن يبحث عن الذهب ، إرضاء لمطامع رجال البلاط في أسبانيا فقد كان
الذهب هو كل ما يريدونه ، وكل ما يؤملونه من رحلته إلى الأرض المجهولة .

ومرت الأيام وكولومبس يجد في البحث والتنقيب ، وكاد اليأس يمتلكه ، حتى وقعت حادثة تافهة أتاحت له العثور على مورد لا ينضب من هذا المعدن الثمين .

ففي يوم من الأيام نشب عراك بين بحارين من بحارة السفينة « نينا » ، وأصاب أحدهما الآخر بجرح بليغ . وخشى البحار المعتدى عاقبة عمله قفر من السفينة .

وتوغل بين الأحراش حتى وصل إلى إحدى قرى المواطنين . فأحاط به الهنود وقادوه إلى زعيم القبيلة ، وسار الرجل بينهم خائفاً مما قد ينزله به زعيم القبيلة الذي تصوره وحشاً كاسراً .

ووصل أمام الزعيم فزال عن نفسه الخوف ؛ فقد وجده امرأة لم يقع بصره على أجمل منها ، وقد وقفت أمامه بجسدها النموذجي الرائع وساقبها المخروطتين ، وخصرها الضيق ، وصدرها الممتلئ في تماسك ، كأنه صدر تمثال متحجر .

ووقف ميحول دياز فاغراً فاه من الدهشة ، وحملق بعينيه في الزعيم الرائع ، وتمنى لو يهجم عليه فيحتويه بين ذراعيه ، ويلهب بالقبلات شفتيه . ونظرت إليه المرأة نظرة رقيقة ، وأمرت الرجال أن يطلقوا سراحه ويكرموا وفادته ، ووجد ميحول نفسه محاطاً بعناية ورعاية كأنه بين أهله وعشيرته .

ومرت الأيام فإذا بالحب قد نصب شراكة فأوقع فيها الرجل الإسباني والمرأة الهندية ، وضمهما في حبائله ، ساخراً بفوارق الجنس وتقاليد الأديان ، ومتى كل الحب يعترف بالفوارق والتقاليد ؟

وأعلنت الزعيمة شعبها بأنها تود أن تشرف القبيلة بأمر إسباني ، وأنها قد قررت الزواج من ميغول نياز .

وصفق الشعب وهتف ..

وتم الزواج ، ونعم به ميغول فترة طويلة ، حتى بدأ يحس بالقلق ويحن إلى العودة ، ولكنه كان يعرف أن العودة وراءها عقاب شديد وجزاء صارم على ما اقترفت يداه ..

ولم يخف على امرأته قلقه وحنينه إلى أهله ، وأنه لا يستطيع العودة إلى سفينته ، وكانت تعرف أن الأسبانيين يحترقون شوقا إلى الذهب ، وأن زوجها لو دل كولومبس على مواطن الذهب لعفا عنه ؛ فتسللت به ذات يوم إلى بقعة نائية على شاطئ نهر هانيا . وركع الرجل على ركبتيه وقد بهر عينيه بريق التبريسيل بين أصابعه ،

وأثبتت الأيام صدق ظنون الزوجة ؛ فلقد عفا كولومبس عن زوجها عندما حمل إليه أبناء الذهب ، وعاش الزوجان سعيدين ، وكان زواجهما أول تحالف بين الدنيا القديمة والدنيا الجديدة .

وفي ذلك الوقت وصلت إلى الشاطئ سفينة أسبانية تحمل رجلا يدعى فرنسيسكو بوباديللا ، وكان يحمل معه مرسوما ملكياً بتعيينه حاكما على الأرض الجديدة ، ويعطى له مطلق الحرية في أن يفعل ما يشاء ، وينزع من كولومبس كل سلطانه ، ويأمره بأن يطيع أوامر الحاكم الجديد .

ونهل كولومبس ، ولم يصدق أن يكون جزاؤه مثل هذا الهوان ؛ فقد كان بوباديللا لايزيد على أفاق مغامر . وأحس أنه قد جوزى جزاء ستمار ، وأنه قد طعن في ظهره ، ولم يجد أمامه إلا أن ينتظر حتى يرى كيف ينوي بوباديللا أن يتصرف معه .

وكان يوم ٢٣ أغسطس ١٤٩٨ يوماً مشهوداً في حياة كولومبس ، فقد أغم قلبه بكره الحياة وبغض الإنسان ، إذ علم أن جهاد حياته قد ذهب سدى . وعاد كولومبس في ذلك اليوم إلى داره في سان تينجو فأدهشه أن يجد رجال بوباديللا قد أحاطوا بالدار ، وأسرعوا بالقبض عليه وساقوه سجيناً إلى أحد الحصون ، وهناك وضعت السلاسل في رصغيه وقدميه ، وأحس بالمرارة تفيض من صدره وهو يبصر بالمطارق تهوى لتحكم إغلاق القيود ، وكانت كل دقة من دقائق المطرقة تحمل إلى أذنيه صيحات الشامتين من رجال البلاط الذين ملأ صدرهم الحقد والضعف ، وأكل قلوبهم الحسد والغيرة فحاكوا له الدسائس وأنزلوا به الوقيعة .

واقيد كولومبس بعد ذلك إلى إحدى السفن لتعود به إلى أسبانيا كأنه مجرم أثيم ، وكان قائد السفينة صديقاً قديماً لكولومبس ، فعرض عليه أن يفك وثاقه ، ولكنه أجابه في سخرية ومرارة :

« لقد أمرني الملك والملكة أن أطيع بوباديللا ، وباسميها قد وضع القيد في يدي ، وسأظل أحمل القيد حتى يأمرأ بخلعه ، وسأحتفظ به بعد ذلك كتذكارة لما كافأني به على كل ما فعلت » .

وقوبل كولومبس في عودته هذه بحماسة من الشعب فاقت ما قوبل به عند عودته أول مرة ، وكلل هامته غار الظفر ، فقد نعى إلى الشعب خبر عودته مكبلاً بالأغلال ، وما لاقاه من الهوان ، فسرت بينهم روح التذمر والاستياء .

وكان الملك والملكة في غرناطة ووصلت إليهما مهمة الشعب وضجيج الجماهير ، فأدركت الملكة مبلغ ما ارتكبت من حماقة وطيش ، وأحست أن العرش قد أضحي مضغة في الأفواه ، وبخاصة بعد ماوصل إلى مسامعها نبأ المظاهرات التي قام بها الشعب الإيطالي فقد كانوا يعتبرون كولومبس أحد أبطالهم .

واستدعى كولومبس إلى القصر الملكي ، وكان قد احتفظ برباطة جأشه وثباته طوال مدة سجنه ، ولكنه لم يكذب ينفذ إلى قاعة العرش حتى انهارت مقاومته وخر باكياً منتحباً أمام قدمي الملكة كأنه طفل صغير .

وعندما تمالك قواه حاولت الملكة تهدئة خاطره بوضع كلمات طيبة .

وبهذه الكلمات عاش كولومبس بقية حياته .

وفي نوفمبر ١٥٠٤ ماتت الملكة .

ومرت الأيام بكولومبس ، فهذهمته الكبر ، وحطمه اليأس ، وأرسل إلى الملك يطالبه ببعض حقه ، أو بنصيبه من الذهب الذي تدفق عليهم من الأرض الجديدة ، فلم يكن نصيبه سوى الإهمال .

ورقد كولومبس وحيداً في حجرة صغيرة في فالانوايد ، لا يملك من حطام الدنيا سوى فراش رث ، يرقد عليه بجسده الذي أفناه في استكشاف الأرض الجديدة التي كانت ترحل منها السفينة تلو السفينة ، لتحمل الذهب وتصبه في أجواف الجشعين الذين لا تطفأ لهم غلة ولا يروى لهم ظمأ .

وفي ٢١ مايو أغمض كولومبس عينيه وفاضت روحه ، وكان آخر ما نظر إليه السلاسل المعقدة فوق الحائط ، وهي التي قيدوه بها عندما أعادوه من الأرض الجديدة .

ولو ترجمت نظراته ، أو لو استطاع النطق لقال :

بعد لحظات ، سأنتقل إلى حياة ، قد خلت من هذه القيود . وليس فيها نكران للجميل ولا جحود ، .

المرجوة الخالدة

هناك للرجل منا ثلاث نساء ، صاحبة للهو
والتسلية ، وخليقة لتضاء رغباته الطبيعية، وزوجة
لتهدىء له بيتا هادئا محترما وأبناء شرعيين .

- ١ -

لم يبد عجز الرجل في شيء ، منذ بدء الخليقة ، كما بدأ عجزه في تنظيم
العلاقات بينه وبين المرأة ، ولم يفشل في شيء قدر فشله في تحديد مايجب
أن يعطيه لها ، ومايجب أن يأخذه منها .

وقد تكون أسعد فترة قضاها الرجل في التاريخ هي تلك الفترة التي كان
يعيش فيها على الفطرة ، دون أن تحده قيود ، أو تقيده قوانين ، سوى تلك التي
وضعتها له الطبيعة .

ولكنه - قاتله الله - بدأ في التطلع إلى الرقى ، فأخذ في وضع القوانين ،
وخلق الحقوق والواجبات ، وكان أول ماواجهه من مشاكل ، هو ماذا يعطى

نصفه الأضعف ، وماذا يحرم عليه ؟ وكانت النتيجة أن انتهى الأمر به إلى وضع نظام الزواج ، ولكن هذا النظام لم يحل المشكل ، فقد كان الرجل فوق احتياجه إلى ربة بيت ترعى شئونه وتربي صغاره ، يحتاج إلى أخرى تعطيه اللذة والمتعة ، وتسيه متاعب البيت وقيوده ، وقد يخيل للمرأة أنها قادرة على أداء العملين ، ولكن الرجل يؤكد أن امرأة واحدة لن تستطيع أن تعطيه كل ما يطلب ، فبدأ يبحث بعد الزوجة عن امرأة أخرى ، للهو والمتعة ، ولكن هذه الأخرى ، لم يرضها أن تكون مجرد أداة لهو ، وبدأت تطالب هي الأخرى بحقها في الحياة ، وكانت نتيجة ذلك أن نشأ نظام تعدد الزوجات ، ولكن حتى هذا أيضاً لم يقنع الرجل ، فقد رأى أن المرأة تفقد قيمتها كوسيلة للمتعة بمجرد أن تصير زوجة ، ورأى من الحمق أن يحاول التخلص من قيود الزوجة بزوجة أخرى ، فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وأدرك أخيراً أن شر ما يبتلى به الرجل هو عدة زوجات ، وأن خير وسيلة للتمتع بالحياة ، هو أن يقع بزوجة واحدة ، ويضع محظيات . فليس أحب إلى نفسه من اللذة المسروقة والمتعة المختلصة ، وماكانت رغبة الرجل في المرأة لتقاس بمقدار جمالها ، بل بمقدار مايلقاه من مشقة في الحصول عليها ، فإن وجدها سهلة في يده لاتعب في الوصول إليها ولامشقة ، ذهبت فتننتها وخبا بريقتها ، وهكذا الزوجة لايكاد الرجل يحصل عليها ، ويجدها طوع أمره ، حتى يزهد فيها وينصرف عنها ، ولاتكاد تثيره إلا بمقدار ماثيره تمثال في ركن الدار حتى ولو كان لآلهة الجمال .

هكذا خلق الرجل ! هو دائماً يريد امرأة أخرى ، لايهمه أن تكون أجمل من الأولى ، بقدر مايهمه أن تكون «أخرى» ويقدر مايهمه أن يركب الصعب في الحصول عليها ، وأن تكون محرمة عليه ممنوعة عنه .

ومن عدة قرون خلت ، في عهد الإغريق - وهو عهد من عصور المدنية الزاهرة - نجد ظاهرة من الظواهر قد تبدوا لنا الآن على شيء من الغرابة ،

وإن كانت في ذلك الوقت لاتعدو أن تكون نظاما طبيعياً من نظم الحياة الاجتماعية ، فقد كانت النساء في ذلك العصر ينقسمن الى طبقتين متباينتين : إحداهما طبقة الزوجات الشرعيات اللاتي تحجبهن جدران البيوت ، والأخرى طبقة المحظيات العابثات اللاهيات ، وهن يتمتعن بقسط وافر من نعيم الحرية والحياة .

وكان للإغريق عدة آلهة يمثل كل منها مظهرا من مظاهر الحياة أو قوة من قوى الطبيعة . وكانت أفروديت أورانيا هي إلهة الحب المثمر ، والزوجة النقية الطاهرة ، والأم الحنون الرءوم . أما أفروديت بانديموس فكانت إلهة الجمال العابث الصاخب الملىء بالمتعة واللذة ، الفياض بالحب والهوى الذي حطم قيود الحياة ، وانطلق حراً يسرى في كل فؤاد ، وينفذ إلى كل قلب ، ويترك كل من صادفه ثملا نشوان من فرط السرور والطرب .

وكان لكل إلهة معبد خاص ، حرم دخوله على الرجال تحريماً باتاً ، ولم تكن بانديموس بأقل تبيجلاً أو احتراماً لدى الإغريق من زميلتها أورانيا ، ولم تكن المحظيات أو الصاحبات كما كن يسمين في ذلك العهد محل ازدياء أو احتقار . أو كان لانتسابهن بطبقتين حطة من كرامتهن . بل كن على النقيض - محل تقدير أهل العلم والأدب والفنانين والشعراء ، إذ كن فوق جمالهن الفياض وأثوثهن الزاخرة - مثقفات مهذبات ، عالقات بكل نواحي العلم والفلسفة والسياسة ، وكن لا يألون جهداً في مسيل توسيع مداركهن وصل عقولهن .

وكانت كورنثه في ذلك الوقت مدينة الشعر والهوى والفن والجمال ، فقد كانت تزخر بعدد هائل من الرفيقات ، وكان معبد بانديموس يقوم فيها كأنه منبع الفتنة والجمال ، ومشرق النكاء والنبوغ ، وكانت الكعبة التي يحج إليها الأثرياء ومشاهير الرجال من قنانيين وشعراء وفلاسفة وحكماء ؛ كي يرفهوا عن نفوسهم ويغمروها في فيض من النور والجمال ، ولم يكن في مرافقتهم

للساحبات أنتقاص لأقدارهم أو خيانة في حق زوجاتهم ، بل كان أمراً طبيعياً لاغبار عليه ، وليس أدل على ذلك من هذه الجملة الأنية المقتبسة من كلام ديموسين ، كان للرجل منا ثلاث نساء ، صاحبة للهو والتسلية ، وخليلة لقضاء رغباته الطبيعية ، وزوجة لتهييء له بيتاً هادئاً محترماً وأبناء شرعيين ، .

وفي ذات يوم أقيمت إحدى المآدب الفاخرة في قصر ثرى من أثرياء كورنثة ، ودعى إليها مشاهير الرجال ، كل مع صاحبتة ، وبدأ القصر يتلألأ بالأنوار ، ويفيض بالموسيقى العذبة والجمال الشهي .

واقفد القوم أبللس الفنان العظيم - الرسام الخاص للأسكندر الأكبر - فلم يجدوه ، وطال انتظارهم له دون جدوى ، وكانوا يتلهفون شوقاً لرؤية صاحبتة ، ومن تكون .. ١٤

وأخيراً هبط عليهم الرجل الفنان .. ومعه صاحبتة !!

وذهل القوم حين رأوا الصاحبة ، لاتزيد على طفلة في الثانية عشرة ، رثة المنظر ، مهلهلة الثياب ، قد بدا عليها الفقر والحرمان .

ووقف الفنان وسط القوم ، وانهاالت عليه الأسئلة الساخرة الهازلة .. وقد أمسك بيده الصبية المشدومة الحائرة ، التي تملكثها الروعة والعجب مما بدا حولها من مناظر لم تألفها ، ولم تعتد رؤيتها !!

وأنباهم الرجل أنه قد صادف الصبية تهيم على وجهها في الطرقات شاردة باكية .. فرق لحالها .. وسألها عما بها فأنبأته أنها وحيدة في الحياة ، لاتجد لها طعاماً ولا مأوى .. وتفرض فيها الرجل وفحصها بعيني الفنان ، فإذا بكل جزء فيها قطعة فنية .. فلم يتردد في اصطحابها وصمم على رعايتها والعناية بها .

وضحك القوم هازئين .. وتلقى الرجل سخريتهم بابتسامة هادئة ، وأقسم لهم أن هذه الطفلة التي سخرُوا منها وهزءوا بها .. ستجعلهم بعد ثلاث سنين يخرون أمامها سجدا ، ويعفرون جباههم في ثرى أقدامها .

ومرت السنون الثلاث .. فإذا بقول الفنان يتحقق ، ونبوءته تصدق ، وإذا بالصبية قد تحورت فصارت بدعة من صنع الله ، وآية من آيات الخالق .. وإذا بها كأنها ينبوع يتفجر منه سحر يسبى ، وفتنة تسترق .. فقد كان بالفتاة جمال عجيب لم يكن في غيرها من النساء .. فكأن المرء يرى وراء عينيها هاوية سحيقة بعيدة الغور ، تكاد تجنبه إليها فتودى به في أعماقها ، أو كأنها صندوق من الكهرياء ، كل قطعة بما تحوى خطرا داهماً .. وتهلكة كبرى .

ولكن الناس جبلوا على أن يلقوا بأيديهم إلى التهلكة ولاسيما هذا النوع من التهلكة .. فبين عشية وضحاها .. صارت الفتاة إلهة يعبدها كل أغريقي ، لا فرق في ذلك بين غنى وفقير .. وكبير وحقير ، بل كان كل رجل يعتبرها معشوقته الخاصة ، ويجد في مرآها متعة ، وفي التفكير فيها نشوة ولذة .. ولم يحاول أحد أن يستأثر بها دون الآخر .. بل قنع الكل بعشقتها جماعة .. ولم يكن بمستعص على الفتاة أن ترضى الشعب بأكمله ، فقد كان منبع الجمال لديها لا يفيض ولا ينفد .. فلو اعترف منه كل عشاق العالم لأروى غلتهم .. وبقي كما هو : قياضاً بالسحر متدفقاً بالهوى .

ووهبها الأثرياء ثرواتهم ، والشعراء أشعارهم .. والموسيقيون ألحانهم .. فبلغت الفتاة أوج المجد وقمة الشهرة .

وسارت حياتها هادئة ناعمة .. حتى اعترضها ذات يوم فتى موسيقى ناشيء .. ولم يكن بالفتى ما يميزه عن غيره من آلاف العشاق والمعجبين ، بل ربما كان أقلهم في كل شيء ... ولكن ما قبل من أن لكل روح نصفها الآخر ، وتوأمها الذى خلق معها .. والذى تظل تلتمسه طول الحياة ، حتى

إذا التقيا انطبق أحدهما على الآخر ، ولقهما النعيم الأبدى والسعادة الدائمة -
قد بدا جلياً واضحاً عندما التقى الفتى بالفتاة .

لم يكن هناك شك في أن الفتى هو نصفها الآخر الذي كانت تتعطش إليه ،
وعجبت الفتاة لنفسها كيف اضطرب رأسها ، وخفق قلبها ، كأنها ما رأت غيره
رجالاً من قبل ، وعجبت كيف كانت تسنلذا لحياة قبل أن تراه وكيف استطاعت
أن تقنع طول تلك المدة السانقة من عمرها بتلك الصورة الباهتة الجديدة التي
لارونق فيها ولا بهاء ولا حياة ولا رواء .

وذاقت الفتاة حلاوة الحب ، وعرفت أن ما مر بها لم يكن إلا قشوراً
زائفة .. وبدأت تجنح إلى العزلة لتجلس وحيدة مع فتاها ، يهمس في أذنيها
همسات العشق ، ويكسب فيهما ألحان الهوى .

ولكن الفتاة لم تكن حرة في أن تحتجب كما تشاء .. أو تهب نفسها لرجل
دون سائر الرجال ، فقد كان الناس يعتبرونها ملكاً لهم أجمعين .. تماماً كضوء
الشمس ونور القمر .. لا حق لأحدهم في الانفراد به دون الآخر .. بل الكل
لديه سواء .. يتمتع به الفقير في عشه كما يتمتع به الغنى في قصره .

وعلى ذلك فقد كان زهول الناس شديداً وغضبهم أشد .. تماماً كزهولهم
وغضبهم حين يرون أنفسهم ذات مرة وقد توسط القمر كبد السماء في ليلة
صافية الأديم ، وأشرق عليهم بضوئه القضي فغمرهم في فيض من النعيم
والمتعة .. ثم يرون الدنيا قد أظلمت فجأة فإذا بهم في حلقة دامسة ، وظلمة
كثيفة موحشة ، وإذا بضوء القمر قد تركز كله في شعاع واحد ، واتجه إلى
فرد منهم يخصه وحده بنوره ، ويترك سائر العبيد يهيمون في الوحشة
والظلام .

وأحسبت الفتاة غضب الناس وقرب انفجار ثورتهم .. فعزمت على الهرب

مع فتاها .. وتركت المجد والشهرة ؛ ونبتت الثروة والجاه واستبدلت بالنعيم الأجوف الصاخب نعيما أكثر عنوبة وأحلى مذاقا .

واختفت الفتاة مع عاشقها ، وتركت قصرها العظيم ينحى من بناء وعاشت فى قرية هادئة تنعم بالحب .

وانتقلت الفتاة من طبقة صاحبات إلى طبقة الزوجات ، فقبعت وراء الجدران تبني عشها الصغير ، وتهينه للصغار القادمين .

وأظهرت لها بقية الزوجات الحب والمودة ، ورحبن بانضمامها إلى طبقتهن أشد الترحيب ؛ فأنست إليهن واندمجت فيهن .

ولكن طبقة الزوجات لم تكن مخلصمة فى حبها للفتاة ولا جادة فى الترحيب بها ، فقد كان كل هذا تظاهرا منهم وخداعا ومخاتلة ورياء ؛ فقد كن يكرهنها من صميم قلوبهن ، ويحقدن عليها ، إذ كان فى قلب كل زوجة منهن حرقه ، ولم ينسين بعد كيف انزعت منهن أزواجهن ، وكيف أصبح كل رجل لا ينطبق لسانه إلا بنكرها ، ولا يخفق قلبه إلا بحبها .

وصممت الزوجات على أن يثأرن لأنفسهن منها فانفقن على أن يدبرن لها مؤامرة محبوكة الأطراف ، واقترحن عليها أن تذهب معهن ذات يوم لزيارة معبدهن وتقديم الولاء لإلهة الزوجات ما دامت قد انضمت إلى طبقتهن ، وسارت الفتاة معهن حتى وصلن إلى المعبد ، فطلبن منها أن تجلس أمام تمثال الإلهة حتى تتلقى بركاتها .

ولم تكد تجلس الفتاة .. حتى انهلن عليها رجما بالحجارة .

والفتاة لا تكاد تجد منقذا من برائتهن .. وظلت الحجارة تتهاوى عليها من كل حذب وصوب .. حتى سقطت الفتاة وأصبحت جثة هامدة .

وعلم الرجال بما حدث ، فثارت ثائرتهم ، وتمنى كل رجل لو استطاع أن يفنيها بجسده .. وهجر الأزواج زوجاتهم ولعنوهن في كل صلاة وتوسلت صاحبات إلى إلهتهن أن تتأر لهن من الزوجات الشريرات اللاتي غدرن بزميلتهن وفككن بها .

وسواء أكانت إلهة صاحبات قد استجابت ادعائهن .. أم كان هذا من صنع القدر .. فقد انتشر في البلد طاعون خبيث عجل بالموت وخطف الأرواح .. ورأت الأمهات أولادهن وفلذات أكبادهن يسقطون صرعى أمام أعينهن دون أن يجدن لهم متقذا .

وأحس الرجال أن لعنة الآلهة قد حلت .. وأن هذا هو نذب الفتاة المسكينة البريئة ، ووجدوا أن خير ما يرفعون به لعنة إلهة صاحبات هو أن يشيدوا للفتاة اتراحلة معبدا يقسونها فيه .. ففعل هذا يرضيها فترفع عنهم الطاعون .

وبدأ العمل في المعبد بسرعة البرق . وكان الرجال يتمساقون صرعى من المرض .. فحل مكانهم غيرهم من الرجال ولم تكف الأيدي لحظة واحدة عن العمل حتى انتهى بناء المعبد .

وتشاء الأقدار العجيبة أيضاً ألا ينتهي وضع آخر حجر في المعبد إلا وقد ذهب الوباء وأمن الناس شره .

وقام المعبد على الصرح رفیق البنيان ، يشير بإزدراء إلى الزوجات الحاققات الغيورات .. وثوت فيه الفتاة الحبيبة إلى كل قلب .. هائلة راضية ، فما استطاعت الأنانية والغيرة أن تبعدا عنها القلوب .. أو توقفا الحب والوله ، وما خلا معبدها لحظة واحدة من آلاف النفوس الحزينة العامرة بالحب .. وعبدها الرجال في موتها كما عبدوها في حياتها .

هذه قصة نرويها حدثت منذ خمسة وعشرين قرناً .. وقد ذهب القناة ..
وذهب الرجال .. وذهب المعبد .. ولكن أتراهم حقاً قد ذهبوا .. أم بقي أمثالهم
في كل عصر وعهد .. وهل استطاع الرجل أن يحل المشكلة بينه وبين المرأة ؟
أم تواري مختبئاً خلف ستار الزواج .. أو الخدعة الكبرى ؟؟



كسرى وصاحبه

وقد غفر كسرى لاراسبيز حبه لبائيا ... ولكنه
يعيب عليه استعمال العنف ... ويعدده بأن تكون
المرأة له إذا استطاع بمهارته أن يجذب قلبها
نحوه .

ساد السكون .. وخيم الصمت . بعد أن خبا لهيب المعركة فما عاد يسمع
هناك قعقة ولا صليل .

وبدأ المنتصرون يحصون الغنائم والأسلاب .. ليقتسموها فيما بينهم .

كان ذلك منذ آلاف السنين ، في نحو القرن الرابع قبل الميلاد في عهد
كسرى الأكبر أمبراطور الفرس ، وقاهر بابل والدولة الآشورية ، وكان جيشه
قد خاض غمار معركة رهيبه ضد الآشوريين ، فصال فيها وجال ، وأذاق
غذوه الأمرين ، وخرج منها وقد أثمته خمره الظفر وأسكرته نشوة الفوز .

وكان القوم في ذلك الوقت تعودوا أن يذهبوا إلى ميادين القتال ، وقد حملوا
معهم كل مايملكون من حطام الدنيا .. من مال وعبيد .. وكواعب غيد .. ولو

أن ذلك يتقل كاهل الجيش ، ويضاعف مشقة تموينه في الميدان .. إلا أنه كان لدى القوم اعتقاد أن المحارب يزيد من استبساله علمه بأنه إنما يدافع في قتاله عن أعز ما يملك .. وتأكد أنه فقد المعركة ، يعنى فقد كل عزيز لديه ، وذهابه إلى أيدي عدوه .

وكان كسرى - رغبة منه في تقوية جيشه وزيادة جنده - لا يفتأ يظهر شتى ضروب الشهامة والمروءة ، ولا سيما مع أسراه وسبائيه ، وكان كثيراً ما ينتهز فرصة تقسيم الغنائم فيظهر فيها مبلغ كرمه ، وشدة إتيائه ورفعته نفسه .. فكان موضع إجلال واعتبار من صديقه وخصمه على السواء .

وكانت العادة قد جرت على أن يبدأ الذين بيدهم تقسيم الغنائم في إعطاء الآلهة حصتها من الأسلاب .. اعترافاً لها بالحمد والشكر لما حبتهم به من نعم وجعلتهم من الظافرين .

ثم يأتي بعد ذلك دور كسرى .. وكان من نصيبه في هذه المعركة خباء فخم لأبروداش أحد قواد الأثوريين ، وكان به زوجته الفاتنة الحسناء ، ومعها جواربها من راقصات ومغنيات ، وبقية الخدم والأتباع .

ولما وصل كسرى النبأ .. طلب - أراسبيز - صديق طفولته ووكيل إليه أمر الخباء وكلفه بحراسة الأميرة وتوابعها .

وشعر أراسبيز بعبء هذه المهمة التي أقيت على كاهله فسأل كسرى :

- هل رأيت هذه المرأة التي كلفتنى بحراستها ؟

- كلا .. لم يقع نظري عليها بعد .

- لقد رأيتها عندما كنا نوزع الغنائم ، ولم أستطع تمييزها لأول نظرة عندما دخلت الخباء .. فقد كانت ترتدى نفس الملابس التي ترتديها تابعاتها .. ولكن

النظرة الثانية إليها علمتني أنها نسيج وحدها .. لقد وقفت عندما أمرتها بالوقوف .. فكانت قطعة أبداع الله في صنعها .. كانت تبكي بكاء مرأ .. وحاولنا طمأننتها والتخفيف من لوعتها .. فقلنا لها إنها قد أصبحت ملكا لكسرى العظيم .. سيد ملوك العالم قاطبة .. فما زادها هذا إلا عويلا ونحيبا .. حتى لقد شقت خمارها فبدأ منه رأسها وتعرت رقبتها حتى الكتف .. فشح منها السحر حتى كاد يذهب بأبصارنا وعقولنا ..

ثم صمت لحظة وأردف :

- اذهب إليها .. لترى الفتنة وضعت في امرأة .. اذهب وانظر .. فترى عيناك .. أكثر مما سمعت أذنك .

وهز كسرى رأسه ثم أطرق وقال :

- يا صاحبي لن أذهب إليها قط .. لن ألقى بيدي إلى التهلكة سافر من هذه الفتنة .. وسأمن في تجنبها كلما أمعنت في وصف جمالها .. أنت تعلم أنه ليس لدى وقت للهو والحب .. فلو كانت صاحبتك كما وصفتها .. لأذهب جمالها مني العقل .. فارتيمت في أحضانها .. وفقدت معاركى وكنت من الخاسرين .

فضحك أراسبيز ساخراً وقال :

- كسرى العظيم يقول هذا ؟ أتصدق ياسيدى أن مجرد النظر إلى الجمال مهما كان سحره .. يمكن أن يفتن الرجل القوي .. فيوقعه في شراكه ويجعله يتخبط كفأر في مصيدة ؟ . كلا ياسيدى . كلا .. لو كان قولك صحيحاً .. لكان الجمال كنار مبيترة .. تحرق بشواظها كل من لمسها .. ولكننا رأينا كل من حول هذه المرأة قد اكتوى بنيران حبها .. وجن من فرط هواها .

إن الحب ياسيدى لايمكن أن يكره عليه المرء .. إنه أمر يفعله الإنسان بمحض إرادته .. وبمشيئته واختياره .. فهو ليس - كما تتصور - أغلالا يكبل بها المرء . أو أسراً يقع فيه .. والإنسان حر فى أن يحب أو لا يحب .. وليست المسألة مسألة جمال .. فقد يجذبني جمال لا يحرك فيك ساكناً .. وقد رأى جمالا لا يكلفني حتى مشقة النظر إليه .. ثم تراه فيتركك صريعاً لاجراك بك .

و على أية حال .. فإننى أعتقد أن ذا الحجا .. يستطيع أن يسير فى الطريق الذى يريد أن يسير فيه .. وإن تستطيع امرأة .. مهما بلغت من السحر أن تثنيه عن غايته .

وكان كسرى يسمع لصاحبه مطرقاً فلما انتهى صاحبه رفع إليه رأسه
سائلاً :

- إذا كان الأمر كما تقول ياأراسبيز ، فلم لا يكف الناس عن الحب ؟ .. لم لا يستطيع هؤلاء الذين تحطمت حياتهم على مذبح الحب .. أن يفروا منه ؟ وهؤلاء الذين ذهب عروشهم فى سبيل الحب .. فنلوا بعد عز .. لم لم يتمكنوا من الإفلات من شراكه ؟ وأولئك الذين أدمت أقدامهم الأشواك الملقاة فى طريق الحب فتعثروا فيها لم لم يطرقوا طريقاً آخر ؟

- هؤلاء هم ضعاف النفوس .. خفاف الأحلام ! ولعمرى لأندرى لم نصفح عن أولئك الذين لا يستطيعون أن يكفوا عن الحب .. وتعاقب أولئك الذين لا يستطيعون أن يكفوا عن السرقة وهم فى الجرم سواء ..

فإذا كان الأخير لا يبرر جرمه أن ماسرقه قد أغراه بالسرقة .. فلم يبرر حب العاشق أن الجمال قد أغراه بالحب ؟

إن الذين تسميهم بضحايا الحب .. هم أولئك الذين لا يصلحون فى الحياة لشيء ولو لم يكونوا ضحايا حب .. لكانوا ضحايا أى شيء آخر .. بل لكانوا

ضحايا أنفسهم .. وضحايا عجزهم وضعفهم ، وكل مافي الأمر أنهم جعلوا
الحب ستاراً يخفون خلفه نفوسهم الواهنة ..

ولم لاتأخذ منى مثلاً ياسيدى ؟ وقد رأيت هذه المرأة التي ركبت في
عينيها .. بل في كل جزء من أجزاء جسمها .. قوساً وسهاماً .. فهي لاتفتأ
تصيب الناظر إليها .. بالسهم تلو السهم .. حتى يسلم إليها .. أو يسقط
صريعاً .. فما استطاعت أن تصينني بخدش .. لاشيء إلا لاني أعلم أن ليس
لي أن أحبها لأنها ليست ملكاً لي .. بل ملكاً لك .

- قد تكون صادقاً .. ولكن تذكر أنك لم تر المرأة إلا مرة واحدة فقط !!
لقد أبيت إلا أن تشبه الجمال بالنار التي تلهب كل من لمسها .. ولكنى أؤكد
لك أن النار أخف وطأة .. لأنها لن تلهبك إلا إذا وضعت يدك فيها .. أما الجمال
فصاحبته يمكن أن تصيبك وهي بمنأى عنك .. فتشعل فيك الفؤاد .. وتلهب
القلب ، فلا تشعر إلا حين تصبح هشياً تذروه الرياح .. وإذا بك يا صاحبي
قد أصبحت دون أن تدري من ضحايا الحب ..

وافترقا .. وكل منهما مازال عند رأيه .. وكان آخر ما قاله أراسبيز :

- إنى لن أقع في شرك حب لأرغب في الوقوع فيه .



وأسرع أراسبيز إلى الخباء .. وقدم نفسه إلى صاحبتة .. وكانت تدعى بانثيا
وأخبرها أنه قد أصبح من تلك اللحظة مسئولاً عن راحتها .. وعن توفير كل
ما يلزم لها .

وشكرته بدورها على عطفه ورفقه ، وأفهمته أنها عندما وقعت في الأسر
كانت تخشى أن يذيقوها صنوف التعذيب والتشريد ، فضحك أراسبيز وأفهمها

أن شيئاً من ذلك لا يمكن أن يحدث ، وأن عليها أن تعتبر نفسها كأنها بين أهلها وعشيرتها .

ومرت الأيام وإذا بأراسبيز قد أصبح يطربه الجلوس إليها وتشجيه نبراتهما .. وتسحره بسماتها ..

وبدأت أحواله تتقلب رأساً على عقب .. فإذا به وقد بدا شارد اللب .. غارب البال .. كأن هناك هما يقض مضجعه .. ويسبب لوعته .. وإذا بمرحه قد تبدل صمناً ووجوماً ..

وكانت بانثيا لا تفتأ تظهر له تقديرها لعطفه عليها وبره وبها ، فكانت تدعوه بين الحين والآخر للعشاء معها .. وكانت راقصاتها ومطرباتها يشنفن آذانه ويدخلن السرور على قلبه .

وفي ذات يوم أصيب أراسبيز بالحمى ، وإذا به طريح الفراش يهذى من الألم .. فتطوعت بانثيا لتمريره وجعلت من مرضه الأليم .. حلماً جميلاً .. وظلت تكلؤه بعنايتها وتشمله برعايتها حتى أبل من مرضه وردت إليه صحته .



وأحسن أراسبيز بعد ذلك .. أن زمامه قد أفلت .. فلم يعد في طوقه بعد أن يكبح جماح نفسه .

عجباً ! ذلك الرجل القوي الجبار .. الذى كان يسخر من ضحايا الحب .. ومن ضعاف النفوس . ذلك الرجل الذى كان يسخر من شهواته ولذاته .. ويتحكم فى نفسه كما يتحكم فى سلسلة يطويها على أصبعه .

عجباً له ! لقد جرفه الحب كما يجرف السيل حصاة صغيرة .. أين إرادته ؟ وأين سيطرته على نفسه ! بل أين هى نفسه ؟ . لقد حطمها الحب .. فإذا بها ولهى حائرة .

ومما أضناه وزاد من وجده أن حبه كان من جانب واحد .. فقد كانت بانثيا لاتحمل له إلا صداقة لاتشوبها شائبة .. وما صرحت له قط بأكثر من ألفاظ الصداقة و عرفان الجميل ، بل أكثر من هذا أنها كثيراً ما كانت تصرح له بشدة حبا لزوجها وفرط إخلاصها له .

ولم يكن كسرى طيلة هذه المدة قد قرب الخباء ، أو رأى صاحبه .. ولكن أراسبيز بالرغم من ذلك لم ينس قط أن المرأة إنما هي ملك لكسرى .. وأنه لايمكن له أن يقرب مال غيره .. فما بالك بمال كسرى .. ملكه وصديقه ؟

وهكذا اعتبر أراسبيز نفسه كالمصاب بداء عضال .. لا أمل له في براء ، ولارجاء في شفاء .. وحدث أن طلب أحد الضباط من كسرى أن يعطيه إحدى جاريات بانثيا فأجابه كسرى إلى طلبه بدون تردد ، وكانت السهولة والترحاب اللذان خلع بهما كسرى الجارية على الضابط مما شجع أراسبيز على أن يخرج عن صمته ، فاعترف بحبه لبانثيا التي قابلت اعترافه بدهشة وتعجب ، وأفهمته بأدب أن قلبها مشغول بحب زوجها وأنها لايمكن أن ترضى بغير زوجها بديلا .

ولما كانت بانثيا مازالت تشعر بصداقتها نحوه ومازالت تنكر جميله معها فقد عملت جهدها على ألا يصل إلى أسماع كسرى شيء مما جرى بينهما حتى لايفضب على صديقه .

ولكن أراسبيز كان قد تمكن منه الداء حتى أفقده صوابه ، إنه قد ينال بالعنف ماعجز عن أن يناله باللين ، فبدأ يسيء معاملتها .. ووجدت بانثيا نفسها قد أصبحت معرضة لشتى ضروب الإهانة ، وأنها بدأت تعامل كأي جارية أخرى من سبايا الحرب ، فلم يسعها إزاء ذلك إلا أن ترسل إحدى جواريتها إلى كسرى لتخبره بجلية الأمر ، ولترفع إليه شكواها .

ولما وصل الأمر إلى مسامع كسرى كاد ينفجر من الضحك .. وتكرر محاضرة أراسبيز عن الحب وعن قوة الإرادة . وعجب كيف جعل الحب هذا الرجل القوي أشبه بصبيبة المدارس .. ثم أرسل لأراسبيز الرقعة التالية مع أحد أصدقائه :

ولقد غفر كسرى لأراسبيز حبه لبانثيا .. ولكنه يعيب عليه استعمال العنف .. ويعدّه بأن تكون المرأة له إذا استطاع بمهارته أن يجذب قلبها نحوه . .

ولو كان كسرى قد أمر بقتله لما أثر ذلك في نفسه قدر ما أثرت هذه الرقعة ، لقد ضرب له كسرى مثلاً في كرم الخلق والرجولة . . ويكى أراسبيز بعد أن رأى كبرياءه تتحطم ..

وتقابلاً بعد ذلك فحاول كسرى أن يسرى عن نفس صاحبه .. فأخبره أنه يعتبر نفسه مسئولاً عما حدث له .. لأنه ألقى به وسط النيران .. وأن الآلهة نفسها لو وضعت مكانه لسقطت في الشرك . فزاد ذلك التسامح في ثورة أراسبيز على نفسه ، وأخبر كسرى أن روحه ستظل معذبة شقية ، وأنه لذلك يجب أن يرسل بعيداً ويظل مختفياً أبد الدهر .

فرد عليه كسرى :

- إنى أقترح عليك علاجاً يشفى ما بنفسك من حزن ويأس .. ويمكنك بواسطته أن تؤدى لوطنك ولى خدمة جليلة .

فصاح أراسبيز وكأنه غريق ألقى إليه بطوق النجاة :

- هاته ياسبدي .. فسأفعل ماتأمر به ولو كان فى ذلك هلاكى .

- ليس عليك إلا أن تدعى أنك تخشى أن أنزل بك العقاب على ما فعلت ثم تفر هارباً ، وتذهب إلى معسكر الأشوريين .. ولاشك أنه لن يكتبك أحد ،

ولك أن تسبني وتلعنتي كما تشاء .. حتى تدخل في روعهم أن هرويك إليهم
ليس بخدعة .. ويمكنك كذلك أن تذكر لهم من المعلومات عن جيشنا ما لا ترى
خطورة في تكره .

ونكر له كسرى ما يود الحصول عليه من معلومات عن أعدائه .. وشرح
له ما يرغب من التفاصيل .. وأراسبيز مغتبط أيما اغتباط بهذه الفرصة التي
سندت له للتكفير عن سيئته .. وأخيرا سأله كسرى :

- ولكن هل تظن في نفسك القدرة على مفارقة بانثيا ؟

وهنا ظهر الانفعال على وجه أراسبيز وقال مطرفا :

- ستعيني الآلهة على ذلك .

ورحل أراسبيز ومعه بعض المخلصين من خدمه ، ولم يكن هروبه موضع
دهشة ، فقد كان أمراً طبيعياً . وساء بانثيا أن تكون قد صادقت مثل هذا الرجل
الخائن الذي يفر إلى أعداء وطنه وملكه .. فعرضت على كسرى أن ترسل
لزوجها كي ينضم إليه وكان ذلك يسر كسرى كل السرور ، فقد كان لدى
أبروداتي القدرة على أن يضم معه قوة هائلة من فرسان الأشوريين ، وكان
ذلك مما يدعم جيشه .

وأرسلت بانثيا لزوجها رسولا تعرض عليه الأمر فرحب كل الترحيب
بالانضمام إلى كسرى العظيم .. وسرعان ما كان في معسكر كسرى موضع
الكرم والعناية .. والتقت بانثيا بزوجها بعد طول فراق .

وفي وقت قصير أصبح أبروداتي محل ثقة كسرى ونراعه اليمنى ، وكان
من أقدر قواد الفرسان ، فبدأ في تنظيم فرسان كسرى وتدريبهم حتى جعل
منهم في وقت قصير قوة لا يستهان بها .

وذات يوم جلس كسرى يتشاور مع قواده فدخل عليهم رجل غريب المنظر ، وماكاد يقترب من القوم حتى علت منهم صيحة وقالوا في نفس واحد :

- أراسبيز الخائن .

ولشد ما أدهشهم أن الذي يسمونه خائناً قد احتضنه كسرى بين ذراعيه في شوق ولهفة ، ثم بدأ يفهمهم أن أراسبيز لم يكن خائناً وأنه كان في مهمة شديدة الخطورة كان كسرى قد اتفق معه عليها ، وأن فراره إلى العدو كان أمراً مديراً .. وأن أراسبيز رضى أن يضحي بحياته في سبيل وطنه ومملكته .

ولما عرف القوم ما كان من بطولة أراسبيز أهبلوا عليه يهتفونه في إعجاب وتقدير .. وشعر هو أنه قد نال جزاء تضحيته فملاً قلبه السرور .. فقط .. لو كانت بانثيا هنا . لترى أنه لم يكن رجلاً خائناً إذن لما كان على وجه الأرض من هو أسعد منه .

ورأى أراسبيز بين القواد رجلاً غريباً لم يره من قبل .. رجلاً طويل القامة نبيل تقاطيع الوجه .. وعندما سأل هامساً من يكون الرجل .. أخبروه بأنه أبروداتي .

وكانت صنمة له شعر بعدما أن كيانه قد ترعزع .. وأن أمه في الحياة قد أصبح سراياً كانبيا .

وبدأ الشيطان يبيث في نفسه الأمل بأن أبروداتي رجل جسور وأنه لاشك ملاق حتفه في معركة من المعارك ، وبعد ذلك يخلو له الجو ، ولكنه شعر بالخجل يملأ نفسه لمجرد التفكير في ذلك .

وكان كسرى على وشك أن يقوم فى هذا اليوم بهجوم ساحق على الأشوريين الذين غزوا لىديا بجيش كبير .

وكان كل شىء على تمام الاستعداد فلم تك تنقص إلا الإشارة بالبده حتى تنطلق الجنود والخيل كأنها الريح العاصفة .

وظهر الفرسان رائعين فى خوذاتهم ودروعهم .. وظهت عربة أبروداتى كالطود الأشم تجرها ثمانية جياذ مطهمة .

وقبل المعركة اصطف الجيش فظهت بانثيا تتقدم إلى زوجها حاملة فى يدها درعا من الذهب الخالص صاغتها من حيلها نون أن يعرف زوجها حتى تكون مفاجأة سارة له قبيل أن يخوض غمار المعركة .

ونظر إليها زوجها نظرات تمتلىء بالحب والإخلاص وقال .

- سأثبت لك أنى أستحق هذه الدرع .

وأعطيت إشارة التقدم فانطلقت الجياذ كأنها البرق .. وعلا الصهيل والصليل .. وبدأ الكر والفر .. وقبل أن تتحرك عربة أبروداتى شوهدت بانثيا وهى تطبع قبلة أخيرة على بابها ، ثم انطلقت العربة .

وانتهت المعركة بانتصار كسرى .. وعاد قواده رافعى الرأس ثملين بخمرة الفوز .. إلا قائداً .. كان أكثرهم شجاعة .. وأشدهم جرأة .. وذلك هو أبروداتى .. فقد قضى نحبته بعد أن ألبس جيشه أكاليل الخار .

وعلم أراسبيز بموته .. فتخبطت الأفكار فى رأسه ، وساءل نفسه : هل خلا له الجو الآن ؟ لقد وسوس له الشيطان أن أبروداتى قد يموت فى إحدى المعارك فتصبح بانثيا له .. والآن وقد مات أبروداتى .. هل حقيقة قد أصبحت

بانتثيا له ، وأحس أنه قد أصبح يتخبط في ظلام حالك .. وشعر أنه قد أجرم
في تفكيره .. وأنه من الضالين .

وعلمت بانتثيا بالأمر الجلل فخرجت في هدوء .. وسارت بين جثث القتلى
حتى عثرت على جثة زوجها .. فقتلت نفسها في صمت .. فرخرت بجواره
جثة هامدة .

وشوهد أراسبيز بعد ذلك .. وكأنه شبح من الأشباح .. يهيم على وجهه ..
وهكذا ذهب الرجل الساخر من الحب .. ضحية من ضحايا الحب .



امبراطورية جواد

واتفق الستة على طريقة الاقتراع ، وهو أن يمضى كل منهم على جواده إلى نقطة متفق عليها خارج المدينة ، حيث ينتظرون طلوع الشمس ، وأن الفائز هو من يصله جواده قبل غيره بعد شروق الشمس مباشرة .

كان ذلك حوالي سنة ٥٢١ قبل الميلاد ، وقت أن كانت مصر وفارس وبلاد الأغر يق مهداً للحضارة والعمران ، وكان غيرها قفراً يباباً لا يرى فيه سوى الوحشة والخراب .

مات «سيروس» وخلفه على عرش الأكاسرة ولداه «قمبيز» و «سمردى» مقتسمين ذلك الملك الواسع ، وكان أولهما فظاً غليظ القلب ، مصاباً بالصرع ؛ فكرهته رعيتته ، وانفض من حوله الشعب ؛ أما سمردى فكان ليناً فى غير ضعف فأكرمه الشعب وأنزله من نفسه منزلة الآلهة مما أحق عليه قمبيز .

وحدث أن رأى قمبيز فى نومه حلمًا أثار ضغينته : رأى سمردى جالساً على عرشه وقد طالبت هامته حتى مست السحاب ، وفسر له الحلم بأن أخاه

سيطفي عليه فيسلبه ملكه ، وأقضى ذلك مضجعه وراح يفكر في التخلص من أخيه ، فبعث إليه بأحد أتباعه الأخصاء ويدعى «بركساس» فقتله ووارى جثته الثرى نون أن يشعر به أحد .

وكان بلاط الملك يضم جماعة من النبلاء يعرفون بالمجوس ، وكان «سيروس» قد أضعف شوكتهم وجردهم من سلطانهم ، وكان أحدهم يدعى «سمردي» ومن غريب المصادفات أنه كان شديد الشبه بسمردي الملك القليل ، إلى أحد أن كان الناس يخطئون في تمييز أحدهما من الآخر ، وكانت هذه الظاهرة العجيبة «مقرونة باختفاء الملك الفجائي ، سبباً لأن يفكر سمردي المجوسي في انتحال شخصية العاهل الراحل، والتريع على أريكة الحكم ، ثم المناداة بعد ذلك بخلع قمبيز والاستئثار وحده بالحكم ..

وكانت الظروف موآتية لسمردي وجماعته ، إذ خرج قمبيز في ذلك الوقت في إحدى غزواته ، فانتهزوا الفرصة وأعلنوا على الملأ خلع قمبيز . وقابل الشعب ذلك بالابتهاج والفرح ، بينما جن جنون قمبيز وهو يرى نفسه يتردى في الهاوية التي حفرها لأخيه . وسخر به الناس عندما راح يذيع بينهم أن سمردي هذا إن هو إلا مخاتل خادع ، وأن أخاه سمردي الحقيقي قد انتقل إلى جوار ربه ، وأنه أعلم الناس بذلك إذ هو الذي أمر باغتياله ! ولكن هذه الدعوى لم يصدقها الشعب الذي حميها حيلة من قمبيز للإيقاع بأخيه .

وهكذا فقد قمبيز الطاغية عرشه ، وأملاكه وزوجاته ، ثم ما لبث أن فارق الحياة متأثراً بسموم جراحه التي أصابته في ميدان القتال ..

وعندما خلا الجو لسمردي قضى سبعة أشهر في عزلة تامة أبطل خلالها الاستقبالات الرسمية وكل سبيل إلى مقابلته مما أثار الريب في النفوس .

وكان بين كبار القوم رجل يدعى (أوتان) يعرف الملك سمردى جيداً ،
فرايه منه ذلك التبدل الفجائي وكان يسمع بسمردى المجوسى وبشدة شبيهه
بالمملك ، ويعلم كذلك أنه قد ارتكب عدة جرائم قطعت من أجلها أذناه .. ولذلك
رأى أن يستخدم ابنته (فادىما) إحدى زوجات قمبىز اللاتى آل أمرهن إلى
المملك الجديد - فى استجلاء الحقيقة ، فبعث إليها بأحد أخصائه يسألها ما إذا
كان الملك الذى تعيش معه هو حقيقة سمردى ابن سيروس ؟ وكان جوابها أنها
لم تر سمردى من قبل حتى تستطيع أن تجلو الحقيقة . فعاد ينبئها أن أفضل
وسيلة للتحقق هى أن تنتهز فرصة نوم الملك فى مخدعها وتكشف عن أذنيه ،
فإذا كانتا سليمتين فهو سمردى الحقيقى ، وإلا كان المجوسى المغتصب .

وفى ذات ليلة عندما جاء دورها ليقتضى الملك ليلته فى مخدعها ، وأطفئت
الأنوار إلا من ضوء خافت ينبعث من سراج شاحب هزيل لاحظت فادىما أن
شعر الملك الكث قد غطى أذنيه تماماً ، وعجبت أنها لا ترى أقراناً تتدلى منهما
كما كانت عادة البابليين فى التزين وقتذاك ، وعندما استغرق الملك فى نومه
وتقلب فى فراشه ، وتهدل شعره على الوسادة ، تسللت فادىما من الفراش
وعادت بالسراج تتأمل وجه الملك ، فإذا هو بلا أذنين .. !!

وفى الصباح أبلغت أباهما ذلك النبأ الهائل ، فأفضى به بدوره إلى اثنين من
خاصته هما (اسباتين) و (حبرىا) واتفق ثلاثهم على أن يختار كل منهم
صديقاً يثق به ويعتمد عليه ليكونوا جماعة تكون نواة لمؤامرة كبيرة تعمل على
خلع الملك المجوسى المغتصب .

وسرعان ما انضم إليهم «داراء» الشجاع المقدم ، واتفق السبعة على أن
يبدعوا العمل فوراً .

وحدث فى تلك الأثناء أن أراد الملك سمردى أن يضع حداً للإشاعات التى
قامت بين الناس حول حقيقته ، فأوعز إلى «بركساس» أن يخطب فى الجماهير

من فرق أحد أبراج القصر العالية ليؤكد لهم أن الملك الحالي هو الوارث الحقيقي لعرش سيروس العظيم . وصعد الرجل البرج وبدأ في خطابه ، إلا أن ضميره استيقظ فجأة وراح الندم يأكل قلبه ويخزه أشد الوخز ليكفر عن جريمته ، فانطلق يعترف بالحقيقة وبأنه قد قتل سمردى الحقيقي بإيعاز من أخيه قمبيز وأن سمردى المجوسى انتهز فرصة شبهه بالملك القتل واستلب عرشه ، وذهل الناس وعقدت الدهشة ألسنتهم ؛ وزاد من وقع الخبر في نفوسهم أن ألقى « بركساس » بنفسه من أعلى البرج وسقط بينهم على الأرض جثة هامدة .

انتهز المتآمرون السبعة هذه الفرصة المواتية وماغشى الناس والجند من ذهول ، وآثروا أن يفاجئوا الملك قبل أن يسترد جأشه من هول المفاجأة ، فافتحموا عليه القصر دون أن يعترضهم أحد بسبب شخصياتهم البارزة المعروفة ، حتى بلغوا مخدع الملك الزائف وقضوا عليه وعلى بقية من كان حوله من الأخصاء .

وواجهتهم بعد ذلك أعظم مشكلة ، وهى أيهم أحق بتبوء العرش الذى خلا . ورغم أن أوتان كان أسبقهم إلى اجتلاء سر المجوسى المغتصب إلا أنه أبدى زهدا فى الحكم واقترح عليهم أن يقترعوا فيما بينهم على من يرث عرش هذه الامبراطورية .

واتفق الستة على طريقة الاقتراع ، وهى أن يمضى كل منهم على جواده إلى نقطة متفق عليها خارج المدينة ، حيث ينتظرون طلوع الشمس ، وأن الفائز منهم هو من يصل جواده قبل غيره بعد شروق الشمس مباشرة .

وعاد دارا إلى بيته ثم أرسل فى طلب « أوراب » سائمه الأمين الخبير بالخيل وطياعها ، ثم أفضى إليه بقصة الاقتراع ، وأخبره أن اعتلاء العرش رهين بصهيل جواده فى الوقت المناسب . والتمعت عينا السائس الداهية ، ثم

أسرع إلى الإسطبل ينتقى فرسا جميلة شقراء لم يكن جواد سيده يراها حتى يهتاج ويثور . ومضى بالفرس إلى نقطة اللقاء خارج المدينة حيث ربطها إلى شجرة ضخمة ، ثم رجع إلى الإسطبل ليعود معتطيا جواد سيده ، وأخذ يقرب من الشجرة التي ربطت بها الفرس ويدور حولها في دائرة تضيق شيئا فشيئا والجواد مضطرب مهتاج حتى لامس الفرس ، ثم ابتعد به ثانية رويداً رويداً حتى أعاده إلي الإسطبل ، ثم رجع أدراجه وأعاد الفرس بالمثل إلى مكانها .

وفي الفجر اعتلى مداراه صهوة جواده ، وسائسه ، وأرأب ، يسير في ركابه بعد أن مسح بيسراه معرفة الفرس الشقراء . ونس يده مبللة بعرقها في جيبه دون أن يمس بها شيئا آخر .

وعندما وصلا مكان اللقاء وجدا الزعماء الخمسة الآخرين قد استبقوهما إليه الواحد بعد الآخر ، في انتظار شروق الشمس .

واصطبغ الأفق بأشعة الشمس المشرقة التي أخذت تطلوه شيئا فشيئا . والتفت جواد دار إلى الشجرة الضخمة التي ربطت بها الفرس الجميلة بالأمس ، وأخذ يتوثب مشوقا .

وفي هدوء وسكينة ، ودون أن يلحظه أحد ، أنزل السائس أرأب يمناه التي كان يمسك بها لجام الجواد وأخرج يسراه من جيبه وأمسك بها اللجام وهو يندبها من أنف الجواد .

وما اشم هذا رائحة الفرس التي لوثت بها يد السائس حتى تفتحت خياشيمه ، ووثب بغتة تجاه الشجرة ..

ثم صهل ، .

وترجل الخممة الباقون عن جيادهم ، ثم أدوا التحية لدارا وبايعوه للتو
عاملا عليهم ..

وكانما أرادت الطبيعة أن تشاطرهم التهئة ، فبنت ظاهرة عجيبة لم يتوقعها
أحد في هذا الجو الصحو ، إذ تلبدت السماء الصافية فجأة وانشقت زرقتها عن
برق يكاد سناه يخطف الأبصار ودوى هزيم رعد يصم الأذان .

واعتلى دارا عرش الأمبراطورية العظيمة ، وأصبحت «فانيماء» أحب
زوجاته إليه ، وأكثرهن حظوة لديه .

الجمجمة

وخيل إليه أن الحجرة امتلأت بالجماجم التي
تحولت إلى كلوس خمر ! فقفز من فراشه وتسلل
إلى حجرة المائدة ليحطم الجمجمة التي كانت سببا
في هذا الفزع الذي أصابه .

كانت أراضي التيرول والنمسا والمجر ، في منتصف القرن السادس
الميلادي ، مسرحاً لنزاع عدد من القبائل البربرية التي جعلت من هذه المناطق
دولتين ، إحداهما في الشرق ، وعلى رأسها الملك أوديون ، والأخرى في
الغرب تحت زعامة الملك توريزون . ولم تكن الدولتان لتكفا يوماً عن الصدام ،
فهما في نزاع مقيم ، وقتال لاينطفئ له أور أو يخمد له سعير ..

وفي إحدى المعارك التي كانت تدور بشدة وعنف ، رأى البيون ابن الملك
أوديون - وكان فتى جريئاً مقداماً - وهو يندفع في جنون صوب أعدائه ، وقد
أخذ يعمل فيهم الذبح والتقتيل ، بينما تركوه هم دون أن يصيبوه بأى أذى أو
مكروه حتى التقى وجهها لوجه بأحد أبناء توريزون فسدد إليه من رمحه ضربة
أردته قتيلاً ..

وبدأت كفة أوديون وجنوده ترجح خصومهم ، الذين أخذوا يتقهقرون
ويتراجعون حتى تفرقوا أيدي سبأ ..

وعاد أوديون وولده وقد أثمتها نشوة الفوز ، وأخذ الأهلون في جميع
أنحاء المملكة يرفون في ثياب الفرح والغبطة الشاملة ويرتشفون كنوس النصر
مترعة ، ويقومون المآدب والحفلات في كل مكان ، واختلط الحابل بالنابل ،
والهرج بالمرج ، فما كانوا إلا بين راقص وماجن ، هازل وعابث ..

وأقيمت المأدبة الكبرى في القصر الملكي ابتهاجاً بالنصر ، فرفعت الأعلام
وأضيئت الأنوار ، وكانت التقاليد العجيبة لهذه الدولة تحتم على الأمراء ألا
يحضروا هذه المآدب ، ما لم يخلع عليهم أحد الملوك الأجانب سيفه ، فيقلده
بذلك وسام الشرف والفروسية .

ولم يشعر ألبيون بضيق وحزن كما شعر يومئذ ، حينما عرف أنه سيحرم
من حضور مأدبة القصر هذه ، وهو الذي كسب النصر لقومه ، وأذاق عدوهم
مرارة الفشل والخذلان ، وحاول أهل القصر أن يقنعوا الملك العجوز بأن يشذ
عن التقاليد مرة واحدة ، فيسمح لابنه الشجاع بالجلوس إلى جواره في المأدبة ،
ولكنه أجابهم : مامن قوة على الأرض تستطيع أن تجعله يخرق تقاليد آباءه
وأجداده !

ولم يكن ألبيون قد تعود الاستخزاء والاستكانة .. وزانه رفض الأب وعناذه
رغبة في حضور المأدبة .. فأصر على أن ينال وسام الشرف مهما يكلفه ذلك
من ثمن .

وقكر الفتى في أقرب ملك يستطيع أن يقلده سيفه ، فلم يجد سوى عدو قومه
اللدود توريزون .

وقد كان من الجنون حقاً أن يفكر الفتى فى الذهاب إلى الملك ولا يزال رحمه يقطر من دماء ابنه الذى أرداه قتيلاً فى ميدان المعركة .. ولكن تهور الفتى وجرأته الجنونية كانا يهيئان له أن كل شىء ممكن فى هذه الدنيا !

.. وسرعان ما تسلل من القصر وامتطى صهوة جواده ، وقد اصطحب معه بعض أصفياه المخلصين ، وانطلقت الجياد تسابق الريح قاصدة قصر خصمهم .

وكانت التقاليد وقتئذ توجب على الملوك ألا يصدوا أميراً يطلب إليهم وسام الشرف ، مهما تكن الظروف ، ومهما تبلغ عداوته لهم فكان واجبهم يقتضيه دائماً أن يكرموا وفادته ، ويقضوا حاجته .

وما كاد ألبيون يصل إلى أبواب القصر حتى قال لحراسه إنه لم يأتهم كعدو ، وإنما يريد مقابلة الملك .

وأسقط فى يد الملك حينما أبلغه ألبيون مطلبه ، وكادت الدهشة تذهب بصوابه ، وعجب لوقاحة الأمير وجرأته ، وشعر بالألم يمزق قلبه عندما رأى القدر يضطره أن يرحب بقاتل ابنه ، ويحسن وفادته !

ولم يستطع الرجل أن يغالب دمه عندما جلس إلى المائدة ، وأخذ يقلب ناظره فيجد ألبيون يحتل مكان ابنه الراحل .. وكان الشرر يتطاير من عيون قومه ، وقد التفوا حول المائدة ، وغلت الدماء فى عروقهم ، وهم يودون لو استبدلوا بطعامهم جسد ألبيون وأصحابه فمزقوهم إرباً إرباً !

وكان كوينمود ، وهو الابن الأكبر للملك توريزون ، قد أخذ يصر على أسنانه حنقاً وغيظاً عندما وجد ألبيون ينظر إلى ابنته الغائبة نظرات نهمة جائعة ملؤها الوقاحة والشهوة ، دون أن يخجل أو يرعون ..

وبدا كوينمود يتحرش بالفتى وجماعته .

وساء الفتية هذا التحرش بهم .. ولكن انتهى الأمر بتسليم الفتى وسام الشرف وعاد إلى قصر أبيه .

★ ★ ★

ومرت الأيام وتوالت السنون ، ومات الملكان العجوزان ، واعتلى ابناهما العرش كل في مملكته .. وبدأ ألبيون ينسى الحادثة فلم يعد في رأسه منها إلا صورة باهتة ، ولكن صورة واحدة بقيت عالقة في ذهنه ، هي صورة روزا موند ابنة كوينمود !

وخيل لألبيون أن الأيام قد أسدلت على الماضي ستور النسيان .. وأن كوينمود لن يمانع في زواجه من ابنته ، إذا هو تقدم لخطبتها .

ونهب الرسل إلى كوينمود يعرضون الأمر عليه .. فأثار ذلك حفيظته ، وتذكر أباه حين اضطر إلى مجاملة الفتى ، وقلبه يقطر دما ، وخيل إليه أن ألبيون يريد أن يكرر المهزلة مرة أخرى ، فطرد الرسل شر طردة ، وطلب إليهم أن يخبروا ملكهم ألا يعاود طلبه .

وغضب ألبيون ، وعاد يكرر طلبه مرة ثانية وثالثة ، ولكن رسله عادت بخفي حنين .. ووجد أن القوة هي خير وسيلة يقضى بها مأربه ، وكان أن وجه إليه جنوده فأخذت تهلك الحرث والنسل ، والزرع والضرع .. وانتقضت على قوم كوينمود كأنها حجارة من سجيل ترميهم فتجعلهم كعصف مأكول .

وخر كوينمود نفسه صريعاً في أرض المعركة ، فأمر ألبيون بقطع رأسه وحفظها وأخذ ابنته أسيرة مع غيرها من السبايا ..

وعاد ألبيون إلى قصره يحمل شيتين كانا أثنى ما غنم في حياته : رأس كرينمود وجسد فتاته الحسناء .

وفي غمرة من نشوة النصر وفرحة الظفر ، عقد قرانه على الفتاة ، وأمر بأن تصنع له من رأس أبيها كأس يحتسى فيها الخمر ، حتى تصعد حمياها من رأسه ، فتكسبه نشوة فوق نشوة !!

وصفت الموائد ، ونثر فوقها ما لذ وطاب من أنواع الطعام ، وسالت الخمر أنهاراً وسيولا ، وجلس الملك إلى جوار عروسه وقد علاها الوجوم والحزن . وفجأة ساد الحاضرين الصمت . واشربت أعناقهم ، وتطلعت أبصارهم إلى إناء عجيب أحضره الساقى ووضع أمام الملك .. كان الإناء عبارة عن جمجمة مقلوبة وضعت على قاعدة ذهبية ، وصنعت لها يدان من الذهب المحلى بالياقوت ..

وبدرت من الفتاة صيحة مكتومة كأنها طير نبيح ، فعضت على شفتيها حتى سالت نماؤهما .. ولكن القوم كانوا عنها ساهين !

وبدأ الملك يتجرع كنوس الصهباء في إنائه العجيب ، حتى أفقدته الخمر وعيه ، وقادته إلى فعلة لايجرؤ الشيطان عليها !

ملأ الملك الجمجمة بالخمر وأمر فتاته بالشرب على روح أبيها !!

. ووقفت الفتاة مرتجفة الأوصال وكنم القوم أنفاسهم ، وجحظت عيونهم ، وهم يرقبون المشهد المثير !!

وأغمضت الفتاة عينيها ووضعت شفتيها على حافة الجمجمة .. ولم تلبث أن سقطت مغشيا عليها !!

وساد الهرج والمرج ، وحمل القوم الفتاة إلى فراشها ، وردد الملك إلى جوارها وقد لفتها الظلمة الدامسة ، وبدأت سحب الخمر تنتشع عن رأسه

رويداً رويداً ، وأخذ يفيق لنفسه ، ويدرك هول ما ارتكب ! ودار رأسه مرة أخرى ، وعراه اضطراب وخوف هائلان .. فمد يده يتحسس الفتاة التي رقدت بجواره ، ولكنه ردها بسرعة ، فقد اصطدمت بشيء بارد صلب ، وعاد يتحسسه مرة أخرى فإذا بالذي رقد بجواره هيكل عظمي ، وقد بدت جمجمته في صورة إناء الخمر الذي أمر بصنعه .. وقلبت قاعدته الذهبية فظهرت في أعلى رأس الهيكل !!

وصرخ الملك صرخة مدوية ، وأخذ يستغيث بصوت مبحوح وفتح باب الحجرة ، وبدت الخادمة تحمل في يدها مصباحاً أضاءت به الغرفة !!

وعلى ضوء المصباح رأى الملك ما أفزعه وذهب بلبه ، إن المسألة لاتعدو وهما من الأوهام ، وأنه لم يرقد بجواره أحد سوى فتاته بلحمها ودمها ، وأن اضطرابه قد صورها له هيكلًا عظمياً ..

وأمر الملك الخادمة بالانصراف ، وعاد إلى فراشه مرة ثانية .. وحاول النوم فلم يعمض له جفن ، وبدأت الأشباح تعاوده ، والأضطراب يعصف به .

كان الرجل في سبيل الجنون .. أو هو جن بالفعل !

وخيل إليه أن الحجرة امتلأت بالجماجم التي تحولت إلى كئوس خمر !! فقفز من فراشه ، وتسلسل إلى حجرة المائدة ليحطم الجمجمة التي كانت سبباً في هذا الفرع الذي أصابه !

وفي غرفة المائدة ، رأى الملك منظرًا عجيبياً : رأى كويمنود قد جلس على المائدة ، وأمامه زجاجات الخمر ، ولم يكذب يرى صاحبنا حتى صاح به :

- أين الكئوس يا صاح .. من علمك أن تدعو ضيوفك لتستقيم الخمر بلا

كئوس !!

وتسمر الملك فى مكانه . وعقد الهلع لسانه ، فلم ينبس ببنت شفة !
واستمر كوينمود فى حديثه يقول :
- خل عنك .. فلا حاجة بى إلى كتوس ، إن لدى كأساً لاشك أنه سيحلو
لك الشراب فيها !
ثم مد الرجل يده إلى رأسه ! فاقتلع جمجمته بما فيها من شعر ، وبدأ يصب
فيها الخمر ، ثم دفعها إلى الملك وصاح به :
- اشرب !!

ومد الملك يديه فى فزع وهو يقول فى صوت كأنه فحيح الأفعى :
- لأريد أن أشرب !

- ألا تعجبك هذه الكأس .. ؟ وإن فهاك كأساً أخرى !
ومد كوينمود يده فقبض بها على رأس الملك .

وشعر البيون بألم هائل ، وأحس أن جمجمته قد اقتلعت من مكانها ، فسقط
على الأرض ، ولم يشعر بعد ذلك بشيء ..



وفى صباح اليوم التالى عثر أهل القصر على الملك جثة هامدة ، إذ أن قدمه
زلت فى حجرة المائدة ، فهوى على الأرض واصطدم رأسه بقاعدة الجمجمة
الذهبية التى كانت ملقاة إلى جوار المائدة عقب سهرة الأمس ، فتحطم رأسه
وقتل لساعته .

ولم يعرف أحد لماذا ذهب الملك إلى حجرة المائدة .. وكيف زلت قدمه
فهوى، ولكن أهل القصر جميعاً عرفوا أن جمجمة كوينمود قد انتقمت لصاحبها .

التيه

فطن الأب إلى أن عادة متوارثة في عائلته قد
فانتته ، وهي أن يستشير العراف قبل الزواج لينبئه
إذا ما كانت هذه الزيجة موققة أو مهددة بالفشل .

حاول الرجل منذ بدء الخليقة فرض سلطانه على المرأة ، ولم يعترف
برسالته في الحياة ، ولم يحاول أن يرفعها إلى مستواه إلا بعد قرون عديدة
من الرقي والتقدم .

والواقع أن جميع الأمم المتقدمة في العصور القديمة قد اعتادت أن تنزل
بالنساء إلى الدرك الأدنى . إلا من أوتيت منهن جمالا وسحرا جردا الرجل
من سلاحه وحملاه على الاعتراف بمركزها القوي وشخصيتها الجارفة ..

وظل الشرق أمداً طويلاً يصر في عناد عجيب على أن تكون للنساء مهمة
واحدة لا مهمة سواها . وهي أن يكن معامل تفريخ ومن بين البلاد الشرقية التي
اعتنقت هذه النظرة البدائية شبه جزيرة كوريا . فقد كانت إلى عهد قريب ترى
وجوب قصر مهمة المرأة في الحياة على أن تكون زوجة وأما فحسب ..

وكانت إذا أنجبت أطفالاً حرم الأتاب من التسمية بأسماء آبائهن وأطلقت عليهن أسماء مضحكة مستعارة لمجرد التمييز !!

وكان الزواج يتم بأن يعقد اجتماع استثنائي يضم الآباء والأقارب والوسطاء ، وينتهي باختيار الزوج أو الزوجة الملائمة دون أن يعنى أحد بأخذ رأى العروسين ! ولذلك كثيراً ما وجدت الزوجة نفسها مكرهة على معاشرة رجل فظ . غليظ القلب . أو دميمة الخلق أو ثقيل الظل ! وكان القانون لا يجيز الجمع بين زوجتين ، ولكنه يبيح المزوج أن يتخذ من يشاء من المحظيات ، وإن كان يحرم على أبائهن حق وراثته أبائهم ما دام لهم أبناء شرعيون من زوجاتهم .. وعلى الرغم من هذا كانت المحظيات أسعد حالا من الزوجات وأهنأ ، لأن الرجال يختارونهن عن حب ووجد ، وبمحض إرادتهم ، فكن موضع إعزاز وإكرام ، وكثيراً ما وجد الرجل في محظيته ما يفتقده في زوجته التي زفت إليه من غير معرفة أو اختيار ..

★ ★ ★

وفي جزيرة كوريا وإحدى مدن الهامة وفي بيت نبيل من نبلائها الواسعي النفوذ والثراء حدثت هذه القصة .

كان لهذا النبيل ابنة فاتنة وابنة أخ جميلة كفلها بعد أن توفي والدها وهي في المهد ، فدرجت مع ابنته حتى أصبحتا كالتوأمين جمالا وصحة وقواماً ، وتبادلتا الحب كأنهما شقيقتان .

ولما بلغتا سن الزواج أعدت قائمة بأسماء النبلاء والأمراء والعظماء ليختار منها من يليق بابنته وتخير الأشراف واحداً من الأمراء ليكون زوجاً لابنة صديقهم الكبير ..

ومضى الرسل بالوثائق اللازمة إلى مدينة الزوج البعيدة ليعرف أى زوجة شاءت الأقدار أن تكون عشيرته . ثم عادوا بعد شهرين يصلون شكراً لله على أن وفقهم في مهمتهم ، ويزفون للأب الأتباء الطيبة عن صهره .

وحزم النبيل رايه على أن يختار أميراً أو نبيلاً آخر لابنة أخيه بعد أن تزف ابنته إلى خطيبها ، وحدد موعداً لذلك الزفاف وقامت الاستعدادات على قدم وساق لاستقبال الخطيب الشاب بما يليق به من عظمة وأبهة ..

وعندما كان الأمير في طريقه إلى خطيبته ، ولم يبق على وصوله غير أيام ثلاثة .. فطن الأب إلى أن عادة متوارثة في عائلته قد فاتته ، وهي أن يستشير العراف قبل عقد الزواج لينبئه إذا ما كانت هذه الزيجة موفقة أو مهددة بالفشل ..

وكانت كوربا حاشدة بالعرافين ، وكان على رأسهم جميعاً عراف أعمى اشتهر بقدرة فذة على التنبؤ بما يخبئه القدر في حناياه .

ولما دعاه النبيل ليقرأ طالع الزوجين صاح :

- لقد ما حدثت عن جادة الصواب يامولاي ! .. إن في هذا الزواج هلكا لابنتك الفاتنة ..

فذهل الملك وامتقع ثم هتف في ذعر :

- كيف ؟ هل بلغ بالرسل الأمر إلى النكايه بي ؟ وهل هذا الخطيب من السوء بحيث يهدد ابنتى الوحيدة بالتهلكة ؟!

فأطرق العراف الأعمى برأسه برهة ثم أجاب في تودة وإصرار :

- لقد خدعوك يامولاي .

فأسقط في يد النبيل وضاعت عليه الدنيا بما رحبت وراح يتساءل كيف ينقذ ابنته من هذا الوحش الآدمي الذي حسبته خير الأزواج ؟

وفجأة .. ومضت بخاطره فكرة جعلته يثب من مكانه والدنيا لاتسعه من فرط الفرح ، فقد هداه الدهاء إلى حل يخرج من هذه الورطة القاسية ! وجرى إلى الحريم- وكانت ابنته تضع على رأسها تاج العرس وترتدي ثوب الزفاف - فصاح بوصيفاتها أن يجر دنها مما عليها ويضعه على ابنة أخيه التي ستزف إلى العريس القادم !

وغشى القوم الوجوم والعجب وذهلت ابنته وهي لاتدري هل مس والدها الخبل أو الجنون ! ولكن الأب صاح صيحة أخرى أعادت إلى القوم رشدهم فأسرعوا يطيعون ما أمر ..

وعندما وفد الأمير انحنى للخطيبة المزيفة ، وانحنى له بدورها وبذلك تم الزواج ! وكان ضمير الأب يؤنبه لأنه دفع بابنة أخيه إلى التهلكة التي لم يرضها لابنته ، وراح يلوم نفسه على أنانيته وهو يجعل من الفتاة اليتيمة كبش الفداء ، ولكنه ما أن شاهد الخطيب حتى استرعتة رجولته واستهوته دمائه ، وفطن إلى خطأ العراف وراح يسأل نفسه في غصة بادية .

- أهذا هو الرجل الذي حرمت ابنتي منه ؟ ترى كيف أعيد الأمور إلى نصابها ؟ كيف أرجع هذا الكنز إلى ابنتي التي سلبتها إياه بطيشي وحمافتي ؟ أیخدعني عراف ويشككني في الرسل المخلصين الأنكباء ؟

وراح يقدر زناد خاطره ويقلب وجوه التفكير .. وأخيراً انبسطت أساريره وقد اهتدى إلى حل لهذه الورطة الثانية .

★ ★ ★

كانت المشكلة أيسر مما بدت في أول الأمر وأهون مما تصور عند المفاجأة ، فما كان عليه سوى أن يأمر بإجراء تبديل آخر في الحال ، فتجرد ابنة أخيه من ملابسها ، وترتديها ابنته ، ولن يدرك الزوج شيئاً لأن الفتاتين متشابهتان وجهاً وقواماً ، ولاشك أن الأمير لم يتفكر في وجه الفتاة ولم يرها إلا رؤية عابرة .

وفي الصباح قهقه الأب ضاحكا .. وقال للأمير :

- سأقص عليك قصة طريفة يا وادي ، قصة مغامرة جريئة اضطررت إليها وكنت أنت طرفاً فيها .

ثم راح يروي له قصة العراف ونبوءته التي ظهر كذبها ، مما جعله يلجأ في آخر لحظة إلى خدعة طريفة أتاحت لابنته أن تكون زوجة الأمير . وأخيراً فرك يديه في إعجاب ثم سأله ضاحكا :

- مارأيك يا صاحبي ؟ ألم تشعر بهذه الخدعة ؟
فأجابه الشاب باسمأ :

- سواء أكنت لم أشعر بها أم تجاهلتها فهذا لا يغير من الحقيقة ، وهي أن ابنة أخيك زوجتي الشرعية أمام الله والقانون ، بعد أن عقدت عليها زواجي عندما انحنيت لها على المنصة المقدسة . أما ابنتك فقد عاشرتها من غير زواج فأصبحت محظية لي !

انقضت الصاعقة على رأس الأب فوجم وتسمرت حدقتاه . وأردف الأمير قائلا :

- مبعث الخطأ أن ابنة أخيك لم تجد من يحميها . أما ابنتك فقد وجدت من أفرط في حمايتها فأساء إليها عن غير قصد !

وبعد أسبوع آخر غادر الأمير القصر تصحبه زوجة شرعية هي الفتاة اليتيمة ، ومحظية هي ابنة النبيل الداهية !!

بعد العاصفة

فاعودها الحنين القديم ، وأصابها قلق على
حبيبها المهاجر ، وتمنت لو كانت بجانبه تدفع عنه
الشر والأذى ونسيت ما كان من خيائته لها ، ولم
تعد تذكر إلا أنه قد مات وحيداً وسط العاصفة.

نسمات من الريح هبت تحمل في جوفها صوت شاد يترنم ، وحنين فينار
يشدو ، فينفذ إلى القلوب تغريده ، ويمس النفوس سحره ..

إيه يا شادية الليل .. ا لقد جعلت كل ما في الكون أرواحاً تتناجي .. وعشاقاً
يتطرحون الغرام .. حتى لكأن شدوك لحن من ترانيم الطبيعة .. كحفيف
الأوراق وخرير المياه .. أو هو صوت هبط من السماء ليطهر النفوس من
أدران الأرض ، ويلفها في أضواء السماء .. إيه يا فاتنة سان بريير .. لقد
جعلت كل ما حولك مرابع للجمال ومراتع للفتنة .. وسرى صوتك في الجزيرة
الهائلة .. فاهتزت له الأوراق .. وتمايلت الأغصان .. وانتشى الطير في
مضاجعه ..

جوزفين .. فانتة المارتنيك (إحدى جزر الهند الغربية) .. ونموذج
الجمال .. المكتمل من كل نواحيه .. الذى يصرع القلوب من غير رفق
ولالين .. والذى يعززه ذلك الذكاء الخارق .. والإحساس المرهف والنبوغ فى
كل نواحي الفن .. من أدب ورسم وموسيقى .. وأخيراً هذا الصوت العجيب ..
الذى يخلب اللب .. ويسلب النهى .. هذا الصوت العذب ، الذى لا تكاد صاحبه
تغنى أو تقرأ أو تتحدث حتى تنصت الآذان .. وتهفو القلوب .. ثم لا يكاد
السامع يفهم مما تنطق به كلمة واحدة من فرط افتتانه بالصوت وعذوبته .
هذه الروح العبقريّة الموهوبة .. قد اتحدت مع ذلك الهيكل الفاتن الجميل ..
فكونا نفساً واحدة هي حسناء سان بريير .. جوزفين الساحرة .

فى ذات صباح صفت ساؤه .. وسطحت شمسه .. خرجت الفتاة تنتزه
كعادتها بين الأحراش وتحت ظلال النخيل .. فصادت فى طريقها بضع فتيات
من الزوج قد جلسن إلى عرافة عجوز .. محنوبة الظهر .. شمطاء
عجفاء .. قد سلبتها السنون كل مظاهر الحياة ، فما هى إلا جلد على عظم ..
وقد أخذت تخبرهن بنبيئاتها عن مستقبلهن .. وهن مأخوذات مشدوهات ..
واقتربت الفتاة من العجوز لتتسلى بحديثها الخرافى .. ومدت يدها مرحة
ضاحكة .. لتقرأ لها كفاها وتخبها بما خفى من أمرها ، وما كان منه
وماسيكون .. ولم تكذ العجوز تلقى أولى نظرة على الكف الغضة البضة التى
أمسكت بها فى راحتها .. حتى تراجعت إلى الوراء مأخوذة ، وندت عنها
صيحة دهشة ... بينما ابتسمت الفتاة الجميلة فى خبث .. وسألت العجوز فى
دهشة مصطنعة :

- ترى ماذا روعك من كفى ؟

وأجابت العجوز فى صوت خافت كأنما تحدث نفسها :

- يا الفتاة العجيبة .. إنى أبصر أمامك كثيراً من شقاء وكثيراً من هناء ..
أرى طريقك قد فرش بالأشواك المشرعة .. وبالزهور اليانعة .. أرى فيه
لوعات وبسمات .. وأسمع فيه أنات وضحكات !!

- أفصحى يأماء عما ترين .. !

- لن تصدقيني يا بنية .. فإنى أراه أبعد من أن تصدقه أنن .. وضحكت
الفتاة وأجابت :

- إنى لن أصدقك فعلا .. حتى ولو لم يكن عجباً كما ترينه .. ولكن ماذا
يهمك أن أصدقك أو لا أصدق .. قوليه وأمرك إلى الله ..

وصممت العجوز برهة ثم تركت كف الفتاة فسقطت إلى جانبها وقالت
هامسة :

- منتزوجين بعد فترة قصيرة .. ولن يكون زواجك سعيداً .. فستهب
عاصفة تنزع منك زوجك ، وستصبحين أرملة .. وبعد ذلك .. لانسخرى
يا بنية مما سأقول ولا تضحكى .. فهو ما تنبئنى به الكف .. بعد ذلك ستتربعين
على عرش فرنسا ..

ورغم ذلك التحذير الذى ساقته إليها العجوز لم تستطع الفتاة المرححة أن تكتم
ضحكتها ..

هى ستصبح ملكة فرنسا ؟ ياللعجوز أبلهأء ! مالها هى ولعرش فرنسا .. !

إن أحلامها لا تكاد تتطاول إلا إلى الزواج من صاحب المزرعة المجاورة ..
لتكون هى ربة المزرعة .. فذلك هو كل ما تطمح إليه .. ربة مزرعة فقط ..
لاملكة ولا أمبراطورة ..

ومرت الأيام .. ونسيت الفتاة نبوءة العجوز حتى بدأ يلوح في أفق حياتها ..
عنصر من عناصر النبوءة .. في صورة ضابط صغير هو الفيكونت ألكسندر
بوهارنى . وهو أحد سكان الجزيرة الذين رحلوا عنها للاشتراك في الحرب
الأمريكية .. وقد عاد أخيراً ليطلب بأمالك قد ورثها .

والتقى الفتى بالفتاة .. فتركهما اللقاء .. وكلاهما في لهيب من الهوى
يتأجج .. وثار من الصباية تستعر .. فقد استهواه فيها جمالها الفياض وحدثها
الساحر . واستهواها فيه قوامه الممشوق ومخاطراته ومجازفاته . وكانت في
السادسة عشرة وكان في العشرين .. وفي هذه السن لايمك صريع الهوى
المحتوم إلا أن يذعن لسلطانه العاتى .. بل أنه لايكاد يحس سوى متعة الحب ..
ونشوة الغرام ..



تزوج العاشقان .. وبعد فترة قصيرة رحل بها إلى فرنسا .. وسارت
حياتهما هنيئة ناعمة .. فأنجبا غلاما بعد عام من زواجهما .. وأنجبا بنتا في
العام الثالث .

وفي هذا الوقت كان البلاط الفرنسى يصطنب بحياة الخلاعة والفجور ،
وكانت الطبقات الأرستقراطية غارقة في ملاذها ومتعها ، وقد سيطرت عصبية
منها على البلاط فحجبت بفجورها وتهتكها تلك الطيبة وذلك الهدوء الذى كان
يشمل لويس السادس عشر .. وكانوا سبباً لذلك المصير الذى تردى فيه الحكم
الفرنسى فيما بعد .

وكان سوس الفساد ينخر في كيان القوم ، وكان الشيطان قد ركب
رءوسهم .. فأصبح العبث دينهم واللهمو والمجون مذهبهم .. ولم يعد الفسق
برذيلة تستحق الاستتار .. بل مقخرة تستوجب الافتخار .. ولم يعد بالمستغرب

أن يكون لكل زوج خلية بل من المستغرب ألا يكون له عدة خليات يتنقل بين أحضانهن .

وبين هذا الفسق والفجور .. والتهتك والمجون .. بدأ بوهارنى يحيا حياته الجديدة .. وأخذت سحب الحب تنقشع من رأسه .. فإذا به ينسى قديم هواه .. وإذا به يخون العهد فينزلق فى .. مهاوى الفتنة .. ويتردى فى مواطن الفساد .. وبين عشية وضحاها حطم بيده ذلك الهيكل الذى وضع فيه معبودته القديمة .. بعد أن هجر عبادتها وكفر بها .

وانهارت تلك العائلة النموذجية .. وتحطم قلب جوزفين عندما أبصرت بنفسها مهجورة مهملة .. وتعلت بالأمل وتركت الزوج المفتن ينهب من اللذات جهده .. وعلمت أن مصيره إلى العودة إلى وكره بعد أن يمل حياته الصاخبة .

ومرت الأيام والزوجة المهجورة مازالت فى وحدتها .. والطير الهارب مازال يعيث فساداً ، ولم يفكر بعد فى العودة إلى وكره ، وبدأت تحس بحياتها مرة مضية .. حتى كلمات التعزية التى كانت تساق إليها من صديقاتها اللاتى حاولن أن يخففن من لوعتها ، كانت تقع عليها وقع السياط ، فقد كانت تحطم كبرياءها وتذل من نفسها .. وهى الأبية العزيزة ..

وأخيراً صممت على أن تعود إلى وطنها الأصلي .. إلى سان بريير العزيزة .. حيث لاصخب ولاضجيج .. ولافجور ولاشور .. إلى سان بريير الجمينة .. موطن الذكريات .. ومنبع الحب والهناء حيث لم تبصر من الحياة إلا جانبها المشرق البراق .. وحيث لم تشعر إلا بمرح الطفولة ، ونشوة الهوى والشباب ..

وبدأت السفينة تبحر بها وطفليها عائدة إلى جزر الهند الغربية .. وأخذ

ساحل فرنسا يتعد عن ناظرها رويداً رويداً .. وشرد ذهنها في التكريات
الماضية .. فنكرت فيما نكرت نبوءة العجوز العرافة ..
وأحسست بمرارة في نفسها ولوعة في قلبها ..
ملكة فرنسا !!؟

ياللنبوءة الساخرة الهازلة !! هذه التي ستتربع على عرش فرنسا .. لم
تستطع أن تتربع على عرش بيتها .. وعادت طريفة شريفة .. يضيئها اليأس
وتنلها مرارة الخيبة وألم الحرمان .. ترى لو رأتها العجوز الآن ... بعد أن
عادت من فرنسا تجر أذيال الفشل والهزيمة .. أكانت تصر على أنها ستتربع
على عرش فرنسا !! ..

ووصلت جوزفين إلى بيتها القديم وسط الأحرار وبين النخيلات الباسقة ،
ومرت بها الأيام هائثة ساكنة حتى انصرم من العمر ثلاث سنوات كانت تحمل
في طبقاتها البداية الحقيقية لأقوى عاصفة هبت في تاريخ فرنسا بل في تاريخ
أوروبا كلها ... وهي الثورة الفرنسية ...

ففي عام ١٧٨٧ عندما أبحرت جوزفين من فرنسا بدأت الجماهير تتحفز
للوثوب ، ثم أخذت العاصفة تشتد في خلال سنتي ١٧٨٨ و ١٧٨٩ .. ووصلت
الأخبار إلى جوزفين وقتئذ بأن زوجها قد اندمج في الحركة الجمهورية ...
فعاودها حنينها القديم وأصابها قلق على حبيبها الهاجر ، وتمنت لو كانت بجانبه
تدفع عنه الشر والأذى ، ونسيت ما كان من خيائنه لها ، ولم تعد تنكر إلا أنه
قد بات وحيداً وسط العاصفة .

وعادت جوزفين مرة أخرى إلى فرنسا ... فوجدتها أتوناً تضطرم فيه
النيران .. والتقت بزوجها ، فإذا به رجل آخر .. قد صهرت نفسه الحوادث
وذهب عنه طيبته وافتقانه ... وكان كل منهما يشعر بلفهة إلى الآخر

وحنين ... فعادت العائلة مرة أخرى إلى وكرها ... وأحس الزوجان أنه لا غنى لأحدهما عن الآخر في وسط تلك العاصفة المخيفة ..

وكان بوهارنى قد طأطأ رأسه لتلك العاصفة التي زلزلت نظام الحكم في فرنسا .. فخلع عن نفسه لقب الفيكونت وذهب لقيادة الحملة الموجهة ضد ألمانيا وسمى وقتئذ بالجنرال بوهارنى .

وكان في ميدان القتال أكثر أمناً على حياته من أولئك الذين كانوا في باريس .. فقد بدأ الأستقراطيون يفرون منها ، خشية أن تدمهم العاصفة .

ولكنه مع ذلك عاد إلى باريس رابط الجأش ثابت الجنان ، فقد خيل إليه أنه يستطيع أن يكون آمناً وهو الرجل الجمهورى الذى كان رئيساً للجمعية .

وكانت العاصفة على أشدها والجماهير الثائرة متعطشة إلى الدماء . والمقصلة لا تكل ولا تنى .. وقد سقط رأس الملك والملكة في السلة المجاورة للآلة الحمقاء .. بكل مهانة وازدراء ..

يا للحاكم الذى ينسى شعبه وينكر نفسه .. ويركبه الغرور فيركب رأسه وتخدعه الحياة ببريقها الزائف فلا يبصره بزيف يومه وخدعة أمسه إلا حلقة قبره وظلمة رمسه ..

ويا للشعب الذى لا يستطيع أن يكون إلا ظالماً أو مظلوماً ... فلا يكاد المظلوم يثور على ظالمه حتى ينمى نفسه ويظلم غيره .. هو لا ينكر السيئة إلا إذا وقعت عليه .. أما إذا وقعت منه فليست بسيئة ..

وهكذا انقلبت الأحمال الوديعه المظلومة إلى ثياب قتالة ضارية .. لا تشبعها إلا الرءوس المتطايرة ..

وباتت جوزفين كالملايين غيرها من الزوجات ترتجف فرعا كلما طرق البيت طارق .. خشية أن يكون نذير سوء يطلب زوجها إلى السجن أو

المقصلة .. إذ لم يكن هناك امرؤ يأمن على حياته .. مادام « رويسبير » فى أوج قوته ..

وفى ذات صباح طرقت الباب وتقدم من السيدة رجل يبدو عليه أنه صانع أحنية ، وأنبأها فى صوت خفيض أن تسرع بالفرار مع زوجها لأنهم قد وضعوا اسمه فى القائمة .. وأنه قد أتى ليحذرها لأنه يعتقد أن الجنرال بوهارنى رجل برىء ...

وسمع بوهارنى حديث الرجل فلم يرع منه .. وأصر على البقاء رغم توسل امرأته لأنه لم يعتقد الفرار .

وقبيل الظهر .. سيق بوهارنى إلى لكسمبرج الذى كان قد حوله الثوار إلى سجن - وبعد مدة قصيرة .. أُنذرت جوزفين بالفرار لأنها هى نفسها قد أصبحت فى خطر .. ولكنها أبت أن تفر وتترك زوجها ، وصممت على أن تبقى بالقرب منه حتى يصيبها ما يصيبه ..

وفى ظلمة الليل .. والأطفال رقاد فى مضاجعهم .. سيق جوزفين وحولها الرجال المدججون بالسلاح إلى الكارمليت التى كانت قد تحولت إلى سجن آخر .. وهناك وضعت فى غرفة واحدة مع سجينتين أخريين هما مدام داجليون وتريزا كايروس .. عشيقه تاليان عدو رويسبير اللئيم .. والذى لم يستطع رغم قوة مركزه أن يمنع عشيقته من أن تودع غياهب السجون ..

وكان صانع الأحنية الذى حاول أن ينفذ بوهارنى وجوزفين .. يقوم بتهديب الرسائل بينهما .. وتمكن الاثنان من اللقاء لبضع لحظات .. وقد ظن كلاهما أن سراحهما سيطلق قريباً .. ولكن لم يكد كل منهما يودع الآخر حتى سبق بوهارنى مع غيره وسط الجماهير الصاخبة الحمقاء .. حيث لقي حتفه فوق المقصلة ..

وبعد يوم علمت جوزفين أنها مستساق مع بضع نساء أخر ليلتين مصيرهن المحتوم .. وكان من بين هؤلاء النساء تريزا كايروس التي تعودت أن يمر بها عشيقها تاليان ليراما من أسفل النافذة ، فلم يكذب يمر بها في ذلك اليوم حتى ألقت بورقة بها بضعه كلمات .

وفي نفس اليوم حدثت تلك المعركة الخالدة بين روبسبير وتاليان ..

وفي اليوم التالي مرت امرأة عجوز أمام نافذة السجن .. ونظرت إلى النساء اللاتي أطلن بوجوههن البائسة من النافذة .. ثم أمسكت ثوبها بأصابعها .. وأشارت في الوقت نفسه إلى حجر ملقى على قارعة الطريق ..

وفكر النسوة قليلا .. فأدركن ماتعنى .. ثوبها يعنى robes وحجر يعنى pierre روبسبير ..

ولما رأت العجوز أنهم قد فهمن ماتقصد .. حركت يدها فوق رقبتها ..

لقد قتل روبسبير ؟!

أيمكن أن يكون هذا معقولا ؟! أجل لقد سمعن بعد ذلك ضوضاء وضجة وفتح باب السجن .. واندفعت السجنيات بغتة إلى الخارج .. وكان يسمع في كل مكان في باريس صدى هتاف يقول : « لقد أنقذت فرنسا » .

وبعد بضع سنين ، وبعد أن هدأت العاصفة ، التقت جوزفين بقائد صغير .. فتنه جمالها الرائع وصوتها العذب .. وأعجبها فيه أنه رجل غير عادى .. رجل ليس كغيره من الرجال .. رجل به شيء من الفظاظه رغم أبه الجم . رجل استطاع أن يحقق لها نبوءة العرافة . لأنه لم يكن سوى نابليون بونابرت .

يا للعجوز البارعة .. لقد تحققت نبوءتها ، وتريعت جوزفين على عرش فرنسا .. ولكن بعد أن رملتها العاصفة ..

ذو اللحية السوداء

... وأغلق الرجل باب الغرفة وأحكم رتاجه ،

ثم دفن وجهه في يديه وأخذ يبكي !! ..

بكى ذو اللحية السوداء ... الرجل الذي ضربت

بغلظته الأمثال ..

أترأه كان شيطاناً .. أم بهلوناً مهرجاً ؟ .. به مس من الجنون ، أم سافك

دماء يقر البطون !؟

كان رجلاً كث الشعر ، غزير اللحية ، فطبع المنظر ، يخيل للناظر إليه

أنه شجرة معشوشة لم تمتد إليها يد التقليل والتشذيب ، حتى ليصعب على

الإنسان أن يرى تقاطيع وجهه ، ويريق عينيه، وسط ذلك الشعر الكثيف الذي

ينبت غزيراً فوق وجهه وجسده !

وتأنق الرجل وتزين ، فكان في زينته أشد غرابة ، وأرهب منظرأ .. إذ

مشط لحيته الكثة السوداء ، وقسمها ثلاثة أقسام : جدل الجانبين صغيرتين

طويلتين ربطهما حول أنثيه ، وجدل القسم الأسفل صفائر صغيرة عقد نهايتها

على شرائط مختلفة الألوان تكدت فوق صدره !!

على أن الرجل لم يكن ليكتفى بذلك ، بل أمعن في الشذوذ ، فوضع شمعتين بطيئتي الاحتراق على جانبي رأسه عند حافة القبعة ، فكان لهبهما يلقي على وجهه ضوءاً يظهر تجاعيده ، ويوضح أخابيده ثم تمنطق بالسيف ، وربط على صدره عدة مسنسات ضخمة ، حتى بدا كأنه مركبة قتال مدرعة !

ذلك هو إدوار تيتش ، ملك القراصنة ، وجبار البحار ، الشهير بذي اللحية السوداء .

ولد الرجل في ميناء برستول ، وبدأ حياته تاجراً شريفاً ، ولكن الحياة الهادئة المملة لم تكن ترضى طبيعته الثائرة ، فرغب عنها ، وأخذ يخوض حياة أخرى أكثر عنقاً وأشد خطراً ، حياة تجلت فيها مواهبه التي هبته بها الطبيعة ، وإذا به بين عشية وضحاها ، رجل شهير ذو حول وطول ، ينكر اسمه فيثير الخوف والفرع في قلوب الناس !

بدأ تيتش حياة القرصنة في عام ١٧١٧ ، حيث أبحر إلى أمريكا مع بنيامين هورني جولد .. وكان بنيامين قرصاناً ممتازاً ، حنكته التجارب ، ولكنه لم يكن في مثل جسارة تيتش وجراته ، فسرعان ما بدأت شخصيته تفنى وتتضاءل أمام شخصية تيتش القوية الجارفة .. حتى أصبح الرجل بعد مدة قصيرة حاكماً بأمره في السفينة ، فخضعت له النفوس ، وثلت الأعناق !

وبدأ تيتش أول غزواته مع شريكه بمهاجمة إحدى السفن الكبرى ، فسلمت له في الحال ، وأخذ ينهب ما فيها حتى أصاب منها ثراء طائلاً ، وغنماً كبيراً . وفي الغزوة الثانية أصيب شريكه بجرح أودى بحياته ، فأصبح الرجل وحده صاحب السفينة ، لاشريك له ، ولا منافس ينازعه السلطان .

ولم يكن تيتش في أعماق نفسه بالرجل القظ الغليظ القلب ، كما يبدو مظهره .. بل كان رقيق الشعور ، مرهف الحساسية ولكنه كان يعتبر هذه

الرفقة والحسامية شر ما به ، وأن ما فى قرارة نفسه من مشاعر العطف والحنان .. إنما هو مرض يجب استئصاله إذا كان يعتمز حقا المضى فى مهنته الجديدة التى لا تعرف معنى الرحمة أو الشفقة .

ويدأ الرجل يعود نفسه على الصرامة والقسوة ، وأخذ يسدل ستاراً يخفى به ما فى نفسه من الشعور ، وكان ستاراً من وحشية زائفة وغلظة مصطنعة !! ومساعدته مظهره الخارجى وطبيعة تكوينه على أن يكون ذلك الرجل الذى تمنى أن يكونه : أشعث أغبر الوجه فظاً غليظ القلب ، يبعث منظره على الخوف فى النفوس والفزع فى القلوب .. وهكذا سار الرجل فى طريقه الجديد ، وشتان بين ظاهره وباطنه ، حتى لكأنه « جوزة الهند » ظاهراً خشن غليظ ، وباطنها صاف رقيق ! ..

وظهر الرجل كأنه شيطان رجيم ، تبدو على وجهه علائم الكراهية للخير ، ومظاهر الرغبة فى الإثم والعدوان ، فأثار ذلك الخوف بين أصدقائه قبل أعدائه ! وكان الرجل محقاً فيما فعل ، فقد كان بحارته وأعدائه من الطغاة العتاة ، استمسروا وتنمروا ، بحيث لم يكن يستطيع كسر شوكتهم إلا رجل مثل تيتش فى مظهره الجديد .

ونجح الرجل فى تمثيل شخصيته الجديدة كل النجاح ، فذاع صيته وانتشرت بين الناس أقاصيص مروعة عن مغامراته وشروره .. وخلع عليه كتاب الروايات من خيالاتهم ثوباً زاده هولاً على هول حتى لقد أصبح الناس يخيفون به أطفالهم !

وقد كان الرجل فى بادئ الأمر يجد غضاضة من هذه القسوة التى يضطر إلى ارتكابها ، ولكنه بدأ يعتادها شيئاً فشيئاً حتى ألفها تماماً .

ومرت الأيام ، وطبيعة الشر تتغلغل فى نفسية الرجل ، وطبيعة الخير

تنقرض وتضمحل .. وأخذت الوحشية المصطنعة تنقلب إلى وحشية حقة ،
وأخذ الطغيان يصدر من باطن الرجل لا من ظاهره ، وتغلب المظهر على
المخبر ، فإذا بالرجل كله قد أصبح كتلة من الشرور والآثام !

وفى ذات يوم ، عقب غزوة موفقة على سفينة ذات صيد وافر مكتنز ،
رست السفينة على إحدى الموانئ المنعزلة المتطرفة ، ونزل البحارة يتجولون
في الميناء ، ويصرفون أنصبتهم من الأسلاب والغنائم في اللهو والخمر ..
ورغم ماكان يتقل حقائقهم من ذهب وفضة ، فإن طبيعتهم الشريرة كانت تدفعهم
إلى ما تعودوه من سلب ونهب ، فبدءوا يعيشون في الأرض فساداً ، وأخذوا
يدخلون الرعب والفرع في المدينة : ينتهكون حرمانها ، ويغتصبون نساءها ..
ومار القوم في الطرقات سكارى يترنحون ، وقد أغلق أهل المدينة دورهم
خائفين وجلين ، وساد المدينة سكون وصمت رهيب ، فلم يعد يسمع فيها إلا
رنين ضحكات البحارة ونكاتهم البذيئة ..

وانتهوا من تجوالهم ، واخذوا يعودون أبراجهم إلى السفينة . وفى أثناء
عودتهم رأى أحدهم كوخاً حقيراً قرب الشاطئ ، فأطل منه برأسه ، وإذا
بغنيمة باردة ، وصيد ثمين !

رأى الرجل ثلاث فتيات يختبئن في الكوخ خوفاً من فتك الطغاة ، فأتلج ذاك
صدره ، وصاح بزملائه ينبئهم بالكنز الثمين !

وأقبل القوم يصيحون وقد تهللت وجوههم فرحاً ، وقبضوا على الفتيات
وساقوهن أمامهم إلى السفينة !

ووجد القوم في إحدى الفتيات سحراً عجبياً ، وجمالاً فائتاً ، فقد كانت تبدو
كأنها نسيج وحدها ، حتى خيل إليهم أنها لا يمكن أن تكون آدمية كغيرها من
النساء ، وأنه لا بد أن يكون في خلقها سر من الأسرار .. واستقر رأيهم على

أن يهدوها إلى ذى اللحية السوداء ، لأنه أقدر منهم على مقاومة سحرها ، ففي منظره المروع ، وقوته الخارقة ، ما يتوازن مع فتنها العجيبة ، ونظراتها النفاذة .

وذهب القوم بها إلى الرجل ، فأخذها جمالها لأول وهلة ، ولكنه تمالك نفسه واصطنع الجد ، وصاح بها في عنف وشدة : من تكونين ؟ فأجابته ساخرة : ومن تكون أنت ؟!

- أنا رب السفينة ، أنا سيد البحار ، ذو اللحية السوداء !

- أنت ؟؟ أنت ذو اللحية السوداء ..؟ كان يخيل إلى أن ذا اللحية السوداء خير من هذا بكثير ! لشد ما خيبت أملى ياسيدى !.. إن من يراك الآن يظنك مشعوذاً أو دجالاً .. بهذه الصفات المدلاة على صدرك ، والشموع الموقدة في رأسك !

وصعد الدم إلى رأس الرجل ، واندفعت الشتائم تنساب من بين شفثيه ، وصاح بالقوم أن يسجنوا الفتاة في أسفل السفينة ، وأنه سيتولى بنفسه تأديبها على ما تفوهت به !

وانفض الجمع ، وذهب الرجل إلى غرفته وهو يرتجف من الغضب . وكان أول ما فعل أن نظر إلى وجهه في المرآة !!

وللمرة الأولى في حياته ، وجد أن منظره أبعث على السخرية منه على الرهبة ، وأن الفتاة قد تكون محقة فيما قالت ...

وهنا قبض على الشرائط التي ربطت بها لحيته ، ونزعها بشدة ، ثم قذف بالشمعتين جانبا ، وارتمى على فراشه يفكر في الفتاة !

وفي اليوم التالي ذهب إليها في سجنها ، فقابلته الفتاة ضاحكة ، وأخذت

تقول فى سخريه : الآن يبدو منظرك أحسن بعض الشيء !! إياك والعودة الى ذلك المنظر المضحك المخزى !

- ألا تكفين عن سخريتك وسوء أدبك ؟؟ سأريك كيف يجب أن يتحدث مثلك إلى القوم الكبار !

وصاح الرجل بأحد بحارته ، فأحضر له سوطاً ، هوى به على جسدها ، ثم تركها تنن وتتلوى !

وعاد الرجل إلى حجرته ، وهو يشعر لأول مرة فى حياته بألم عميق يمزق نفسه !! لقد خيل إليه أن السوط لم يكن يهوى على جسد الفتاة ، ولكنه كان يهوى على قلبه فيقطع نياطه !

ولأول مرة منذ اشتغل الرجل بالقرصنة ، أحس أن رقة قلبه قد بدأت تظهر ، وأن داءه القديم قد أخذ يعاوده !! لقد كان يظن أنه فقد الحساسية . وكان سعيداً بذلك .. ولكن هذه الفتاة قد حطمت ذلك الدرع من القسوة الذى خيل إليه أنه تحصن به ضد كل خور وضعف !!

وأغلق الرجل باب الغرفة وأحكم رتاجه ، ثم دفن وجهه فى يديه وأخذ يبكى !!

بكى ذو اللحية السوداء ! .. الرجل الذى ضربت بغلظته الأمثال !!

وبعد يومين ذهب إلى الفتاة مرة أخرى ، فقابلته فى صمت ووجوم . وقد بدا فى عينيها الازدراء !

- قال لها : أما عنت تتهemin على بعد الآن ؟

- لا ياسيدى .. لن أتهمك عليك . لأنك لا تستحق حتى التهمك لقد كنت أسمع عن ذى اللحية السوداء ، وكنت أرسم له فى رأسى صورة عجيبة ، وكنت

أتمنى لو أراه .. رأيتك خاب أملى بعض الشيء .. فقد ساعنى ذلك العبث الذى كنت تصنعه فى وجهك ، ولكن عندما هويت على بالسوط أنهارت كل آمالى ، فقد كنت أظن ذا اللحية السوداء ، بالرغم من قسوته .. رجلاً شريفاً نبيلاً .. ولم أكن أظن أنه يهوى بسوطه على فتاة ضعيفة عزلاء !

ولم ينبس الرجل ببنت شفة ، بل أدار لها ظهره ، وعاد سريعاً إلى غرفته قبل أن يرى أحد رجاله مظاهر الرقة والضعف التى بدت على وجهه ، وفى اليوم التالى طلب الفتاة إلى حجرته وأخذ يعتذر لها وأبلغها أنه أصدر أوامره بأن تعود السفينة إلى بلدها ، حتى يعيدها إلى أهلها ! ..

وعجبت الفتاة ، وأدركت أن الرجل ذو قلب نقى ، ونفس نبيلة وإن كان مظهره يبدو خشناً غليظاً ، وأن الصورة القديمة التى رسمتها فى رأسها عن ذى اللحية السوداء .. لاتعدو أن تكون حقيقة واقعة وبدأت السفينة تتحمة مرة أخرى إلى بلدة الفتاة ، وعندما وصلت الميناء ، كان الرجل والفتاة قد هلم كل منهما حياً بالآخر !!

ووجد الرجل أن ذلك الحب سيفقده حتماً قدرته على السيطرة على رجاله وأعوانه ، وأن الفتاة قد صقلته وهذبته ، وأنه لن يستطيع أن يجمع بينه وبين شروبه ووحشيته ، فكان عليه حتماً أن يعيدها عنه ، ويتركها فى بلدها !!

ورمت السفينة على الشاطئ ، وشعر الرجل بأن حياته توشك أن تظلم .. فجمع بحارته وأعوانه وأخبرهم أنه قرر أن يعتزل حياة القرصنة ، وأنه سيتترك لهم السفينة بما فيها من أسلاب وغنائم ، وأنه لا يريد إلا مبلغاً بسيطاً ينشئ به متجراً يعاونه على كسب عيشه !

وذهل اليحارة ، وخيل إليهم أن الرجل يهزل ، ولكنه كان جاداً كل الجد ،
فقد غادر السفينة مع الفتاة ، وفشل الجميع في إقناعه بالعدول عن فعلته ،
وبدأت السفينة تبتعد عن عينيهِ رويداً رويداً حتى اختفت ، فسالت من عينيهِ
دمعتان مسحهما بكمه ، ثم أعطى ظهره للبحر ، وعاد مع الفتاة إلى المدينة ..

★ ★ ★

نهاية قريبة

وكان يومئذ في الحادية والثلاثين من عمره ..
وكانت في الثانية والعشرين وفي ذلك الوقت من
العمر تبدو نهاية الحياة نائية بعيدة .. حتى ليكاد
المرء يتخيل أنها لن تأتي . ولكن ..

كان طريق كوروناري من أبهج شوارع روما وأكثرها ازدهاراً في خلال
القرن السادس عشر ... وكانت تكثر به حوانيت صناع المسابح وتجار
العاديات ، فقد كان يخترق قلب المدينة إلى كويري سان انجلو ، وكان هو
الطريق المؤدى للفانيكان ، والذي كان يتدفق منه ذلك السيل الذي لا ينقطع
من الحجاج في طريقهم إلى القمم البرونزية لسان بيتر .

وكان المارة من هذا الطريق يرون من حين لآخر تلك الحوانيت التي
اكتظت بالتحف والخزف ... وحوانيت من . نوع يفتح الشهية ويميل
للعباب .. فقد ملئت بصنوف المطاعم .. وشتى المشارب من شواء تسبى
رائحته البطون . وخمر معتقة و صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها .

وكان حانوت الخباز بتروجا فاريللى .. رغم أنه قد عطل من عبير الخمر والشواء .. إلا أن أرغفته الطرية الساخنة .. ذات الوجه الأحمر المصقول كأنه وجه غادة خمرية فاتنة .. قد جذبت المارة فتهاقنت على الحانوت من كل حذب وصوب .

وفى الواقع لم يكن هناك من يستطيع أن يجزم تماما .. ما إذا كانت تلك الأرغفة الساخنة هي التي كانت حقيقة تجذب تلك الزرافات من الحجاج .. أم أن ذلك الوجه الساحر الفاتن الذي كان يبدو خلف تلك الأرغفة .. هو الذي كان موضع السر ، وبيت القصيد .. ولكن أغلب الظن أنهم لو كانوا وقتئذ قد وضعوا صاحبة الوجه فى جانب .. والأرغفة فى جانب .. لولى الناس وجوههم شطر الفتاة ..

كانت الفتاة .. هي ستيلا ابنة صاحب المخبز وكان الرجل يقطن مع زوجته وابنته فوق الحانوت .. وكان تقيا ورعا ، قد ملأ الإيمان قلبه .. وقد كرس الرجل حياته لله .. ولابنته .. التي بلغ به حبها حد العبادة ..

وكانت الفتاة قد بلغت من الجمال حداً يضعها فى مصاف العجائب .. وكان أصدقاء أبيها يخشون على الفتاة من فرط جمالها . ولكن الرجل كان يقسم ويجزم أنه مادام على قيد الحياة فالفتاة لن ترى قط ما يحزنها أو تؤلم نفسها .

وكان ذلك العصر هو أكثر العصور ازدهاما بالعابرة ونوابغ الفنانين ، وكان الكل يتنافسون على إعادة روما إلى مجدها القديم فى عهد قيصر .. وكان البابا بوليس الثانى هو خير مشجع للفن والفنانين فأعقد الأموال الطائلة على بناء سان بيتر .. وحشد كل قوى الفنانين فى سبيل إخراجه تحفة رائعة .. وكان يرمانت وميشيلو انجلو ورفائل الذين خلدتهم التاريخ .. على رأس أولئك الفنانين .

وكان رفائيل في ميعة الصبا ومستهل الحياة .. ولكن الفنان الشاب استطاع أن يقفز درجات المجد في سرعة البرق . وإذا بصيته قد ذاع في الآفاق .. وبلغ فنه حداً من الروعة جعل البابا يطلب إزالة بعض الصور البديعة التي رسمها بيروجينو أستاذ رفائيل ومعلمه الأول .. حتى يعاد رسمها مرة أخرى بواسطة رفائيل .. ولكن الفنان الشاب استنكر هذا العمل ورفضه .. وأبى أن يكون جاحداً لفضل أستاذه ناكراً لجميله .

وبلغ من تقدير الناس له في ذلك الوقت وإعجابهم بفنه أن صوروه في نفوسهم صورة سماوية إلهية ، ووضعوه في مصاف القديسين والأنبياء . وقد حدث ذات مرة أن صنع رفائيل صورة بديعة لكي توضع في إحدى كنائس باليوميو ، ووضعت الصورة في صندوق كبير ، وحملت على إحدى المراكب لكي ترحل إلى باليرمو ، ولكن السفينة تحطمت في الطريق ، وفقدت الصورة ، فأحس الناس جميعاً أن فقدان الصورة كارثة حلت بهم جميعاً . وبعد ذلك بعدة أشهر عثر على صندوق يطفو في البحر بالقرب من جنوا فلما فتح وجدت به الصورة سليمة كما هي لم تصب بضرر ولم يمسا خدش . واعتبرها الناس معجزة من معجزات رفائيل .

وفي ذات يوم طلب أوجستو سيجي - وهو قطب من أقطاب الفن في ذلك الوقت - من رفائيل أن يرسم له عدة صور على جدران داره المسماة « فيلا فارنسينا » . وكانت الصور المطلوب رسمها تختلف كل الاختلاف عن تلك الصور التي تعود لرفائيل رسمها على جدران الكنائس ، والتي أتقنها حتى بلغ بها حد الكمال . فقد كانت الصور تمثل بعض الخرافات القديمة في عهود الوثنية . وضمنها « انتصار جالاتيا » وكان الشعراء قد وصفوا « جالاتيا » (وهي كلمة لاتينية معناها اللبن) وصاحباتها من النساء المقدسات بأنهن ذوات ضفائر كسباتك الذهب .. وبشرة بيضاء كنور يخطف البصر .

وملكت الحيرة رفائيل . فإنه لن يجد وسط نساء جنوب إيطاليا من تصلح لكي تكون نموذجاً لذلك النوع الجديد من الصور .. وأعياء البحث فطلب من بعض أصدقائه معاونته في العثور على بغيته ، ومن بين الخطابات القليلة التي مازالت موجودة حتى الآن .. خطاب أرسله رفائيل لصديقه الكونت كاستيجليون يطلب معاونته في البحث عن نموذجه المطلوب وضالته المنشودة .. نقتطف منه ما يلي :

« عندما أرغب في رسم صورة لامرأة جميلة . لا بد لي من رؤية عدة نساء جميلات . وهاته الصور التي أرغب في رسمها الآن أشعر بعجزى عن وصفها ، فهل لي أن أُلجأ إلى معاونتك في البحث عن بعض النماذج التي يمكن أن ترضى خيالي .. وأشعر أن فيها ضالتي المنشودة ؟ أنا أعلم أن النساء الجميلات نادرات كالأصدقاء المخلصين . وعلى ذلك فيخيل لي أنني سألجأ في النهاية إلى خيالي فأستوحيه تلك الجمال العجيب الذي أرغب كل الرغبة في إظهاره » .



وفي يوم من الأيام .. وقد أعى رفائيل البحث عن ذلك الجمال العجيب الذي يرغب في إظهار روعته . كان الفنان يتجول في طريق كوروناري . عندما وقف فجأة كأن قدميه قد سمرت في الأرض .. وفتح عينيه وأغمضها لكي يتأكد أن ما رآه حقيقة وليست أمنية تراءت له في الخيال .

في حانوت الخياز رأى صاحبنا .. ذلك الجمال الذي لم يره من قبل إلا في أوهامه وأحلامه .. رأى العنق العاجي الذي ركب فوقه وجه دقيق الصنع ، وفوق العنق والوجه ثروة من ذهب براق يأخذ بالأبصار ..

ولم تأبه الفتاة لنظراته .. فقد اعتادت حملقة الناس في وجهها .. وبادلتها نظرة . والتفت الأعين الناعسة بالأعين الجائعة .. فما اهتزت الأولى ولا شبعن الثانية .

وانصرف الفنان .. مكتفياً في يومه بهذا القدر مصمماً على أن يعود في اليوم التالي . ولكن لم تمض ساعة حتى عاد صاحبنا يحملق في الفتاة ليشبع منها نهمه ، وفي المساء أرسل تلميذه جوليو رومانو لكي يجمع عنها كل ما يستطيع معرفته من معلومات .. لأنه كان قد صمم على أن يتخذها نموذجاً لجالاتيا .

وأخذ رفائيل بعد ذلك يحوم حول الحانوت يوماً بعد آخر دون أن يجسر على مواجهة أبيها العجوز . وأخيراً حزم أمره وجمع شجاعته ، ثم تقدم إلى الرجل وواجهه بما يريد قائلاً : إنه أحد الفنانين وأنه على استعداد لدفع ما يطلب الرجل نظير السماح لفتاته بالجلوس أمامه ليستعملها نموذجاً لبعض صوره . واحمر وجه العجوز واهتزت أطرافه من الغضب والانفعال ، ثم انفجر صائحاً :

- فتاتي أنا تستعمل نموذجاً لرسام ! . لا بد أنك مجنون . اغرب عن وجهي وإلا ..

ثم ضرب المنضدة التي أمامه بقبضة يده . وأردف :

- ستبلا نموذج لرسام ؟ والله لو كان هذا الرسام هو ميشيل انجلو نفسه لما قبلت !

وحاول رفائيل تهذئة العجوز فسأله :

- حتى ولا رفائيل ؟

- رفايل ؟ !! يالك من أبله !! إن فى إمكانه الحصول على كل نساء العالم لو أراد .. فهو فى غير حاجة إلى ابنتى . ولكنك على أية حال لست برفايل فأغرب عنى ودعننى فى هدوء .

- يا أبت .. إن الفنان لا يحتاج فقط إلى الفرش والألوان حتى يبرز إلى الوجود فنه .. فلا بد له من كائن حى .. شبيه بذلك الكائن الذى فى خياله .. وإن ابنتك هى صورة طبق الأصل لما رسمته فى مخيلتى عن « جالاتيا » التى سأرسمها فى فيلا فارنسينا .. أنا رفايل صديق البابا وإنى أطلب ابنتك من دون نساء العالم .

وذهل العجوز عندما وجد نفسه أمام رفايل بدمه ولحمه . وارتج عليه فلم ينطق ببنت شفة .. وكانت الفتاة خلال هذه المناقشة لم يتحول بصرها عن الفنان الشاب الجميل وقد أخذ قلبها يدق بشدة .

وبدأ العجوز يسأل فى أدب عن تكون جالاتيا ، وماذا ترتدى وأخذ رفايل بهذا السؤال فلم يكن قد استعد له .. فقال متلعثما إنه لم يقرر بعد ماذا سترتدى لأنها ستكون خارجة من البحر .. ويحتمل أنها تكون قد سترت نفسها ببعض من قش البحر .. أو خمار رقيق .. وهنا لم يستطع العجوز أن يكبح جماح غضبه فصاح :

- ستبلا عارية ! .. أى عار يلحق أسرتنا بذلك ! كلا .. كلا .. لا يمكن أن يحدث شيء من هذا .. هل ضاقت الدنيا عليك ياسيدى فلم تجد غير ابنتى تلبسها هذا العار !!

ووجد رفايل أنه من العبث أن يناقش الرجل فلم يرد عليه بأكثر من قوله :
على أية حال سيكتب البابا إليك .

وبدا رفائيل يكرر زيارته يوماً بعد آخر .. عسى أن تلين قناة الرجل .. وكانت الفتاة تشعر بأنها تقترب من الفنان رويداً رويداً .. وبأنها تنتظر حضوره بلهفة تزداد يوماً بعد يوم .

وأخيراً وصلت للرجل رقعة خطت عليها بضع كلمات .. فى نهايتها إمضاء البابا نفسه .. فلم تمض لحظة إلا وستيلاً قد حزمت أمتعتها ورحلت الى « بورجو نوفو » حيث ستوديو رفائيل .

ولم تكن الفتاة ليخطر ببالها قط أن هناك من يستطيع حملها على أن تعرض جسدها عارياً أمام رجل غريب .. ولكن عندما شملها الاستوديو ، ووجدت نفسها محاطة بمئات الصور واللوحات المليئة بالنساء العاريات وغير العاريات .. اقتنعت بأن مئات من الفتيات غيرها قد ضحبن بحياتهن من قبلها على مذبح الفن .. وبدأ الخجل يذهب عنها بعض الشيء ، وأخذت نفسها تعتاد جو الاستوديو وتأنس إليه .. وشيئاً فشيئاً أصبحت الفتاة لاتجد غضاضة البتة فى الوقوف عارية أمام الفنان .. حتى تكأنها قد خلقت لهذا الفن .

ووجه هذا النموذج الجديد فن رفائيل إلى ناحية أخرى تختلف كل الاختلاف عما اعتاده من قبل .. لقد بدأ رفائيل يرسم شيئاً جديداً غير العذراء ويسوع والقديسين و .. شيئاً لم تخف روعته الملابس ، أو يحجب سحره الأتعة والخمارات .. شيئاً تجرد من كل شيء عدا الأنوثة .. والفتنة .

وفى خلال الجلسات الطويلة التى كان يقضيها رفائيل أمام نموذجه الحى .. بدأ يقص الفنان تاريخ حياته للفتاة .. ويحكى أسراره وأشجانه .. ويحدثها عن متاعبه وعن آماله .

وقص عليها كيف يضايقه الكردينال ديغريو برغبته فى أن يزوجه ابنة أخيه .. وقد وعده رفائيل بذلك بالرغم من أن الفتاة ليس بها شيء من الجاذبية ،

وبالرغم أيضاً من أن البابا قد وعد أن يجعله كرديناً ، في حين أن هذا الشرف لا يمكن أن يناله رجل متزوج ، وعلى ذلك فسيكون زواجه بالفتاة عقبة كأداء في سبيله .. وأنه لا يدري ما العمل في هذه المشكلة ؟

وأجابته في بساطة وهدوء :

- إذا كانت الفتاة تحبك حقاً فيمكنها أن تتنازل عن تلك المظاهر الرسمية السخيفة .. فنكون عشيقتك .. بدلا من أن تكون زوجتك فنتمتع بقربك .. دون أن تكون عقبة في سبيل مستقبلك .

وبالرغم من أن الفتاة قالت ملاحظتها ببراءة وطهر .. وإخلاص لاتبويه شائبة ، وبالرغم من أن رفائيل كان غارقاً في وحى من الفن وكانت كل جارحة فيه قد وجهت إلى تلك الصور التي انهمك في إبداعها .. فقد أحس كأن لسعة تخزه ، وكأنما كان يشعر في قرارة نفسه بافتتان خفي ، أزاحت عنه الفتاة الستار بالملاحظة التي أبدأتها دون قصد .. فبدأ شعوره يظهر قوياً جارفاً .. وحاول الفنان أن يستمر في عمله ، ولكن يده كانت مضطربة .. وكان الظلام قد بدأ يسقط .. فقرر أن يترك العمل الليلة .. ثم ألقى فرشاته جانباً .. ووجد نفسه مدفوعاً بقوة لانتقاوم إلى التقدم إلى نموذج الحى .. وأمسك له قبل أن يستطيع الإقالات .. وفي غمضة عين انهارت من أسسها تلك القيود الحمقاء والتقاليد الجوفاء التي تعلمها من قبل في هذه الحياة .

★ ★ ★

وفي ذلك الوقت كان تلامذة رفائيل قد أتموا النقوش الابتدائية في فيلا فرنسينا ، ولم يبق إلا الصور التي لا بد لرفائيل أن يذهب إلى هناك لرسمها على الجدران ، ولكن الفنان كان قد أغلق الاستوديو على نفسه ، وأصم أذنيه عن كل نداء بالذهاب إلى هنالك .

ولم ير اجستوشيحي بدأ من الذهاب بنفسه لاستدعاء الفنان العنيد ..

وعندما دخل الاستوديو أثارت إعجابه تلك العشرات من الصور التي كان قد طلبها من الفنان لمقابلة هنا وهناك .. وفي وسط الاستوديو استرعى بصره مقعد النموذج .. خالياً من صاحبه .. وعلى منصة الرسم بدت صورة لذلك الجمال الذي كان يبحث عنه الفنان .. وسأل شيجي .

- أين فينس العظيمة .. التي عثرت عليها في دكان خباز ؟ وأشار رفائيل إلى حاجز وقفت خلفه الفتاة وكانت قد اختبأت به عند دخول الرجل .. وأمرها رفائيل أن ترفع رأسها .. ففعلت

وصمت شيجي لحظة ثم همهم : إذا هذا هو السبب .. لقد علمت الآن .. وسادت فترة سكون أخرى ثم أردف الرجل :

- اسمع يارفائيل .. سأخصص لكما جناحاً في الفيلا ، وأنتما من الآن ضيفاي .. وستبقيان كذلك حتى تنتهي من عمل « انتصار جالاتيا » و « ثوربروسريين » و « فينس في رحلة إلى أوليمبس » و « فينس وجوبيتر » . ثم عدد حوالي العشر صور وقال له :

- عندما تنتهي من تلك الصور .. يمكنك مبارحة الدار والاختفاء حيثما شئت :

ثم أحنى رأسه للفتاة خلف الحاجز ، وسلم على رفائيل ، وغادر المكان ، وخرجت ستيلاً من مخبئها متسائلة : هل ستذهب ؟

- نعم .. نذهب إلى أي مكان مادامنا سويا !!

- حتى ينتهي العمل ؟

- بل حتى تنتهي الحياة !!

وكان يومئذ في الحادية والثلاثين من عمره .. وكانت في الثانية والعشرين وفي ذلك الوقت من العمر تبدو نهاية الحياة نائية بعيدة .. حتى ليكاد المرء يتخيل أنها لن تأتي .. ولكن ..

انتهى العمل في فيلا فارنسينا .. وانتهت بعد ذلك عشرات من القطع الخالدة الرائعة .. وكان الفنان لا يكل أو يني ، فعلم الناس كيف يتذوقون الفن ولكن على حين غرة .. شاء القدر أن يقرر أن الفنان قد أدى نصيبه في الحياة .. ففي السابعة والثلاثين أصابه مرض لم يمهله سوى أيام معدودات .

وهكذا مات رفائيل في زهرة العمر ، بعد أن كرس تلك الفترة القصيرة التي قضاها في الحياة لثلاثة أشياء - الحياة بدونها خير منها العدم - تلك هي : جمال الفن ، ولذة الانتصار ، وحلاوة الحب .

الماء الأسود

وذهب المجلس المحترم ، وأخذ في استجواب
الرجل ، ولكنه لم يجب بحرف واحد ، بل صاح
بأبنته ، فتقدمت حاملة بين يديها منضدة صغيرة ،
عليها أكواب الماء الأسود .

- إنه ، ياسيدي ، شيء مخيف ومروع حقاً !!

- هدىء من روعك ياأبني ، واسترح قليلا ، ثم خبرنا بجلية الأمر ..

ولكن الرجل لم يسترح ولم يهدأ .. بل اندفع يتحدث في سرعة دافقة ، وقد
ارتجف جسمه ، واحمرت عيناه ، كأن به مسأ من شيطان رجيم ..

قال إنه رأى أشباحاً ضخمة مخيفة .. تتحرك ببطء ، وقد تقدمتها حيوانات
بشعة لم ير مثلها من قبل .. وكانت القافلة الرهيبة تزحف دون أن يظهر بينها
ألمى واحد .. حتى خيل إليه أن أصحابها من الجن والأبالسة .

وسرى النبأ في القرية سريان النار في الهشيم .. وعلم أهلها أن عدواً

غامضاً مخيفاً بات يهدد سلامتهم ، وأنه يوشك أن ينقض عليهم فيوسعهم نهياً
وسلباً ، ويذيقهم عذاباً أليماً !

وسرعان ما احتشد رجال القرية بأقواسهم ونبالهم ، ومضت جحافلهم تريد
العدو .. لمنازلاته وسحقه !

★ ★ ★

كان ذلك في أوائل القرن التاسع عشر ، في إحدى قرى ولاية أوريجون
بأمريكا الشمالية ، وكانت قرية بعيدة يسكنها الهنود الحمر ، لم يستطيع
المستعمرون البيض أن يصلوا إليها في ذلك الحين .

وفي ذات يوم شاهد أهل القرية رجلاً غريباً يقبل عليهم ، وقد ساق أمامه
جواداً عجوزاً أعرج ، حمله ما استطاع من بضائع أوروبية أثارت عجب القوم
ودهشتهم ..

وتهافت القوم على بضاعة الرجل ، وبدأت المقايضة .. فأخذوا كل ما معه
من (بطاطين) زاهية ، وحلى مذهبة ، وأصوات للطبخ والأكل براقعة لامعة ،
واستولى هو على كل ما لديهم من فراء ثمين ، ثمناً لبضاعته الزهيدة التافهة ..
ومع ذلك فقد كان اغتباط القوم بما أعطاه الرجل لهم لا يكاد يقدر .. بل أظهروا
له عظيم أسفهم عندما أعتزم الرحيل ، ورجوا منه رجاء حاراً ألا يطيل غيبته ،
وأن يحضر لهم في المرة القادمة كل ما يستطيع حمله من سوق الرجال
البيض .

وولت الأيام ، والقوم في انتظار الرجل الأبيض الذي طالبت غيبته ، حتى
يئسوا من عودته ، وامحت شكواه من رءوسهم ..

وفي يوم من الأيام أقبل رجل منهم يعول ويصيح وقد تملكه الفزع .. وأخبرهم أنه رأى خارج القرية عدواً مخيفاً جباراً يزحف عليهم كأنه القدر المحتوم . وهرع القوم إلى أسلحتهم ، وهبوا ينودون عن حياضهم .. وسارت جماهيرهم نائرة صاحبة تهدد الغازي بالويل والثبور ..

وظهرت في الأفق طلائع العدو ، فذهل القوم لرؤيتها ، وتسمروا في أماكنهم كالحجارة ! .. لقد صدق النذير ، ولم يكن مبالغاً فيما وصف !!

هذه الأشباح الهائلة المخيفة التي تتقدمها حيوانات ضخمة مروعة ! ترى ما كنهها ؟ وماذا تبتغي ؟ ..

ولم يبد على العدو الزاحف أى إشارة تدل على العدوان .. فزاد ذلك من دهشة القوم ، وأطلقوا عليه بضعة أسهم في الهواء استفزازاً له ، ولكنه استمر في مشيته الهائلة ، ومظهره المسالم ، وأخذ يقترب منهم شيئاً فشيئاً ، حتى أصبح منهم على قيد خطوات ..

.. وفجأة انقلب فزع القوم ودهشتهم إلى موجة فرح وسرور سرت بينهم وإذا بهم يقهقهون ويرقصون حول ماظنوه في بادئ الأمر عدواً يهدد سلامتهم .. فقد وجدوا عدوهم المخيف ، هو التاجر الأبيض الذي ينتظرونه بفارغ الصبر .. ولم تكن الأشياء الضخمة الرهيبة التي تتقدمها الحيوانات المخيفة سوى عربات كبيرة تجرها الثيران ، وقد حملها التاجر بالبضائع المختلفة !

وسار أهل القرية يتقدمون موكب التاجر ، ودخلوا القرية كالغزاة الفاتحين .. وانتقى التاجر قطعة أرض واسعة في وسط القرية فحط بها رحاله ، وأخذ يبنتى له كوخاً خشبياً واسعاً جعله قسمين : أحدهما لسكناه هو

وفناته الحسنة الذهبية الشعر ، والآخر نظم فيه بضاعته تنظيمًا بديعاً ،
استهوى أفئدة الهنود ، وملأهم سروراً وعجباً .

ولم تكد تمضى أسابيع قلائل حتى كان الرجل قد استنفذ معظم ما يملكه أهل
القرية من نفائس وفراء نظير جزء ضئيل من بضائعه . ووجد نفسه قد أصاب
في غمضة عين ثراء طائلا لم يكن يحلم به ..

وذهب عمدة القرية لزيارة حانوت الرجل ومشاهدة ما به من تحف ،
فاستقبله بالحفاوة والترحاب ، وأكرم وفادته ، وعرض عليه كل ما عنده من
بضائع نفيسة .

وعندما هم العمدة بمغادرة الحانوت ، قاده الرجل إلى غرفة صغيرة مظلمة
في مؤخرة الكوخ ، وأسر في أنه هامساً :

- سأنيقك نوعاً من الشراب إذا أقسمت ألا تبوح بسرّه لأحد !

ويعد أن أقسم العمدة يميناً غلظة ، ناوله الرجل كوباً مليئة بشراب سماه
« الماء الأسود » .. وكان الشراب نوعاً من الخمر المعتقة ، أغلب الظن أنه
« الروم » .

وكانت الخمر في ذلك الوقت حرم بيعها للهنود الحمر ؛ لما لها من تأثير
بالغ فيهم ، ولكن التاجر كان قد تملكه الجشع ، وأغراه ما حصل عليه من ثروة
طائلة ، فطمع في المزيد ، ورسم لنفسه خطة يتحايل بها على بيع الخمر للقوم
بأبهظ الأثمان فتضاعف بذلك ثروته ، ويستنزف منهم كل ما يملكون .

وفعلت الخمر فعلها برأس الرجل الوقور فأصابته نشوة .. واستخفه
طرب .. وذهل الناس عندما رأوا عمدتهم المهيب يعود إلى داره مترنح
الأعطاف ، يوزع النكات ذات اليمين وذات اليسار ، ويرفع عقيرته بالغناء ،
غير متورع عن الرقص وسط الطرقات !!

وفى اليوم التالي حينما أفاق الرجل ، ولم يجرؤ أحد على مصارحته بهزله الشائن ، وعبثه العاجن .. ولم يجد الرجل ما يمنعه من كوب آخر من الماء الأسود على سبيل ، الفرشنة ، فولى وجهه شطر حانوت التاجر ..

وتكررت المهزلة يوما بعد يوم .. ووجد أهل القرية أن الأمر أصبح جد خطير ، فانعقد مجلس القرية للتشاور فيما أصاب زعيمهم .. وقرروا آخر الأمر أن التاجر الأبيض قد سلط عليه روحا شريرة أصابته بخبل ، وجعلت منه سخرية وأضحوكة .. واتفقوا على إيفاد رسول منهم إلى التاجر لنتهيه عن فعلته الشائنة ، وأمره بطرد الروح الشريرة من جسم الزعيم .

وذهب الرسول فأنذر الرجل ، وأنصت هذا لحديثه حتى النهاية ، دون أن ينبس ببنت شفة .. فلما انتهى قاده من يده إلى الحجرة النائبة ، وفعل به مثل ما فعل بالزعيم فى أول الأمر .

وخرج الرسول نشوان مترنحا.. هازلا ماجنا .. يغنى ويرقص .. تماما كما فعل زعيمه من قبل !!

وذهل أعضاء مجلس القرية حينما رأوا ما حل برسولهم ، وما زالوا يستجوبونه حتى باح بالسر .. وهو مخمور لا يدري ما يقول !!

ودهش القوم ، ولم يصدقوا الرجل ، واستقر رأيهم على أن يذهبوا جميعا ليتبينوا الحق من الباطل .. وكان هذا هو كل ما يرغبه التاجر الأبيض !!

ذهب المجلس المحترم ، وأخذ فى استجواب الرجل ، ولكنه لم يجب بحرف واحد ، بل صاح بابنته ، فتقدمت حاملة بين يديها منضدة صغيرة صفت عليها أكواب الماء الأسود !

وتردد القوم برهة ، ثم مدوا أيديهم يجرعون ما بالأكواب .. ويعد هنيهة
أصبح مجلس القرية .. مجلس أنس ..

وتهاقت على التاجر أهل القرية يطلبون أن يذوقوا الماء الأسود فلم يدخل
عليهم به .. ورفض أن يأخذ منهم أى مقابل !

وحدث بعد ذلك ما ينتظر كل امرئ حدثه .. فقد استساغ أهل القرية
الخمير ، وأقبلوا عليها ، فرفع الرجل ثمنها شيئاً فشيئاً ، حتى بلغ السعر الذى
يبيع به الكأس الواحدة حد الجنون !

وأخيراً نفذ الخمير . وهنا كانت الكارثة : ظن الناس أن التاجر قد أخفاه
ليبيعه بسعر أعلى ، فتكاثروا عليه وطلبوا إليه أن يعطيهم خمراً ، ولم يجد
التاجر نفعاً أن يقسم أيماناً مغلظة بأن الخمير قد نفذت وأنه يعدهم بأن يذهب
إلى سوق الرجال البيض ، فيحضر لهم مايشاءون من ذلك الماء الأسود .
ورفض القوم الظالمون أن يصدقوا الرجل أو يطلقوا سراجه .. وأخذوا فى
تعذيبه أمام ابنته ، والرجل يئن ويتلوى ألماً . حتى إذا يسوا منه أغلقوا عليه
وابنته الكوخ .. ثم أشعلوا النار !

وانصرف القوم ، تاركين الكوخ يحترق بما فيه . ولكن رجلاً واحداً بقى
فى مكانه بجوار الكوخ الملتهب . وقد بدت عليه الحسرة والتأثر !!

كان فتى فقيراً معدماً . منعه الفقر من محاولة شراء الماء الأسود أو تذوقه ،
فبقى حافظاً رشده دون سائر القوم الذين هوى بهم الشراب إلى حمأة
الجنون ، . وكان الفتى يشهد المأساة من أولها إلى آخرها ، فتمزقت نياط قلبه .
لأعلى التاجر ، فقد كان يعلم أنه يلقى جزاء وفاقا وقصاصاً عادلاً ، ولكن على
ابنته المسكينة التىلقى بها القوم فى أتون اللهب دون أن ترتكب امرأ نكراً ،
أو فعلاً إداً .

وانتهز الفتى فرصة انصراف القوم ، فقفز من مكانه إلى داخل الكوخ ،
وخاض وسط اللهب ، وسرعان ما عثر على الفتاة وقد شبت بثيابها النيران ،
فحملها على كتفيه ، وأخذ يعدو بها حتى وصل إلى الكوخ الذى يعيش فيه مع أمه
العجوز ، فأمرها أن تضمد للفتاة جراحها ، وأن تهديء من روعها .

وشفيت الفتاة من جراحها البسيطة ، ولكن الصدمة كانت شديدة الوقع على
نفسها ، أصابتها بذهول عجيب فكان يستولى عليها فزع شديد عندما ترى أحد
الهنود الحمر ، حتى الفتى نفسه الذى أنقذ حياتها ، وكانت لاتطمئن إلى أحد
سوى المرأة العجوز .

وذات يوم ولت الفتاة فراراً ، فأصاب الفتى هم مقيم ، وانتابه شعور بالحزن
العميق .. ولكن هذا الشعور لم يطل ، فقد عثر عليها بعد بضعة أيام خارج
القرية ، وقد اتخذت من الجرف المطل على النهر مأوى لها .

ولم يظهر لها الفتى نفسه ، خشية أن نفر منه مرة أخرى .. بل استمر
يحضر لها الطعام كل ليلة ، ويتركه على مقربه من المكان الذى تأوى إليه ..
فتأخذه الفتاة فى الصباح دون أن تدري شيئاً عن مصدره ..

وأحس الفتى برغبة جامحة فى رؤية الفتاة ، فبكر فى مواعده يوماً ليراها
فى ضوء النهار .. والمحتة الفتاة ، فأصابتها نوبة من الفزع ، وأطلقت ساقها
للريح تبتغى الفرار .. وخشى الفتى ألا يستطيع العثور عليها هذه المرة ، فأخذ
يعدو خلفها ليمسك بها ويثبت لها أنه لا يريد بها شراً .

واشد فزع الفتاة حينما شعرت بالفتى يعدو خلفها ، واستمرت فى عدوها
بين المرتفعات والصخور ، حتى أشرفت على الهاوية المطللة على النهر .

وترددت الفتاة برهة ، ونظرت خلفها فوجدت أن الفتى لم يظهر بعد ،
فنزعت عن جسمها بعض الثياب ، ثم ألقت به فى النهر ، واخترقت هى خلف

إحدى الصخور . ووصل الفتى فلم يجد الفتاة ، وأطل في الهاوية فلمح ثيابها
طافية فوق الماء ، فعلم أنها قد ألقَتْ بنفسها في النهر !

ولم يكن ليتردد لحظة واحدة بل ألقى بنفسه في الماء لينقذ الفتاة ! وصرخت
الفتاة صرخة مدوية .. إذ لم يخطر على بالها قط أنها ستكون سبباً في موت
الرجل الذي أنقذ حياتها ، وأسرعت إلى حافة الهاوية ، تحاول إنقاذ الفتى ،
وتطلب إليه الانتظار حتى تحضر حبلًا تدلى إليه به ، ليستطيع تسلق الجرف .

وسرعان ما عادت الفتاة بحبل متين مرفقة من كوخ قريب ، فربطت طرفه
بإحدى الصخور ، ثم ألقَتْ في النهر بطرفه الآخر ، وانتظرت أن يمسك به
ليصعد .

ولكن الفتى لم يأبه للحبل ، بل قال لها إنه لن يصعد إلا إذا وعدته ألا تفر
مرة أخرى .. وأجابت الفتاة أنه لا حاجة به إلى هذا الوعد ، فإنها لن تفارقه
حتى لو رغب هو في فراقها !

وسرعان ما تسلق الفتى الجرف .. ودهشت الأم عندما عاد إليها الفتى مبلل
الثياب ، وقد اصطحب معه الفتاة الهاربة وهي شبه عارية .. وتزوج الاثنان ،
ولم تعد الفتاة بعد ذلك تخشى الهنود الحمر !

فنان

وجلس الرجل حزينا مكتئبا ، وقد بدت أمامه
الحياة حالكة السواد ، لا يضيئها إلا قيس خافت
يريه بعض الهداية والرشاد ، ذلك القيس هو تلك
الفتاة الراقدة في ركن الغرفة .

أطل الرجل من نافذة حجرتة في أعلى الدار ، فاذا بالمدينة يلفها ظلام دامس
حالك السواد ، وإذا بالرياح تهب شديدة عاتية ، عاصفة مزمجرة .

وأحس الرجل شيئاً من القناعة والرضى ، وشعر ببعض السلوى والعزاء
عندما أبصر بذلك المرتجف المقرور ، الذى أضر به البرد ، وآذاه المطر ،
دون أن يجد لنفسه مأوى يدفع عنه قسوة الطبيعة ، إلا تلك الجدار الواهى
المتداعى .

ونظر الرجل إلى السماء ، فاذا بالسحب تتسابق أمام الريح . كأن نقرأ من
الجن قد ألهب بالسياط ظهورها ، فاندفعت هاربة شاردة . ومن خلال السحب
كانت النجوم تطل بين آونة وأخرى مرتعدة مرتجفة ، كأنها بارقات الأمل
الكانب في ظلمات حياته المظلمة !

وعوى كلب .. فأرسل عواؤه صوتاً خافتاً موجعاً ، وبعث في الفضاء
الأسود أنيناً حزيناً ، حتى خيل للرجل أنه والكلب في الهم سواء ، وأنهما
زميلان في التعاسة والشقاء !

وسرت في جسد الرجل رعدة المقرور ، فمد يده وأغلق النافذة ، وما كان
به من حاجة إلى إغلاقها ، فقد كانت الريح لاتعترف بتلك الوريقات التي لصقها
الرجل على إطار النافذة ، بدل زجاجها المهشم المحطم .

ودار ببصره في أنحاء الغرفة التي تكست فيها لوحاته ، وقد علاها
التراب ، ونسج عليها العنكبوت خيوطه فبدت خرية موحشة .. وألقى عليها
نظرة عابسة ، مهددة متوعدة ، ثم رفسها بقدمه رفسة جعلتها تهوى على
الأرض ، مرسله نعيياً مؤلماً كأنه نعيب اليوم والغريان .. قلم يزدده الصوت
إلا تكالا ، فانقبضت نفسه ، واضطربت أعصابه ، وأيقظ الضجيج مخلوقاً كان
يرقد في أحد اركان الغرفة المظلمة ، فتقلب قليلا في أعطيته البالية ، ثم عاد
ثانية إلى سباته !

ولأول مرة بدت في عيني الرجل نظرات العطف والحنان ، فاضطجع على
مقعد ، وأغمض عينيه ، وراح يسبح في عالم من الأحلام !

تذكر الرجل زمناً كان يريه الكون مشرقاً يغمره النور والجمال .. زمناً كان
كل ما فيه داني القطوف ، عذب المورد .. كانت نفسه وقتئذ تزخر بالأمانى ،
وقلبه يفيض بالأمال والأحلام .

منذ سنوات مضت ، كان يخيل إليه أن الدنيا كلها بين يديه .. كان يحلم بأن
يكون فناناً من أولئك الفنانين الذين طبقت الآفاق شهرتهم ، وخلصهم التاريخ
فوضعهم في مصاف الرسل والأنبياء ، وبدأ العمل وهو أشد مايكون ثقة
بنفسه ، وإيماناً بقدرته .

وقابلها لأول مرة ، موردة الوجنتين ، ساجية الطرف ، كل ما فيها ينطق
بالفتنة والجمال ، فوجد فيها ضالته المنشودة ، ونصفه المفقود ، وانتابه شعور
لذيذ يغمره من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، وأمسك بيدها فمرى في جسده
تيار خفى عجيب !

ومكث الساعات الطويلة يحدق في شفتيها حين تتكلم ، وكأنه لم ير شفتين
غيرهما من قبل . ولم يكن ليستطيع أن يقنع نفسه بأنهما من دم ولحم ، فقد
خيل إليه أن صانعهما لا بد وأن يكون قد صاغهما من شهد وورد ، أو - على
الأقل - من مادة أخرى غير تلك المادة التي صنعت منها بقية الشفاء !

ورأت فيه الفتاة رجلها الأمتل ، فاتحدت القلوب ، واثنتفت الأفتدة ، وانغمسا
في لجة من الهوى أنستهما الدنيا وما فيها !

ووجد الرجل في فتاته الساحرة خير نموذج لصوره ، وأحس أن المجد قد
فتح له بابه على مصراعيه ، فشم عن ساعده ، وبدأ في الرسم .

وأخذ الرجل يواصل أثناء الليل بأطراف النهار لا يكل ولا يتعب وفتاته جالسه
أمامه لا يعتريها العلل ، أو يصيبها السأم !

ومرت الأيام تنرى ، والرجل يرسم ، حتى تكندت لوحاته الرائعة بعضها
فوق البعض .

وشعر الرجل فجأة بأن الطريق أمامه مظلمة طويلة ، وأنه قد بدأ يتخبط
دياجير ظلمتها ، فقد رأى أنه يرسم لنفسه ، وأن أحداً لا يحس له وجوداً ، وأن
لوحاته التي أضنى فيها نفسه ، وأعتصر فيها رأسه ، قد بدأت تتكند في ركن
الغرفة كأنها كومة من عظام نخرة وأطلال خربة ، توحى بالهزيمة واليأس !

أوشكت نقود الرجل أن تنفذ ، وأحس أنه في حاجة إلى أن يعمل شيئاً يكسب منه قوته ، ويقيم به أوده وأود من معه .

وكان الرجل كغيره من الفنانين ، قليل الخبرة بشئون الحياة وطرق الكسب فتعثر في طريقه ، وصدمته سخافات الناس ولؤمهم . وبدأ الرجل ينوق الفقر والحرمان ، وارتطم بحقيقة الحياة ، وتبددت أحلامه الحلوة ، وأمانيه العذبة . وأخذ ينكمش في نفسه فانتقل بفتاته وصوره إلى غرفة حقيرة في سطح أحد المنازل ، بعد أن باع كل ما يملك لسد رمقه .

وجلس الرجل جزيئاً مكتئباً ، وقد بدت أمامه الحياة حالكة السواد ، لا يضيئها إلا قبس خافت يريه بعض الهداية والرشاد ، ذلك القبس هو تلك الفتاة الراقدة في ركن الغرفة !

وأحس الرجل أنه يكاد يختنق ، وشعر بأنه في حاجة إلى الخروج ، فقام على أطراف أصابعه حتى لا يوقظ فتاته ، وتمسك خارج الغرفة .

وسار الرجل في الطريق وقد خلا من السابلة . وأحس الريح الباردة تفتح وجهه . وظل يهيم على وجهه في الطرقات شارد اللب مشتت الفكر !

وعلى حين غرة أحس خلفه ضجيجاً ، ثم شعر بصدمة ألقته على الأرض ، فقد على أثرها وعيه ، ولم يعد يشعر بشيء مما حوله !

وحينما أفاق الرجل ، علم أن مركبة الحاكم قد صدمته في ظلعة الليل ، وهي عائدة بالحاكم إلى قصره ، وإن القوم ضمّدوا جراحه وأعادوه إلى داره ، أو على الأصح إلى غرفته !

وفتح الرجل عينيه ، على فتاة تحنو عليه ، وقد بدا في عينيها حزن عميق وسألته هامسة في رفق .

- لم خرجت في هذه الليلة الليلية ؟!

- كنت أشعر بضيق ، وخيل إلى أن الخروج قد يزيل بعضه .

ولم الضيق يا حبيبي مادمننا معا ؟ إن الحياة لاتستحق العناء . وأنت رجل فنان ، ولا بد أن يسطع نورك على الناس في يوم من الأيام .. فلم الحزن ؟

وبعد بضعة أيام طرق الباب طارق كان هو الحاكم نفسه ، أقبل ليعود الرجل . واسترعى جمال الفتاة أنظار الحاكم ، فلم يفعل خلال زيارته سوى التحديق فيها بنظراته النهممة الجائعة .. وعند انصرافه حاول أن يعطى الرجل مبلغاً من المال ، ولكن الرجل رده إليه قائلاً : إنه ليس في حاجة إليه .

وشفى الفنان من جراحه واسترد قواه وبدأت الفتاة تنفخ فيه الروح ، وتبعث فيه الأمل من جديد .. فنفض عنه غبار اليأس ، وعاد إلى ريشته مرة أخرى .. وعادت الفتاة إلى الجلوس أمامه الساعات الطويلة .. دون أن يصيبها كل أو ملل .

وكانت الصورة الجديدة هي أروع ما رسم الرجل ، وفي ذات يوم ، وقد أوشك أن يفرغ منها ، وجلست أمامه الفتاة عارية ، سمع الرجل طرفاً على الباب ، فأمر الطارق بالانتظار ، حتى يعطى الفتاة فرصة لارتداء ملابسها ولكن الطارق لم ينتظر ، بل اقتحم الباب ، واندفع داخل الحجرة !

وكان الطارق ، مرة أخرى ، هو الحاكم نفسه . وكان يبدو أنه ثمل بعض الشيء ، وحنق الرجل من هذا التهجم ، وصعد النم إلى رأسه فأمره بالخروج من الحجرة في الحال !!

ولكن الحاكم لم يخرج . بل نظر إلى الصورة ، ثم إلى الفتاة العارية ، وقال ساخراً :

- لم يكن بك من حاجة إلى كل هذا العناء ، إنى أريد أن أبتاع الأصل لا الصورة !!

وأظلمت الدنيا في وجه الرجل ، فلم يرد عليه بكلمة واحدة . بل انتفض في مكانه ، ولكمه لكمة ألقته خارج الغرفة ، وجعلته يتدحرج على السلم كأنه كرة من المطاط !

وقام الحاكم يتحسس أعضائه وينفض الغبار عن ثيابه ، وقد غلى مرجل الغضب في رأسه . وأسرع في العودة إلى قصره .

وعلم الرجل أن الحاكم لا بد سيقبض منه ، وأنه بعد برهة سيزج به في غياهب السجن ، فقرر أن ينجو بنفسه .

ومسك بالصورة الأخيرة ، فقفز بها فوق بقية الصور في حلق وغيظ ، ثم غادر الغرفة وفتاته ، تاركاً كل ما يملكه من صور وأدوات للرسم ، غير آسف ولا تادم .

واختفى الرجل ، وبحث عنه رجال الحاكم دون جدوى ، ووضعت مكافأة لمن يستطيع العثور عليه !

وفي ذات يوم سطا رجل باتس على غرفة الفنان المهجورة ، وعبث بما فيها ، فلم يجد ما يستحق السرقة ، وساءه أن يعود بخفي حنين فحمل الصور وأدوات الرسم وانطلق هارباً من الدار !

ونهب الرجل يعرضها في السوق ، فابتاعها أحد التجار بثمن بخس ، وأخذ يعرضها في متجره .

ولعب القدر الساخر لعبته ، فإذا بالصورة تنتقل من يد إلى يد ومن متجر

إلى متجر . وفي كل انتقال يرتفع ثمنها ، وتزداد قيمتها ، حتى أصبحت في
النهاية مثار العجب ، وموضع الدهشة والتقدير .

وزاد القدر في تهكمه ، وأمعن في سخريته ، فإذا بالقوم يعرضون على
الحاكم أروع الصور وأبدعها ، وهي الصورة الأخيرة التي رسمها الفنان !

ونظر الحاكم إلى الصورة ، فتذكر فعلته الشائنة ، وعلم بمبلغ إهانتة
للفنان . وظلمه له ، وعجب كيف لم تدهشه الصورة ، كما أدهشته الآن ، وهي
قطعة رائعة من الفن والجمال !

وأعلن الحاكم أنه قد عفا عن الفنان ، وأمر بالقبض على السارق الذي سطا
على صورته .

وعاد الفنان إلى الظهور فوجد أن صيته قد ذاع ، ونجمه قد تألق ، ودعاه
الحاكم إلى قصره حيث أكرم وفادته ، وأمر بأن تهيأ له دار يتابع فيها عمله ،
وأمر أن يعرض عما سرق من غرفته ، وأن يعطى ثمن كل ما سلب منه !

وأمر بأن يؤتى بالسارق ، وترك للفنان أن يتخير توقيع الجزاء ونظر الرجل
إلى السارق فألفاه يرتجف ، فتقدم منه وعانقه في لهفة وشوق ، ثم مد يده إليه ،
وأعطاه كل ما نقده الحاكم من نقود ، وقال في صوت مليء بالشكر ، وعينين
مغرورتين بالدموع :

- لقد أعطيتني الشهرة ، وأندرت لي ظلمة المستقبل ، وأصبح الطريق
أمامي سهلاً معبداً ، فخذ هذا أجراً لك ، وسأعرف بعد ذلك كيف أحصل على
أضعاف أضعافه .

وذهل الحاكم ، وخيل إليه أن بالفنان خبلاً ، ولكنه لم يعترض على ما فعل !

وخرج الرجل يقص على امرأته ما حدث ، فاحتضنته هامسة :

- لقد كنت أشعر بأن المجد آت لا ريب فيه .

ولم يعد الفنان يشعر بعد ذلك بشظف العيش ، وبدأ الكون أمامه مرة أخرى مشرقاً يغمره النور والجمال .. وتحققت كل ما في نفسه من الأمنى والأحلام !

التصاريح

سلاه عن ملأه بالقوة والأمل ، وعن أضاء له
سبيل الحياة بعد ظلمة حالكة ، سلاه عن سلطان
الحب ، وهل ينتصر في هذه الدنيا سواء ؟

جلس الصاحبان حول منضدة في أحد المنتديات ، وقد انهمكا في الحديث
عن المرأة ومدى تأثير الرجل بها .

قال أحدهما : إنه مامن رجل لاتغريه المرأة الفاتنة ، فالرجل يستطيع أن
يسيطر على نفسه في كل ناحية من نواحي الحياة ، ولكنه يعجز عن ذلك فيما
يختص بالمرأة ، ومهما بلغ الرجل من رجاحة العقل وقوة الإرادة ، فهو أمام
المرأة الجميلة ، طفل ضعيف تحركه كيفما شاءت ، وعظماء الرجال الذين
قبضوا بأيديهم على زمام العالم كان زمامهم في يد امرأة ، ومامن عمل يعمله
الرجل في هذه الدنيا إلا ويبغي به إرضاء امرأة .

فأجاب الآخر : إن هذا حديث الضعاف من الرجال ، فهناك أنواع من
الرجال ينظرون إلى المرأة كشيء تافه أو كلعبة مسلية .

وفى تلك اللحظة أقبلت فتاة ، فإذا بهما يصمتان ، وإذا كل من حولهما من الرجال يتركون مافى أيديهم ويشربون بأعناقهم إليها .. وقال الأول معلقا على ما بدا من اهتمام الرجال بالفتاة :

- أرأيت كيف تؤثر المرأة فى الرجل ؟ ، إن كل شىء فى حياة الرجل هو الحب ، ومنبع الحب هو المرأة .

وابتسم صاحبه ، وقال وهو يشير إلى رجل كان الوحيد الذى لم يحرك ساكناً عندما أقبلت الفتاة :

- هذا رجل من النوع الذى حدثتك عنه ، النوع القوي الذى لا يأبه للنساء .

ونظر إلى الرجل فإذا بالفتاة قد اتجهت إليه وجلست بالقرب منه وهو جامد فى مكانه لا يحرك ساكناً ، فقال لصاحبه :

- قد يكون نوعا شاذاً من الرجال ، ولكنى أعرف أسطورة أغريقية ، تثبت أنه حتى هذا النوع مصيره فى النهاية أن يتمرغ تحت أقدام المرأة .

وبدا يقص على صاحبه الأسطورة ، قال :

- زعموا أنه كانت توجد بقعة نائية خالية ، لا يكاد يبدو فيها أثر للحياة ، ولا يكاد يسمع فيها سوى شئو بلبل أو تغريد عصفور .

هبّت على تلك البقعة ريح خفيفة أخذت تعبث بأوراق الشجر ، ثم اشتدت الريح رويداً وحملت فى طياتها همساً مازال يشتد حتى أضحي جدلاً صاخباً ، وحواراً عنيفاً بين ثلاث قوى تتنازع الحكم وتزعم لنفسها السلطان .

هتفت إحداها بصوت حلو رنان :

- أى سلطان فى هذه الحياة لغيرى ، من الذى أذل الأعناق واسترق النفوس
سوى سلطان المال ، من الذى ملك على الإنسان عقله وسلبه رشده ، من الذى
تحكم فيه فحركه كما يشاء ، من الذى عبده الإنسان من دون الله ؟

وأجاب صوت ساحر نفاذ يصل إلى أعماق النفوس :

- أنا الذى ملكت على الإنسان نفسه ، أنا الذى اضاع الإنسان عمره فى
البحث عنه ، سل أى أمرىء عن الشهرة ، يجيبك أنها أمتع شىء فى هذه
الحياة ، سل أى أمرىء عن اللذة التى يشعر بها عندما يشير إليه الناس
ويهمسون : « هذا هو الرجل العظيم » ، وخيره بين شهرته وبين أن تهبه مال
قارون ، تجده يضرب بسلطان المال عرض الحائط ، ويقبض على الشهرة
بالتواجد .

- يا للغباء ! إن صاحب المال لايعجز عن ابتياع الشهرة .

- قد يستطيع ابتياع الشهرة الكاذبة الزائفة ، أما الشهرة الحقة ، فهى هبة
أغدقها على من يروقى تمييزهم عن غيرهم من الناس .

وهنا قال صوت ثالث ، يفيض بالرفقة والعنوية كأنه لحن يطرب النفوس
ويهز القلوب :

- يا للحمق والغرور ! نتحدثان عن سلطانكما ، وهو ذرة فى سلطانى ، ألم
تسمعا الإنسان يقول : «الحياة الحب والحب الحياة » أسمعتماه مرة يقول إن
الحياة هى المال أو الحياة هى الشهرة ؟ سلا أى أمرىء عن غير الكون فى
عينيه فجعله ناضراً مزدهراً ، سلاه عن ملأه بالقوة والأمل ، وعن أضاء
له سبيل الحياة بعد ظلمة حالكة ، سلاه عن سلطان الحب ، وهل ينتصر فى
هذه الدنيا سواه ؟

واحتدمت المناقشة واشتد الجدل ، واختلطت الأصوات حتى لم يعد المرء يميز فيها سوى خليط من الصيحات والصرخات ، وأخيراً سمع صوت سلطان الحب وهو يهتف :

- إنى أتحدكما ، وأقبل النزال ، ليس فقط مع أحكما ، بل مع كليكما ، لتتحدنا سوياً ولتأتلفا معاً ، فنكونا حليفين ، وأنا زعيم بأن أبرهن لكما على أن سلطانكما الذى تدعيانه هباء فى هباء .

وتحالف سلطان المال وسلطان الشهرة ، وقبلا ذلك التحدى من سلطان الحب ، واتفق الفريقان على أن يحشد كل منهما قواه ويشحذ أسلحته ، على أن يكون اللقاء فى ميدان للقتال تم الاتفاق عليه .

★ ★ ★

نحن الآن فى ميدان القتال ، وهو ليس بنجاد ولاوهاد . ولاحقول ولاصحراء ، بل هو مخلوق آدمى اختارته القوى الثلاث ليكون مظهراً لقدرتها ومقياساً لسلطانها ، والرابع من الفريقين من استطاع السيطرة عليه والتحكم فيه وطرد الفريق الآخر من قرارة نفسه فاشلاً مخذولاً .

كان ميدان القتال فتى فى مقتبل العمر ، ملئ النفس بالأمل . ولكن تصاريف الحياة كدته وأوهنت قواه ، وتركته حائراً مغموراً .

استلقى الفتى على فراشه خاوى البطن والذهن والفؤاد ، ونظر من خلال النافذة إلى النجوم التى تلمع فى ظلمة السماء ، وسأل نفسه عما يأمل فى هذه الحياة .. وأى خير يرجوه منها ، إذا استمر هذا الجوع ، جوع القلب وجوع النفس ! .

لقد كان أشد مايؤلمه أن يرى نفسه مهملاً فى ميدان الحب ، فما من فتاة

أقبلت عليه مرة ، وما من فتاة أنعمت عليه بابتسامة ، فكلهن ينفرون منه
ويتجنبنه ويعاملنه بالغلظة والقساوة .

ترى هل ذلك لعجزه عن استمالتهن ، أم إن السبب قلة ماله ، أو قلة
وسامته ؟



وعصف اليأس بنفس الفتى ، وقاض به الشجن ، فقد كان فضله في اجتذاب
الجنس الآخر يوهن من نفسه ، ويحط من قوته .

وخيل إليه فجأة أن النافذة تحمل إليه صوتاً يسرى مع النسيم ، فأنصت ،
فإذا الصوت يهتف به :

- أيها التافه الأحمق ، ماذا يخيفك منهن وماذا يفزعك ، وهن أحقر من أن
يجلبن الوجيمة والأثم ! اخرجهم من قلبك ، فمكانهن تحت القدم لداخل القلب ،
أقبل على نفسك ، فهي أحق منهن بالأقبال إياك وما يسمونه الحب ، فهو طريق
زائف وسراب خلب ، لاتجر وراء أوهام كاذبة وأحلام تمحوها الليقظة ، سر
في الحياة بلا قلب ، فما اتفق القلب والعقل قط ، واقتل ما في نفسك من شعور
وإحساس فإنها سوس ينخر عظامك ، وجراثيم تفتك بجسدك ، ولو برأت منها
لاستطعت أن تمسك الدنيا كلها بين يديك ، ولأصبحت خير الرجال في هذه
الأرض .



ومنذ ذلك اليوم والفتى قد تغير وتبدل ، وغاضت من نفسه الرقة ونضب
الشعور ، وأضحى يقابل جفاء النساء بجفاء مثله أو أشد ، وأغمض عينيه عن
كل ما فيهن من إغراء وفتنة ..

وبدا يسير في الحياة وهو مغلق القلب جامد المس .. وأخذت تلك القوة الكامنة في قلبه تتسرب إلى رأسه .. وتحول جهاده في الحب إلى جهاد في سبيل المال والشهرة .

لقد خيل إليه أن به نقصاً يصرف ربات الجمال عنه . فصمم على أن يكون شيئاً في هذه الحياة .. أو لا يكون قط .

★ ★ ★

ودمّش الناس لما أصاب الفتى .. فقد بدأ الحظ يتسم له .. وبدا لهم منه نبوغ وعبقريّة .. ومرت الأيام فإذا الفتى المغمور قد أضحي نجماً ساطعاً .. وإذا به صاحب منصب خطير ومال وفير .

واشتهر الفتى بشدة كرهه للنساء ونفوره منهن .. فقد كان يحذرهن كما يحذر السليم الأجرّب .. ويتجنبهن كما يتجنب المرء أفعى ذات سم زعاف .

★ ★ ★

وهبت الريح في البقعة النائية .. فحملت صوت سلطاني المال والشهرة وفيه نشوة الانتصار ، وقال أولهما للآخر :

- يا لسلطان الحب الأحمق المغرور ! أية هزيمة منكرة تلك التي حاقت به .. لقد انهارت سطوته وزال ملكه .. وعرف الإنسان أنه مخادع محتال .. واكتشف أن نعيمه زيف وبريقه خداع ..

وفي تلك اللحظة كان الفتى يقف وعلى وجهه عبوس وفي نظراته جد وقسوة .. وقد ركعت أمامه فتاة بالية الثياب رثة المنظر ، بدت في وجهها صفرة مرض وبؤس وفاقة وقد أخذ جسدها يهتز من فرط البكاء وهي تصيح :

- إنى لم أجرم ولم أسرق .. إنى أريد أن أعيش .. أريد ما أسد به رمقى .
ولم يلن وجه الفتى ولم تبد عليه بادرة شفقة أو رحمة ، بل أشار بيده إلى
بعض الخدم فأبعدوها عن أقدامه .. وزج بها فى السجن فقد كانت سارقة
أثيمة .

وخلا الفتى إلى نفسه فأحس بخلجة فى قلبه .. قد بدأ يتحرك بعد طول
سكون .. كان فظاً قاسياً على الفتاة المسكينة فلم يرحم ضعفها وبؤسها .. لقد
صمم على أن يعرض عن النساء ويقسو عليهن : ولكن هذه ليست امرأة ..
إنها هيكل بانس محطم .. دفعه بقية أمل فى الحياة إلى أن يسرق ليسد رمقه ..
لشد ما أخطأ فيما فعل لقد كان جامد الحس والقلب والعقل !!

ولم ينم الفتى ليلته .. واشتد به وخز الضمير .. وذهب عنه ذلك الجحود
والقسوة .. وعاد إليه قديم رفته .

وكان أول ما فعله أنه راح يزور الفتاة فى سجنها خفية .. ليخفف من لوعتها
ويرفقه عنها وتكررت زيارته لها .. إذ تبين فيها نفساً رقيقة .. شديدة الصفاء ..
وتبين أكثر من ذلك أن بالفتاة فتنة أخفتها الفاقة .. وسحراً حجبته البؤس
المضنى .

ومرت الأيام فإذا بالفتى الحذر قد كلف بالفتاة وأحبها .

واستمر بعد ذلك يزورها فى بيت أبقاها فيه تحت جناح الظلام .. حتى مل
أخيراً تلك التستر .. وعزم على أن يرفعها حيث هو .. وقرر الزواج منها ..
ضارباً بأقوال الناس عرض الحائط .

وأخذت المرأة بمظاهر النعمة والرفاهة ، وأغراها الجاه والمال .. فإذا بها
تصنع بالفتى ما صنعت الأفعى بالرجل الذى حملها من البرد القاتل فأدفاها فى

داره .. فما أن أحسست بالدفع وانتعشت حتى كان الرجل أول من لدغته ..
أجل لقد أحسست المرأة بالدفع فكشرت عن أنيابها للفتى .. تبعثر ماله ..
وتلوث سمعته .. وهو غارق في حبها .

وبدأت الدنيا تدبر عنه .. فنفذ ماله .. وقل خطره وساءت سمعته .. وأخذ
يعود كما كان معموراً منسياً وهو قانع من كل هذا بحبه وهواه .. حتى كان
ذات يوم أنزلت به ضربتها الأخيرة .

وكانت الصدمة قاسية أصيب منها بالذهول .. فهام على وجهه بعد أن فقد
ماله وشهرته وحبه .. وانتهى به الأمر إلى أن جاع فسرق ليسد رمقه - كما
فعلت الفتاة - وألقى به في السجن .

وصهر السجن نفس الفتى فبدأ يعود إلى وعيه .. وأدرك أن ضعفه هو الذي
ألقى به إلى التهلكة .. فعزم على أن يعود إلى سابق قسوته وجموده .. وأن
يحاول الخوض في معركة الحياة ، فاعله بالغ مرة أخرى ماكان قد بلغ .

وأطلق سراحه في صباح يوم مشرق وخرج إلى الطريق يرسم في رأسه
خططه المقبلة .. ولكنه رأى ما أذهله وقلب تدابير رأسه على عقب .

رأى المرأة تنتظره وقد أطرقت برأسها في هدوء وصمت ورفعت إليه
عينين تفيض منهما الدموع .. لقد عادت إليه تطلب المغفرة .

وأحس الفتى أنه قد أضحى مسلوب الإرادة .. وتطايير من رأسه كل
مارسسه من خطط .. وخانه ذلك الجمود وتلك القسوة .. وانقاد لها كأنه طفل
غريب .

وقادته المرأة إلى ذلك البيت الذي كان يزورها فيه خلصة . جلسا حيث تعودا
أن يرتشقا كئوس الحب حلوة مترعة .. ونظرت إليه في سكون تستغفره ..

فلم يسعه إلا أن يغفر .. ومد يده فتخلل شعرها بأصابعه .. ثم أمسك بوجهها الصغير بين كفيه ووضع شفثيه ببطء على شفثيها .. واختلطت أنفاسها بأنفاسه .. وراحا فى نشوة ..

وهبت على البقعة النائية .. موجة من الريح هائجة عانية .. وسمع من خلالها صوت يزجر مغضباً :

- ويل للإنسان الأحمق المأفون .. لقد أطاح بسطواني وسطانك .. ولم يبق على مال ولم يبق على شهرة ..
وأجابه صوت ناعم رقيق :

- لن أجيبك بشيء .. بل سأدع الفتى نفسه يجيبك .
وهمس الفتى فى أذن الفتاة :

لاأريد فى هذه الدنيا مالا .. ولاشهرة .. أريدك أنت . أريد الحب .. فكل شيء ماخلا الحب عبث !

وانتهى الرجل من قصته ونظر إلى صاحبه يسمع رأيه . ولكنه أبصر بفتاة أخرى قد أقبلت من الباب ، فاشترأبت الأعناق كما تعودت أن تشرئب كلما دخلت فتاة فاتنة .. ولكن فى هذه المرة كان أشد الرجال تطلعاً .. ذلك الرجل الذى لم يحرك ساكناً فى المرة الأولى .

ونظر إليه صاحبه ضاحكاً ثم قال :

- لأظن بالرجل شذوذاً أو غرابة .. فأغلب ظنى أن الأولى كانت زوجته !

كارابو

«إن الحرارة والثقة اللتين نقصن بهما قصتها ،
تؤكدان للمرء أنها لا يمكن أن تكون كاذبة ، وأن
مظهرها الذليل وحركاتها الارستقراطية التي تحيا
بها ، كل هذا يقع تماما بأنها لا يمكن أن تكون
سوى أميرة» .

أرخص الليل سنوله على القرية الهادئة .. فسادها السكون العميق ، وخيم
عليها الظلام الدامس ، وأفقرت طرقاتها من كل حركة ، وإذا الدور التي كانت
تصخب بضجيج الحياة ، قد غمرها الصمت الرهيب ولم يبق من هذه الحياة
الصاخبة المضطربة غير أصوات خافتة تتصاعد بين آونة وأخرى من حانة
القرية ..

كان ذلك في ٣ أبريل سنة ١٨١٧ ، وفي إحدى قرى جلوسسترشير على
بعد عشرة أميال من باث .. حينما كان شبح هذه المرأة الصغيرة .. وسط حلقة
ذلك الليل الصامت الرهيب .. يطرق أحد أبواب هذه الدور التي غمرها السكون
حتى بدت وكأنها قد خلت من قاطنيتها .

وسمع وقع أقدام على السلام الخشبية وهي تهبط نحو الباب ، حتى إذا فتح قليلا ، وبدا منه بصيص من ضوء .. صاح صوت من الداخل :

- من هناك ؟

وردت طارقة الليل .. مجيبة مفسرة .. ولكن السائل لم يستطع أن يفهم حرفاً واحداً مما قالته .. ففتح الباب على مصراعيه وخرج واقفاً على عتبة ، وبدأ يستفسر منها عما تطلب في هذه الساعة من الليل .

وتحدثت الغريبة مرة أخرى . فإذا بها تتحدث بلغة أجنبية غير مفهومة .. ولكن كان يفهم من حركات يديها أنها تحاول أن توضح أنها تطلب مأوى في هذا الليل البهيم .

وأيقظ حديثها الغريب .. ولغتها غير المفهومة ، أهل الدار جميعا ، فاندفعوا نحو السلم ، يستجلون الأمر .

ولم يكن غريبا على القوم أن تطرق دورهم في خلال الليل .. لطلب مأوى أو طعام .. أو لسؤال عن الطريق الموصل إلى جهة ما ، ولكن الذي أثار دهشتهم هو لغة الفتاة . التي لم يستطيعوا أن يميزوا منها حرفا واحداً .. كذلك ملابسها العجيبة التي لم تقع أبصارهم قط على مثلها .

وحاول بعضهم التفاهم معها ببعض اللغات المعروفة كالإنجليزية أو الأسبانية ، ولكن لم يبد عليها أنها سمعت شيئا عنها من قبل .

ولم يجد القوم أفضل من أن يعرضوا هذه المعضلة على المستر وورال .. وهو أكبر من في القرية منا وأكثرهم حنكة وتجربة .. والذي أحبه القرويون لطيبة قلبه ، وشدة عطفه عليهم ، وبره بهم .

وقادوا الفتاة الى بيته الكبير ، وأدخلوها عليه ، وكان لا يزال ساهراً يتماسر مع بعض ضيوفه .

وبالرغم من أنه لم يستطع التفاهم مع الفتاة فإنه قد شعر بالاطمئنان إليها والميل إلى مساعدتها .

والواقع أن القوم كانوا يشعرون جميعا بمثل شعوره ، فقد كانت الفتاة فى مبة الصبا . وكانت رائعة الجمال .

ورأتها المسز وورال العجوز ، فألقت عليها نظرة فاحصة من قمة رأسها إلى أخصص قدميها ، ويعد أن اطمأنت إليها هى الأخرى بدأت تشترك معه فى اجتلاء السر ، وحل اللغز .

وأخذ الزوجان العجوزان ، يستمعان لسيل منهمر من كلمات الفتاة ، وأرها سمعيهما لعلهما يعثران ، من بين الكلمات العجيبة المتدفقة من فيها ، على كلمة تحل العقدة ، أو تكتشف عن جنس الفتاة وأصلها ، ولكن حينما اخلدت الفتاة إلى الصمت ، بعد أن أتمت حديثها ، نظر العجوزان كل إلى الآخر وهز رأسه ، وكان الفتاة لم تنبس ببنت شفة !

ولم يكن مع الفتاة أى أوراق يستدل منها على شخصيتها ، وكانت ترتدى ثوبا أسود فضفاضاً يصل إلى قدميها الجميلتين اللتين وضعتهما فى حذاء غريب المنظر ، وأن كان يبدو أنه شرقى الطراز .

ولما يئس المسز وورال وزوجته من الوصول إلى اكتشاف أمرها فى هذه الليلة ، أمرا بعض الخدم باصطحابها الى فندق القرية ، كما أمراهم بأن تفرد لها غرفة خاصة ، وأن يجهز لها عشاء طيب .

وحينما قدم إليها الطعام فى الفندق ، تناولته بطريقة تشعر بتمديتها ، ولكن

العجب العجاب حدث عندما دخلت الفتاة حجرة النوم ، ورأت الفراش الوثير الذى جهزوه لنومها ..

نظرت إليه دهشة ، ثم هزت رأسها وتمتمت بضع كلمات بلغتها العجيبة ، ثم أشارت إلى الأرض وكأنها تقول :

- لا .. لا .. ماذا تقصدون بكل هذا ؟ ان أنام إلا على الأرض ، لأنى لم أعود غيرها .

وحاولت صاحبة الفندق أن تفهم الفتاة أنه قد يكون لديها من الظروف ماعودها النوم على الأرض ، ولكن ليس هناك أشد حمقاً من أن يكون لديها مثل هذا الفراش الدافىء الوثير ، ثم تفضل بعد ذلك أن تفتش أرض الغرفة .

وحاولت أن تقتعها عملياً بأن النوم فى الفراش ليس بالأمر المستعصى ، ولا بالأمر المخيف ، وأن الفراش لن يهوى بها إلى جوف الأرض ، ولا يصاعد بها فوق السحب . فأمرت ابنتها بأن ترتدى ثياب النوم ، وبأن تنام أمام الفتاة فى الفراش .

وبعد هذا البيان العملى ، اطمأنت الضيفة الشاذة ، ولم تعترض بعد ذلك على النوم فى الفراش .

وبمساعدة السيدة ، خلعت عنها ثيابها العجيبة ، وارتدت ثياب النوم التى أحضرت لها ، ثم ركعت فى وسط الغرفة لتتلو صلواتها قبل النوم . وكانت هذه الصلوات عبارة عن سلسلة من الركعات والسجدات على أرض الغرفة ، وسلسلة من رفع الأيادى إلى سقفاها . ولما انتهت من الصلاة ذهبت إلى فراشها هائنة ناعمة الببال .

وفى الصباح بذلت عدة محاولات أخرى للتفاهم معها ، فأحضرت لها عدة

صور تمثل مناظر شرقية من بلدان الشرق ، من المعابد والمساجد ، والمقاهي والملاهي ، والحصون والقلاع ، والسفن ذات الأشرعة ، وعرضت كلها أمامها واحدة واحدة ، عليها تستطيع تمييز بعض المناظر التي قد يستدل منها على بلدتها . أو قد تلقى بعض الضوء على جنسها أو دنيها .

ولكن ذلك لم يكن ليجدى شيئاً ، فكل ما فعلته الفتاة العجيبة أنها أبدت بعض الإعجاب بالصور الصينية ، وصور المراكب الشراعية .

وقرر مسر وورال أن ينزلها في بيته ، حتى تكون تحت رقابة زوجته ، عليها تستطيع أن تكشف عن سرها ، وعندما استقرت الفتاة في المنزل ، حاولت مسر وورال أن تأخذها باللين ، فجلست وإياها على انفراد ، وأخذت تفهمها أنها وزوجها سيبدلان لها كل المساعدة ، ويوفران لها الملابس والمأكل على أن يهيئا لها عملاً ترتزق منه ، إذا هي عرفت بما بشخصيتها ، وهددتها كذلك بأنهما سيعتبرانها شريفة محتالة إذا هي استمرت على أسلوبها هذا من ادعاء البلاهة والشذوذ وسيكون مصيرها المحتم أن تودع أعماق السجون .

وفي خلال هذا الحديث الطويل كانت مسر وورال ترقب وجه الفتاة بإمعان وتدقيق ، وكانت تدرس التعبيرات التي ترتسم على تقاطيعها ، عليها تستطيع أن تنتزع سر الفتاة ، من صدرها ، ولكنها لم تتمكن بكل هذا الإغراء والترغيب ، والإنذار والتحذير ، من أن تظفر من الفتاة إلا بابتسامة بريئة ساحرة .

ولم يكن هناك شك في أن الفتاة لم تفهم من حديث العجوز حرفاً واحداً ، وأن محاولتها قد ذهبت أدراج الرياح

وفي النهاية حاولت السيدة محاولتها الأخيرة ، فضربت بيدها على صدرها وصاحت : « وورال ، وورال ! » .

وذلك رغبة منها في أن تقلدها الفتاة .

ونجحت المحاولة ، ورفعت الفتاة رأسها ثم ضربت صدرها بيدها ، مقلة العجوز ، وبدأت في الصياح ، ولكن بدلا من أن تنطق اسم وورال نطقت اسمها . كارابو ، كارابو ، ولم تنطق أكثر من ذلك .

★ ★ ★

وذاع أمر الفتاة ، وطار صيتها في الأنحاء المجاورة ، وأقبل القوم لمشاهدة الأعجوبة الجميلة .

وكان من بين الجموع التي دفعها حب الاستطلاع لمشاهدة الفتاة ، رجل من الملايا ، أقبل عليها بجانبها أطراف الحديث ، وبعد مناقشة طويلة بين الرجل والفتاة ، التفت الرجل إلى القوم ، وأنبأهم قصتها فكانت ، عجبا !!

كانت كارابو ، أميرة يجرى في عروقها الدم الملكي ، وكان موطنها جيرفازو بالهند الشرقية ، وقد اختطفت الأميرة في إحدى السفن ، وبعد سفر طويل في عرض البحر ، أحضرها خاطفوها إلى سواحل هذه البلاد ثم تركوها ورحلوا ، أما سبب الاختطاف وسبب كل هذه الرحلة فبقي سرا ، لم يمكن اجتلاؤه بعد .

وسواء أكان الزوجان الطيبان - مستر ومسر وورال - قد شعرا بأن وجود الأميرة البربرية في دارهما سيزيدهما شرفا ، أم أنهما شعرا بأن من واجبهما أن يحميا امرأة وحيدة لاعائل لها ، فقد أصرا على أن تبقى كارابو معهما وتستمر ضيفة دائمة عليهما ، حتى يفعل الله بها وبهما ما يشاء .

وبعد أيام قليلة ، بدأت صاحبة السمو تصنع لنفسها ثوبا أصرت على ارتدائه ، ضاربة بكل ثوب غيره عرض الحائط ، وكان هذا الثوب الجديد

عبارة عن قميص قصير يصل الى ركبتيها ذى أكمام واسعة مدلاة تصل أطرافها حتى الأرض ، وبقيت ساقاها عاريتين ، واستمرت على ارتداء الصندل ذى النعل الخشبي فى قدميها .

وتحت تأثير إلحاحها ، أحضر لها مستر وورال ، قوسا وبضعة أسهم ، ولم يندم الرجل على شىء قط فى حياته قدر ندمه على إعطائه الفتاة البربرية ذلك القوس وتلك السهام ، فقد كانت الفتاة الأميرة تملأ نفوس من فى المنزل رعبا حينما تبدأ اللعب بهما ، وكانت الخادمة العجوز فى قلق دائم وهم مقيم ، من جراء تلك الأسلحة الفتاكة ، كما كانت تسميها ، وكثيراً ما كان القوم يصابون فى جلماتهم الهادئة بسهم يلصق فى سقف الحجرة ، أو على المائدة ، تكون الفتاة قد أطلقتها من الحديقة أو من حجرة أخرى !

وبعد ذلك اتخذ هذا المظهر الحربى شكلا آخر ، إذا كان أقل خطراً فإنه أشد إزعاجاً وإقلاقاً للراحة ؛ ارتدت الأميرة إلى جانب الريش الذى وضعتة فوق رأسها ، والسيف والخنجر اللذين تمنطقت بهما ، دفا من النحاس علقته على كتفيها بسير من الجلد ، وأخذت فى قرعه بمقرعة فى يدها طيلة النهار مثيرة بقرعة ضجة هائلة ، جعلت البيت الهادىء القديم ، أشبه بميادين القتال !

أما العجوزان المسكينان - صبرهما الله على ما ابتلاههما به - فقد كانا أشبه بالتائهين فى غيبوبة ، ينظران إلى الفتاة وكأنهما فى مستشفى مجانيين ، أو كأن الله قد أرسل لهما شيطاناً جميلاً لاقدرة لهما على التخلص منه ، فليس أفضل لهما من اكتساب رضائه ، وأخذة بالحيلة والمعروف !

ولم يكن كل مافعلته كارابو يخيفهما ، قدر ما كان يقض مضجعهما الخوف مما تعتزم فعله .

ويانصبر وطول الأناة ، أمكنهما أن يعلما الفتاة أسماء بعض الأشياء
الضرورية التي تحتاج إليها ، وبعض الكلمات التي تمكنها من التفاهم معهما .
ولكنهما مع ذلك لم يستطيعا أن يمنعا الفتاة عن أعمالها الهمجية وتصرفاتها
التي لا تمت للمدينة بأية صلة !

وفي ذات يوم عادت مسز وورال إلى المنزل بعد غيبة قصيرة ، فوجدت
أن كارابو قد اختفت ، وبالرغم من أنها شعرت بعودة البيت إلى هدوئه
وسكينته ، فقد احزنها أن تفقد الشيطانة الجميلة .

وعاد إلى البيت صمته ووحشته مرة أخرى ، وشعر الزوجان بالسكينة تعود
إلى حياتهما وكأنهما كانا في زوينة نائرة .

ولكن - وبالأسف - لم يطل بهما هذا الشعور أكثر من أسبوع واحد عندما
وردت إليهما الأخبار تباعا بأن شيطانتهم قد وجدت تستحم على الشاطئ ،
ويبلغهما - فيما بلغ - أنها قد احتلت مركزاً ممتازاً وسط ذلك الجمع
الأرستقراطي الذي تعودت الذهاب إليه للتمتع بالاستحمام على الشاطئ طيلة
موسم الصيف .

أما كيف وجدت الفتاة طريقها إلى مكان الاستحمام ! فذلك ما أدهش مستر
ورال وحير فكره .

وكان مجرد تفكير مسز وورال فيما يمكن أن تحدثه مثل هذه الشيطانة
الحمقاء باستحمامها وحيدة وسط هذه الجموع التي لم تكن تثق كثيراً في أخلاقهم
يسبب لها فزعا هائلا .

وبسرعة البرق خطفت أقرب معطف وجدته في طريقها وأسرعت هي

وزوجها يبغيان الوصول إلى الشاطئ لإعادة الفتاة إلى المنزل قبل أن يحدث
ما لاتحمد عقباه !!



وفى قصر سيدة من سيدات الطبقة الراقية على شاطئ البحر ، وفى وسط
أحد الصالونات الأنيقة الفخمة رأت مسز وورال ما ملأها عجباً .

الأميرة كارابو ، جلست فى كبرياء وعظمة ، تحف بها جمهرة من علية
القوم وأسيادهم ؛ فهذه سيدة شقراء تركع أمامها ، وتلك أخرى ترجو أن تقبل
يدها ، وهؤلاء خليط من الأساتذة والعلماء قد التفوا حولها ، كل يرجو أن
يعرف كنه هذه الساحرة التى هبطت عليهم وكأنها أسطورة من أساطير ألف
ليلة .

وكان أحدهم قد طير خبرها إلى إحدى الصحف التى ظهرت . وقد احتلت
الأميرة كارابو من صحائفها مكان الصدارة .

لقد أثارت كارابو فى المصيف عاصفة من الدهشة ، وأضحت شغل القوم .

واندمست مسز وورال بين تلك الجمهرة التى أحاطت بالأميرة ، واخذت
تسائل نفسها ، كيف نستطيع أن تعيد هذه الشيطانة مرة أخرى إلى المنزل ،
وكيف تتمكن من تخليصها من وسط هؤلاء القوم . وفيما هى مأخوذة بالمنظر
الذى أمام عينيها ، انفجرت القنبلة التى قوضت هذا المنظر من أساسه ، وقلبت
رأساً على عقب .

وكانت هذه القنبلة فى صورة سيدة من علية القوم ، متوسطة السن ،
اقتحمت الغرفة ، وقد أمسكت فى يدها نسخة من الجريدة التى ظهرت فيها
قصة الأميرة كارابو .

وعندما بدأت تتكلم السيدة هدا الجمع الصاخب ..

وتحدثت السيدة ، وكان ملخص حديثها أنه كان لديها في وقت من الأوقات خادمة تشبه كثيراً في الاسم والأوصاف تلك التي نكرتها الجريدة .. وأنها تستطيع الآن أن تؤكد - بعد أن رأت الأميرة المزعومة - أنها هي نفس الخادمة !

وكانت الضربة قوية مفاجئة بحيث لم تستطع كارابو أن تتلاقها .

فخرت مستسلمة !

وكما ذهلت الفتاة وجمد ذهنها فلم تستطع التفكير في المقاومة والاستمرار في تمثيل دورها الذي أجادت تمثيله ، ذهل القوم ووجموا وتمنوا لو كانت السيدة غير محقة في ادعائها .. وأن الفتاة الساحرة أميرة حقا !

ولكن الفتاة كانت قد فقدت أعصابها تماماً .. وخانتها شجاعته فخرت من عرشها باكية مستعطفة .. واعترفت - في لغة انجليزية صحيحة - أنها كانت حقا خادمة .. وأن حبها الجنوني للمخاطرات قادها إلى ما فعلت ..

وانهارت الأميرة من عليائها .. وأصبحت - في غمضة عين - خادمة من الطبقة الدنيا . كأنها قصر جميل صنع من الخشب أو الورق ثم أصابه الشرر .. فإذا به ، بعد لحظة هشيم تذروه الرياح ..

وأصبحت الأميرة العظيمة ، أفاكة محتالة ، وأمرت بعد ذلك بمخادرة الأراضي الإنجليزية ، ونجح مستر وورال في الحصول لها على جواز سفر إلى فيلادلفيا .

ولكن قبل أن تصل إلى فيلادلفيا ، شاءت الأقدار أن يبزغ نجمها مرة أخرى قبل أن ينطفئ نهائياً !

وكان ذلك عندما بدأ البحر يثور . وتلاعبت الأمواج بالسفينة التي أبحرت عليها الفتاة من ميناء بريستول ، فاضطرت السفينة إلى أن تغير مجرى سيرها مؤقتاً حتى تهدأ العاصفة ، فولت وجهها شطر جزيرة سنت هيلانه ، ووقفت بالقرب من ساحلها برهة حتى هدأ البحر ثم أقلعت ثانية ، وبعد إبحارها . وجد أنها قد خلفت وراءها شيئاً . يظهر أنه كان أحد قوارب النجاة الصغيرة .

وشق القارب طريقه متجهاً إلى الجزيرة التي كان نابليون قد نفى إليها منذ سنتين . وخرج حاكم الجزيرة يستطلع أمر القارب وليرى القادم الجديد .

ورسا القارب على الأرض ، ونزلت منه امرأة صغيرة جميلة .

وتقدمت في ثقة واعتداد ، بخطى ثابتة متزنة وعرفت نفسها للسير هدسون لو بأنها الأميرة كارابو ، أميرة جيرفازو ، وبأنها لم تكن راغبة في رحلتها إلى فيلانغيا ، ففرت من المركب وقطعت حبال أحد القوارب الصغيرة واتجهت به إلى الجزيرة التي تعرف أن بها رجلاً عظيماً تشبه قصته قصتها !

وكان الثبات الذي روت به قصتها ، والهدوء التي تكلمت به ، قد جعل السير هدسون لايشك لحظة في صدق كلامها فقادها إلى الأمبراطور المنفى .

وأثرت القصة المثيرة التي روتها في نفس نابليون فلم يتمالك نفسه من أن يقبلها ويحتضنها ، بل أنه أمر السير هدسون بأن يجهز لها طابقاً في البيت الذي يسكن فيه .

ولما كان نابليون معروفاً بميله إلى النساء فقد أتيج النجاح للأميرة
بكارابو !!

وفي ١٣ سبتمبر سنة ١٨١٧ صدرت جريدة بستول وبها جميع تفاصيل

القصة ، ومن بينها خطاب من السير هندسون لو يصف فيه الحادث العجيب ،
واختتم خطابه كما يأتي :

« وإن الحرارة أو الثقة اللتين تقص بهما قصتها ، تؤكدان للمرء أنها لا يمكن
أن تكون كاذبة ، وأن مظهرها النبيل وحركاتها الأرسقراطية التي تحيا بها ،
كل هذا يقنع المرء تماما بأنها لا يمكن أن تكون سوى أميرة » .

ويحكى أن كارابو أصبحت بعد ذلك ملكة سنت هيلانة .

وإذا كانت كارابو ما لبثت أن اختفت من مسرح التاريخ ، إلا أنها
استطاعت - رغم ذلك - أن تتفوق لذة الانتصار ، عند ماركم الإمبراطور
العظيم نحت قديمها .

الطائفة

مات أتيتلا .. ولكن هل نجا العالم بعد ذلك من
الدمار والخراب .. كلا : فما مات أتيتلا إلا ليظهر
للعالم أتيتلا آخر ...

في صبيحة يوم مشنوم منذ عدة قرون ، وقف أتيتلا يحمل بيمينه سيفاً قديماً
علاه الصدا .. وقد ركع أمامه أحد الرعاة في ذلة وخشوع ، وبدأ يقص قصته
العجيبة ..

قال الرجل إن إحدى بقراته عادت إليه يوماً وقد شق حافرها وسالت منه
الدماء . وأحس الرجل أن قوة خفية خارقة تدفعه إلى أن يتبع آثار الدماء ..
فقادته في النهاية إلى حيث عثر على هذا السيف الأثري الجميل .. ولم يشك
الرجل لحظة في أنه أحد سيوف «مارس» إله الحرب ، وأن السما قذفت به
إليه ليحمله للرجل الذي يستطيع أنه يقهر به العالم بأسره .. ومن يكون هذا
الرجل سوى أتيتلا القائد الجبار !!

وكان الإيمان بالقوة الخفية في ذلك الوقت ، يتضامل أمامه الإيمان بالمنطق

والعقل .. ولاسيما إذا كان فيها ما يرضى كبرياء امرئ نفع الغرور أوداجه ،
وأعمت المطامع بصيرته .. وسرعان ما اقتنع أتتلا ، بعد سماعه حديث
الرجل ، بأن الأقدار قد اختارته حقاً ليقهر الإمبراطورية الرومانية ، وبالتالي
ليقهر دول الأرض جميعاً !

وكان أتتلا يحكم - بالاشتراك مع أخيه - جميع القبائل التي تسكن في أوربا
الوسطى .. والتي بدأت تزداد تضخماً ، وأخذ جيشها يزداد قوة ، فقد كانت
قبائل البربر تتدفق من فنلندة وألمانيا والأورال ، منحدره صوب الرين
والدانوب وهما حدود الإمبراطورية الرومانية من الشمال ..

واتسع سلطان أتتلا وأخيه ، حتى شمل ما بين الأدرياتيك والبلطيق ، ثم امتد
حتى غابات اسكندناوه .. ولم يكن يضائق أتتلا إلا مشاركة أخيه إياه ، في هذا
الملك الواسع .. فقد كان لا يؤمن بالشركة قط ، وكان يعيب على الرومان
شطر إمبراطوريتهم شطرين إرضاء لإمبراطوريتها المتحدتين ..

وكيف يرضى أتتلا بالشركة ، وقد خصه مارس بسيفه ، واختارته الأقدار
لقهر العالم ؟

واستقر رأى أتتلا على التخلص من أخيه .. فأمر بقتله .. وقد لا يكون في
ذلك شيء من الغرابة .. فإن الإنسان ، قد بدأ قصة حياته بقتل أخيه الإنسان ..
ولكن الغريب حقاً هو قدرة أتتلا على التأثير في نفوس الناس .. فلم يكن هناك
من يجرء على رفع بصره إلى عينيه التفانقين القاسيتين .. ولم تكذ تمضى برهة
حتى تقدم إليه كل من أقسم يمين الطاعة لأخيه معلنين ولاءهم واستعدادهم
لنصرته ، والعمل تحت لوائه ..

وكان أتتلا قصير القامة ، قوى البنية ، ذا رأس ضخم ركب على عنق كأنه
جذع شجرة ، وقد بدت عليه الخشونة والغلظة فلا يكاد يسمع منه إلا حديث

صاخب مزمر كأنه بحر يهدر أو أسد يزأر .. ولا يكاد يفعل في حياته شيئاً إلا التآهب والاستعداد للحرب ، وحشد الأسلحة ومعدات القتال .. ولم يكن يهيمه إطعام جنوده ، فقد كان عليهم أن يحصلوا على الطعام لأنفسهم من عدوهم المغلوب على أمره ، فكان بذلك يبيح لهم السلب ، والنهب وارتكاب كل منكر وموبقة ، دون أن يحاول أن يحد من شرورهم !

وكان الإمبراطور ثيودوسيوس يعلم أن أتتلا يتحين الفرصة للانقضاض على إمبراطوريته . فاتبع معه سياسة الاسترضاء واللين ولكن الذنب لم يستطع على التهام الحمل صبراً ؛ فادعى أن مارجوس أسقف الرومان قد اقتحم قبور أجداده ، فسلب ما بها من كنوز !

ولم ينتظر أتتلا حتى يرد الرومان على تهمة ، بل انقض بجيوشه على المدن الرومانية .. فأعمل فيها التدمير والتخريب والنهب والتقتيل فسبى نساءها ، وشرد أطفالها ، وترك رجالها جثثاً ممزقة ، ومنازلها أطلالا خربة !

ولما تلقى احتجاجاً من بلاط القسطنطينية كان رده عليه : « أعطونا الأسقف ، وإلا استبدلنا به حياتكم أجمعين » ولم يرض ثيودوسيوس أن يضحى بحياة الأسقف البريء .. فقد كان يعلم تماماً أن أتتلا لن يعدم حجة أخرى يتخذها وسيلة لإشباع شهوته المتعطشة إلى سفك الدماء .. فلم يجد خيراً من التسوية والمماطلة .

على أن هذه الطريقة لم تكن لتجديه نفعاً في وقف أتتلا المتحفز فقد وثب بجيشه على « تشكوسلوفاكيا » فدمر عاصمتها ، وأهلك الحرث والنسل ، وترك أهلها أشلاء فوق أشلاء ، لاتجد من يوارىها التراب !

ومضى أتتلا يتقدم كأنه الريح العاتية ، لاتبقى ولا تذر ، لا يخلف وراءه غير

الموت والدمار .. وأخيراً لم يجد ثيودوسيوس بدأ من التسليم بعد أن تحطمت جيوشه وتفرق شملها .

وكانت شروط أتتلا لإخلاء الأراضي الرومانية مريرة قاسية فقد طلب أن تكون له سوق حرة على ضفاف الدانوب .. وأن يدفع له سنويا سبعمائه رطل من الذهب .. وأن تكون الإمبراطورية الرومانية في حالة حرب مع أية دولة تفكر في مهاجمة أتتلا !

ولم تدم هذه الفترة من السلم طويلا ، فقد وقع حادثان كانا سبب تقويض بنيانه ، وتعكير صفوه .. أولهما موت ثيودوسيوس فجأة عقب سقوطه من فوق جواده .. فخلفه ماركياتس الذي كان أقوى منه مراساً ، وأشد بأساً .. وكان الحادث الآخر رسالة عجيبة تلقاها أتتلا من إحدى الأميرات !

وتبدأ قصة هذه الأميرة منذ بضع سنوات .. فقد كانت الإمبراطورية الرومانية ، كما قلنا مقسمة قسمين : القسم الغربي ، وعاصمته رافينا ، وعلى رأسه الإمبراطور فالنتيان ، والقسم الشرقي وعاصمته القسطنطينية ، وعلى رأسه الإمبراطور ثيودوسيوس .. وكان للإمبراطور فالنتيان أخت صغيرة ، رائعة الجمال ، شديدة السحر .. وتشاء الأقدار الساخرة أن تهوى الأميرة الصغيرة أحد أتباعها فتزل معه .. ويخشى الإمبراطور الفضيحة فيبعدها إلى قصر ثيوريسيس ، طالباً من زوجته العناية بها !

واستمرت الأميرة الطائشة كامنة في وكرها حفية من الزمن .. ثم شاء لها تزقيها أن تبعث مرة أخرى ، فبعثت إلى أتتلا برسالة تعرض عليه فيها الزواج منه ، وبذلك يمكنه أن يضم جزءاً كبيراً من الدول الرومانية إلى أملاكه :

أثار هذا العرض العايب اغتباط أتتلا ، وأرضى غروره ومطامعه . فلم يتوان في أن يرسل إلى فالنتيان يعرض عليه الزواج من أخته ويطلب معها

بأئنة كبيرة إلى جانب الجزية السنوية .. كما طالب بحقه في عرش الإمبراطورية الغربية !

ورد عليه فالنتينان بقوله إن الأميرة لا يمكنها الزواج منه ... لأنها متزوجة .. وهي فوق ذلك ليس لها أى حق في عرش الإمبراطورية .. لأن الميراث في العرش مقصور على الذكر .. ثم أبلغه في النهاية أنه قد قرر ، بالاتفاق مع زميله الإمبراطور ماركيانس ، التوقف عن دفع الجزية السنوية .. والاكتفاء بأن يرسل إليه بعض الهدايا من آن لآخر إذا وعد بالمسالمة ، وبأن يقبع داخل حدود دولته !

وثارت ثائرة أتتلا ، وجن جنونه .. فلم يكن يخطر على باله قط أن هناك من يحاول أن يقف في وجهه ، أو يعصى له أمراً .. وبدأ يحشد قواه للانقضاض على فريسته مرة ثانية .. وحاول الرومان أن يكسبوا بعض الوقت حتى يستعدوا لصد غائلته ... فأوفدوا إليه الرسل لتهدئته وكبح جماحه .. ونجح الرسل في تأخير العدوان .. وأراد أتتلا أن يسلي نفسه بزواج آخر ، حتى يحين وقت حصوله على الأميرة .. فقرر الزواج بأخته ، مبالغاً منه في احتقار عادات الرومان وتقاليده المسيحية .

ولم تكد تنتهي مراسم الزواج حتى بدأت قوات أتتلا تتدفق تدفق السيل على الإمبراطورية الرومانية .. وكانت الجحافل التي حشدتها أتتلا من الضخامة بحيث لا يكاد يتصورها العقل .. فقد تحركت الأمة بأجمعها الى ميدان القتال . وسار الجند مصطحبين زوجاتهم وأولادهم وما شيتهم وكل ما يملكون من حطام الدنيا حتى عبروا الرين عند مدينة ستراسبورج .

واتجه أتتلا إلى أورليان ، ولكن الجيش الروماني بقيادة اكنتيوس اضطره الى تعبير اتجاهه نحو سهل شالون .. وهناك ذاق أتتلا مرارة الهزيمة للمرة

الأولى فى حياته .. فغلب على أمره ومزق الرومان جيشه حتى اضطر أخيراً إلى التقهقر وعاد أدراجه إلى الدانوب .

على أن هذه الهزيمة المنكرة لم تكن لنتى أتيلاً عن الوصول إلى الأميرة بل زادت رغبة فيها ، وتلهفاً عليها . وسرعان ما بدأ فى لم شعته ، وحشد جنوده مرة أخرى .. وأقسم فى هذه المرة ليقدم روما هدية إلى الأميرة الحسنة ..

وعبر أتيلاً جبال الألب ، ثم وصل إلى بكارا على بحيرة جاردا وهناك قابل البابا ليو الأكبر الذى استطاع أن يقلب خطط الطاغية رأساً على عقب .. فقد أقنعه بأنه خير له - إذا كان يرغب فى الحصول على الأميرة - أن يذهب رأساً إلى القسطنطينية بدلاً من أن ينهك قواه بالقتال فى الأراضى الإيطالية ..

وعاد أتيلاً إلى قصره فى الناحية الأخرى من الدانوب .. وأمضى بعض الوقت فى الاستجمام والراحة .. وهناك أثارت إحدى الفتيات إعجابه ، فرغب فى الزواج منها حتى يكون له فيها العزاء عن فشله فى زواج الأميرة ..

وأراد أتيلاً أن يكون الاحتفال بالزواج احتفالاً عظيماً رائعاً . حتى يزيل من نفسه ما علق بها من حزن وضيق .. فتفنن القوم فى الزينة . وأمعنوا فى تهيئة وسائل الاستمتاع والتنعم .. فسالت الخمر أنهاراً ، وانتشرت الراقصات والمطربات فى أنحاء القصر يملأنه متعة وحبوراً ، وجلس القوم يلتهمون الأطعمة الفاخرة اللذيذة فى أطباق من ذهب وفضة ، وجلس أتيلاً فى وسط ذلك الجو الضاحك الصاخب .. وليس أمامه إلا طبق وكوب خشبى ، يتناول فيهما طعامه وشرابه ، فقد كان لا يرضى عنهما بديلاً !

وغرق أتيلاً فى الشراب .. وظل يحتسه كأساً بعد كأس ، حتى كاد أن

يققد وعيه ، فساعده نفر من أتباعه على السير إلى غرفته كي يفيق ، فيزفوا إليه عروسه الفاتنة ..

وكانت الفتاة في ذلك الوقت قد أخذت تتزين وتتعطر ، حتى بدت آية في الجمال .. وبعد أن أتمت زينتها جلست في انتظار استدعائها للذهاب إلى أتيليا ..

وطال انتظار الفتاة دون جدوى .. فقد كان أتيليا لا يزال مستغرقاً في سباته .. وطرق القوم باب غرفته فما كان الرجل ليجيب بشيء ! وخشوا أن يكون قد مسه ضرر فافتحموا الغرفة ، ثم اقتربوا منه ، فإذا به جثة هامدة !!

مات أتيليا الجبار .. فقد انفجر في رأسه الضخم شريان صغير عجل بالقضاء عليه .. بعد أن ترك نصف أوروبا خراباً بلقعا ، لا أثر فيها إلا هذه الجثث الهامدة وتلك الأناث الموحجة الخافتة .

مات أتيليا !! ولكن هل نجا العالم بعد ذلك من الدمار والخراب ؟ .. كلا .. فما مات أتيليا إلا ليظهر للعالم أتيليا آخر .. ! وثالث ورابع .. فما كان للعالم أن يحيا بدون أتيليا ليقوده إلى الخراب والدمار .

وعبثا يحاول العالم التخلص من أتيليا .. فما هو بجسد يقتل .. بل روح تحيا في كل عصر .. وتبقى ؛

كالحسام الجزار يبقى على الدهر

ويبقى في كل عصر قرابه

أقوى من الزمن

الأهداء

- إلى الذين جعلوا من الأمنية حقيقة .. ومن الأغنية واقعا ملموساً .
- إلى الذين قالوا : «حانيني المده وبفوه .
- إلى أصحاب المعجزة .
- إلى القائد بعزيمته وصلابته وإصراره .
- والشعب بقدرته وجلده وصبره .
- الذين قدموا الدليل على إرادة الإنسان وتفوقه المطلق في هذه الأرض .

يوسف السباعي

الفصل الأول

ليس .. وليست .. وعطر

المنظر الأول

(أمام معبد فرعونى على شاطئ النيل ..
قبيل الغروب .

(عمر المهندس بالمد ، ومصطفى مساعده ..
وصبحى سائق كهل سمين يحمل صفيحة فارغة .
وقد توقفت بهم العربة قرب المعبد .. وقد ساروا
على أقدامهم مقتربين من المعبد) .

صبحى - سير المروحة قطع .. والعربة تغلى .

عمر - (فى سخرية وهو يتأمل المعبد من على بعد) شاطر .

صبحى - كان السير قديماً .. وطلبت تغييره منذ أسبوع . وعندما ذهبت
إلى المخازن ... لم أجد أبو الفتوح وذهبت إلى ..

مصطفى - (مقاطعاً) انتهينا .. أدر العربة للريح ودعها تبرد .

صبحى - لو وجدنا هنا من يملأ لنا الصفيحة .. إن مياه العرية تغلى .

عمر - املاها من النيل .

صبحى - كيف ؟

مصطفى - (مشيراً بيده إلى الشاطيء) اذهب إلى هناك ومد يدك بالصفيحة إلى المياه واملاها .

صبحى - (متريداً) قد تنزلق قدمى من فوق الطين وأغرق .

مصطفى - لاتخش الغرق أبداً .. جئتكم السمينه سنطفو .

صبحى - والتماسيح .. ؟

عمر - تماسيح ؟ . أية تماسيح ؟

صبحى - لقد سمعت أنها تملأ النهر هنا .. عبد السميع قال لى .

مصطفى - (يمد يده ويحاول أخذ الصفيحة) هات . سأملؤها أنا .

صبحى - ولم لاتسأل شخصاً من هنا (مشيراً إلى المعبد) لعله يعطينا ماء نظيفاً نشرب ونملأ العرية .

عمر - (فى غيظ) ياأخيها .. لن نجد هنا أحداً .. هذا معبد .

صبحى - معبد .. يعنى إيه ؟

مصطفى - يعنى بيت للعبادة .

صبحى - بيت من بيوت الله ؟

عمر - أجل .. الله .. آمون .. أو أزوريس .. أو إخت .. أو سخت ..

أى شىء .. الآلهة .. كانت عندهم كالرز .

صبحى - مهما كان . فلا بد أن يكون له ميضة وخادم .
مصطفى - ميضة إيه .. وخادم إيه .. يا أستاذ .. هذا كان منذ آلاف
السنين .

صبحى - (متقدماً يستحث الخطأ تجاه المعبد) سأذهب وأرى .. بيوت الله
دائماً عامرة .

(يعبر باب المعبد ثم يختفى داخله) .

مصطفى - (متأملاً المعبد) عجيبة .

عمر - ما العجيبة ؟

مصطفى - هذه الضخامة والروعة .

عمر - والمئاته .. بعد كل هذه السنين الطويلة .. تبدو كأنها بناء صالح
للاستعمال .. لا أطلاقاً عفى عليها الزمن .

مصطفى - أتذكر عندما زرناه أول مرة .

عمر - أجل .. أنكر أسطورة بنت فرعون المنقوشة على الحجر تروى
قصة حبها لأمير الشمال حين أتى لغزو أرضهم من الضفة الشرقية .

مصطفى - تصور .. كل هذا كان يمكن أن يذهب هباء .. أن تغرقه
المياه .. ويصبح كأن لم يكن .

عمر - (مفكراً) لو أنه لم يكن من البداية لكان أفضل .

مصطفى - ماذا تقصد ؟

عمر - أفرض .. لو أنه لم يوجد ، لو فر علينا هذه الملايين التي ستنفق
من أجل نقله وصيانته .

مصطفى - ولكن أنت نفسك قلت أنه يستحق الإنقاذ .. إنه شيء له قيمة .

عمر - لمن ؟

مصطفى - ل .. ل .. لنا جميعاً ، شيء نفاخر به .

عمر - الآن ؟

مصطفى أجل .

عمر - ولكن .. في البداية .. في أول خلقه .. هل تظنه أنشئ من أجل أن نفاخر به .. هل تظن أجدادك الذين أنشئوه .. قد كلفوا أنفسهم كل هذا الجهد .. من أجل أن يتركوا لك شيئاً نفاخر به .. أتظنك كنت تشغل بالهم إلى حيث لا بد لهم أن يتركوا لك شيئاً تفخر به !

مصطفى - لا تنس أن كل هذا عنصر هام من عناصر الجذب السياحي .. والسياحة .. كما تعلم قد أصبحت مورداً هاماً من موارد البلد .. لقد قرأت منذ بضعة أيام أنها ستدر علينا من العملة الصعبة .. أكثر من قناة السويس .

عمر - لا تحاول أن تقنعني بأن أصحابه بنوه لكي يكون مورداً للعملة الصعبة .

مصطفى - طبعاً لا .. أنا أعرف أنهم بنوه ..

عمر - (مقاطعاً) لكي يكون مأوى لأجسادهم .. وجعلوه من الروعة بحيث أصبح علينا نحن أن نصونه ونفاخر به ولا نملك إلا أن نفعل هذا .. ولسنا وحدنا الذين جرننا أجدادنا إلى هذا المطب .

عندما كنت أدرس في روسيا ، ذهبت إلى ليننجراد ، ورأيت قصر القيصر .. أية فخامة .. وأي بذخ .. وأية مبالغ طائلة أنفقها فرد .. لكي يصنع

مأوى لنفسه .. بالذهب والأحجار الكريمة .. ووقفت أتأمل في زهول حجراته الرائعة حجرة بعد حجرة .. وهى تبدو فى بريقها وجنتها كأنما نفض الصانع منها يده منذ لحظات .. وأبديت تلك الملاحظة لمرافقى .. فقال ببساطة مؤكداً .. أجل .. لقد أعيد تجديد كل هذا .. لقد صنع من جديد حسب نماذج مصورة .. بعد أن دمرها الحصار النازى الذى استمر تسعة أشهر حول لينجراد .. وعندما سألته فى دهشة .. كل هذا أعدتم أنتم صنعه من جديد ؟ .. رد فى تفاخر : أجل .. وقلت لنفسى : أفهم أن يصنع القيصر كل هذا من أجل متعته .. ولكن لماذا تعيدون أنتم صنعه ؟

وأنتم مرافقى حديثه وكأنه يجيب على سؤالى :

- هذا تراث قومى ينبغى أن نحافظ عليه .. إنها آيات من الفن ينبغى لها أن تبقى .

ولقد كانت فعلاً كذلك .. وهذا هو الخازوق .. وبدا لى كأن القيصر يخرج لسانه قائلاً : لم يعجبكم أن أصنع هذا لنفسى للاستعمال .. حسن .. اصنعوه أنتم الآن .. للتفاخر .. لمجرد أن يقولوا للناس فى تيه وإعجاب : هنا كان يرقد القيصر .

مصطفى - وماذا كنت تريد منهم أن يفعلوا ، أيتركونه أنقاضاً فى خرائب الحرب .. وماذا تريد منا أن نفعل الآن ؟

عمر - (يهز رأسه فى حيرة) شىء محير !!

مصطفى - نترك المياه تغمره ، ونقول للناس كانت لنا أمجاد أغرقناها فى قاع النهر .

عمر - (يقطب شفته) ولم لا .. لافتة ببضعة جنيهات ، وسهم يشير إلى قعر

النهر .. وهنا يرقد المرحوم أمنتب في قبر صفته كذا وكذا .. أغرقه السد
العالي الذي منح الحياة للملايين .

مصطفى - أنت شديد الانفعال بالسد العالي .. أتظن أن حرصنا على بناء
المستقبل .. بتسببنا المحافظة على أمجاد الماضي ؟

عمر - (ينظر إلى الساعة ويهتف في قلق) موعد الوردية اقترب .. أين
هذا الغبي الذي يحضر الماء ؟

مصطفى - (في سخرية) مازال يبحث عن خادم بيت الله لعله قد وجد
(سبيل) .

(يبدو رأس صبحي مطلاً من باب المعبد وهو بصيح)

صبحي - يا باشمهندس .. يا باشمهندس .

عمر - هذا الغبي .. لماذا يصرخ ؟ (صائحاً) ماذا تريد ؟

صبحي - (صائحاً) تفضل .. تفضلاً .

مصطفى - ترى ماذا وجد ؟

عمر - دعك منه .. (صائحاً) هيا بسرعة .. لا بد أن العربية قد بردت ،
وليس لدينا وقت .

صبحي - (مستمراً في الصياح) تعال يا باشمهندس .. تعال ..

عمر - (صائحاً) ماذا تريد ؟

صبحي - تعال .. وانظر .

عمر - أنظر ماذا ؟

صبحى - (واضعاً يده حول فمه خائضاً صوته كأنما يخشى أن يسمعه أحد) تعال .. لترى العجب .. الظاهر أن هنا جوقة ممثلين .. واحدة منهم تبدو بملابسها الراقصة .

عمر - الظاهر أن الرجل قد انخبل .

مصطفى - تعال لنرى .

عمر - ليس لدينا وقت .

مصطفى - بضع دقائق لن تؤخرنا .. هيا بنا .

عمر - ربما كانت إحدى الشركات السينمائية .. تصور بعض اللقطات .

مصطفى - ولكن ليس هناك أى أثر لعربات أو أسلاك ممتدة .

عمر - ربما كانت موجودة فى الخلف .

صبحى - (مستحناً إياهما) عجيبة .. أشياء عجيبة !

(عمر ومصطفى يصلان إلى باب المعبد ويختفى الثلاثة داخله) .

(ينزل الستار)

المنظر الثاني

(بهو المعبد .. يبدو البناء جديداً .. والنقوش
دقيقة .. والألوان واضحة .. صفان من الأعمدة
على جانبي البهو وفي الواجهة باب عريض يؤدي
إلى مرسى .. والنيل يبدو من خلاله .. وعلى
اليمن بابان منخفضان وباب كبير تؤدي إليه بضع
درجات .. على اليسار وراء الأعمدة يمر به نهر
يحيط بها سور قصير مستدير)
(صبحى يسير في حذر ، وقد أمسك بالصفحة
وراءه عمر ومصطفى) .

صبحى - كانوا هناك .. لمحتهم يقفون قرب الباب بملابسهم المخططة ،
ثم دخلوا واتجهوا إلى هذا الباب الكبير ، واختفوا جميعاً دون أن يلمحني أحد ..
ووقفت أرقبهم منهولاً .. وبدوا لي في أول الأمر كأنهم مشخصاتية .. ولكن
حركاتهم المتزنة وأشكالهم المهيبة ، جعلتني مشدوهاً . ووقفت أرقبهم .. لا
أنبس بكلمة حتى اختفوا .. وتذكرت الصفحة في يدي .. ومياه العربة التي
تغلي .. وكانت هي تسير في المؤخرة .. ولم تعبر الباب بعد .. بل تلفتت
وراءها ووقفت مترددة كأنما نسيت شيئاً .. ووجدتها فرصة سانحة فهتفت بها
ومن فضلك من أين أستطيع أن أملأ الصفحة ؟، ونظرت إلي في كثير من

الدهشة .. وأخذت تفحصنى كأنى مخلوق غريب .. ثم أشارت بأصبعها إلى
البئر .. وقالت فى صوت رقيق : «من هنا» .. ثم صعدت الدرج واختفت وراء
الباب .. وانطلقت أنا أدعوكما لتريا .. بعيونكما .

عمر - (مبهوراً بكل ما حوله) عجيبة .. هذه ليست آثار .. هذا بناء جديد .
مصطفى - أتم أقل لك .

عمر - قلت لى ماذا ؟

مصطفى - قلت لك .. إن هذا تراث قيم ينبغى أن نحافظ عليه .. إنها أمجاد
الماضى .. لا يجب أن يطمسها الحاضر أو المستقبل .

عمر - ما هذا الذى تقول .. عن أى تراث تتحدث . إنه حاضر . إنها ليست
آثارا . ألا ترى الحصر المفروشة . ألا ترى الألوان والنقوش !
مصطفى - إنها معجزة .

عمر - ليست معجزة .. لا بد أن برءوسنا شيئاً .. اسمع يا صبحى .. أمتأكد
أنت أنك رأيت أناساً هنا ؟

صبحى - طبعاً يا باشمهندس .

عمر - (يهز رأسه فى حيرة) قد يكونون عمال الآثار ، أعادوا ترميم
البناء .. ولكن لماذا .. إذا كان المعبد بأكمله سينقل من هنا حتى لا يفرق ..
ما الداعى إلى هذه الترميمات ؟

مصطفى - لا بد أن المبلغ كان موجوداً فى الميزانية .. وخشيت المصلحة
من ضياع الاعتماد .

عمر - هذا إسراف .. جنون .. ولكن لماذا يرتدى عمال الآثار الملابس
المخططة .. أمتأكد يا صبحى أنهم كانوا يرتدون ملابس غير عادية .

صبحى - طبعاً يا باشمهندس .. كلهم .. لقد كانوا كالفرقة الراقصة التى نراها على المسرح فى التليفزيون ، عن إنكم .. ساملأ الصفيحة .

(يتجه إلى البئر ويحاول أن يملأ الصفيحة) .

(تبدو مريت بالباب الكبير .. وتهبط الدرجات وقد بدت عليها الدهشة) .

مصطفى - ها هى .. ذى .

عمر - عجيبة !

مصطفى - جميلة .

عمر - جداً .. أظنها ممثلة .

مصطفى - من أين ؟

عمر - وجه جديد .

(تقترب مريت منهما وتفحصهما كأنما تفحص حيوانين غريبين)

مريت - اثنان جديان .. الآخر كان سميناً .. ما هذا الذى ترتدونه .. ومن أين جئتم ؟

عمر - (وقد بدا عليه الشعور بالخجل وهو يرى نفسه تحت الفحص كمخلوق غريب) نحن .. من القاهرة .

مريت - (باستغراب) القاهرة !

مصطفى - (باعتزاز) ولكننا نعمل هنا فى السد .. فى الضفة الأخرى .

مريت - (بخوف) فى الضفة الأخرى .. منذ متى أنيتم ؟

عمر - منذ مدة .

مریت - كثيرون ؟

عمر - ثلاثون ألفاً .

مریت - (تصرخ فى جزع) مرة واحدة .. هذه كارثة .. لقد تحققت النبوءة .

مصطفى - أية نبوءة ؟

مریت - النبوءة التى أسروا بها إلى أبى .

عمر - أبوك .

مریت - أجل .. لقد أكلوها له .

مصطفى - ومن يكون .. السيد والدك .. لم نتشرف بمعرفته بعد ؟

مریت - أبى .. فرعون .

عمر - (فاغراً فاه) فر .. فرعون .

مصطفى - (يضحك) هكذا مرة واحدة .. وبم أنبيؤه ؟

مریت - أنبيؤه بالغزو القادم من الشمال .

(صبحى مقبلاً وهو يحمل صفيحة المياه وقد أغرقت المياه ملبسه) .

صبحى - لا أعلم كيف يخرجون المياه .. لقد كدت أغرق .. ولكنها مياه

حلوة .. باردة كالثلج .. هل من يشرب ؟

مریت - (تنظر إليه فى جزع) مخيف .. لا بد أن أنبتهم بما حدث لكى

يتخذوا أهبتهم . لن يتركوكم تهريون .

عمر - (يمسك بيدها) سيدتى .

مریت - دع يدي والا صرخت .

عمر - أرجوك لأداعى للفضيحة .. افهمينا .. ودعينا نفهمك .. أوكد لك ..
أننا لا نفهم شيئاً من كل هذا .. النبوءة .. والغزو .. والسيد
فرعون .. والدك .. كل هذه ألغاز محيرة .. لماذا لانجلس للتفاهم .

مریت - نتفاهم على ماذا ؟ إذا كنتم قد أتيتم للغزو .. فليس لى سلطة التفاهم
معكم .

عمر - غزو ماذا ياسيدتى ؟ . نحن مهندسون فى السد .. نعمل فى الضفة
الأخرى .

مریت - فى الضفة الأخرى .. وقائمون من الشمال ؟!

عمر - (ينظر إلى مصطفى فى حيرة) نحن قائمون من الشمال ؟

مصطفى - طبعاً .. القاهرة فى الشمال .

صبحى - أنا من ملوى .

مصطفى - يعنى من الشمال .

مریت - وثلاثون ألفاً ؟!

عمر - تقريباً .. بالخبراء .

مریت - هذا مخيف .. مخيف .. النبوءة بعينها .

عمر - سيدتى .. أرجوك .. نحن نعمل فى السد .

مریت - السد ؟!

مصطفى - أجل .. السد العالى .

صبحى - ألم تسمى عنه .

مريت - لا .

صبحى - غير معقول .. فى أسوان ولا تسمعين عن السد ؟

مصطفى - فى مصر ولا تعرفين السد !؟

عمر - فى عصرنا هذا .. وتجهلين السد .. معجزة القرن العشرين !

مريت - القرن العشرين .. ماذا تعنى ؟

عمر - أعنى القرن العشرين بعد الميلاد .

مريت - ميلاد من ؟

مصطفى - المسيح .

مريت - ومن يكون ؟

عمر - لا .. هذا غير معقول .. الظاهر حقيقة أن أباك فرعون .

مريت - طبعاً .. ماذا تظننى ؟ .. أكذب عليك .. سأنادى الحراس حتى ..
تعلم .

عمر - لا .. لا .. لا ضرورة أبداً .. أنت ابنة فرعون .. ابنة فرعون ..
هيا بنا يا جماعة .. دعونا نعد ، وقت الوردية أزف .

مريت - (فى تشكك) تعودون إلى أين ؟

صبحى - إلى الشغل .. ماذا حسبنا ؟ عواظليه ؟

مریت - تذهبون .. لكي تعودوا مرة أخرى ومعكم الباقون .. لا .. لا لا بد
أن أبلغ الحراس لكي يقبضوا عليكم ويستجوبوكم .

عمر - (في ضيق) يانهار أسود نحن لم نفعل شيئاً يستحق الاستجواب ..
وليس لدينا وقت لهذا اللعب .. ثم من الذي له سلطة القبض علينا واسجوابنا ؟
مریت - ستري (تهم بالصراخ) .

مصطفى - سيدتي .. أرجوك (لعمر) وبعدين .. دعنا نأخذها على
عقلها .. قد تكون ابنة عمدة وبها هفة .. أو شيء من هذا القبيل وتدعي أننا
اعتدينا عليها . وتدعو الخفراء يقبضون عليك .. وحتى تثبت أنك مهندس تكون
قد لقيت الكفاية من الضرب والبهلة .

(لمریت) سيدتي نحن تحت أمرك .. ولكن تأكدي أننا لا نلحق أذى بأي
مخلوق .

مریت - إذن ما الذي أحضركم إلى هنا ؟

عمر - العربية وفتت هنا .

مریت - معكم عربية ؟

مصطفى - طبعاً .

مریت - من عربات الغزو ؟!

صباحي - لا عربية جيب ٦ سلندر موديل ٥٤ .

مریت - لأفهم .

عمر - (مغمماً) وإن تفهمي أي شيء .. وإن نأخذ منك سوى العطلة
وضياع الوردية .

مریت - ماذا تقول ؟

عمر - أحدث نفسي .. مجنون .

مریت - يظهر هذا .. لتكلم العقلاء (توجه القول إلى مصطفى) .

مریت - لماذا وقفت العربية هنا ؟

صباحی - سير المروحة انقطع والعربة سخنت .

مریت - لا أقهم .

عمر - بالاختصار أصابها عطل .

مریت - وماذا أدخلكم هنا ؟

صباحی - لملء صفيحة المياه .. كما طلبت منك .. ألا تذكرين !.

مریت - أجل .. أنكر .. وإلى أين تذهبون ؟

مصطفى - إلى الموقع .

مریت - أي موقع ؟

عمر - (في ضيق) موقع السد .. ياسيدتى .. دعينا نذهب .. لقد أرف

الوقت .

مریت - (نفي إمارة) .. إذا لم تصمت أنت .. سأنادى الحراس يضعونك

وحدك في السجن . أفهمت ؟! قلتم إنكم ذاهبون إلى موقع السد .. وإنكم

نعملون في بناء السد .. وعندكم ثلاثون ألفاً ؟!

مصطفى - تقريباً .

مریت - عجيبة !! هذا المعبد الضخم لم يعمل في بنائه أكثر من ثلاثة آلاف .. لابد أن يكون هذا الذي تبوننه .. شيئاً هائلاً .

عمر - طبعاً .

مریت - هل تظنون فرعونكم يستحق هذا الشيء الضخم !؟

مصطفى - فرعوننا ؟

مریت - الذي تبون له هذا الشيء الذي تسمونه السد .

عمر - ليس لدينا فرعون .

مریت - ليس لديكم فرعون ؟ .. من الذي يحكمكم ؟

عمر - واحد منا .

مریت - عجيبة .. ومن أجل من إنن تعملون السد ؟

عمر - من أجلنا جميعاً .

مریت - (في دهشة) ماذا تقول ؟ ستدفنون فيه جميعاً .. هذا هو السر

إنن .

عمر - (في ذهول) أي سر ؟

مریت - سر الثورة التي حدثت بين الشعب .. لابد أنكم المحرضون

عليها .

مصطفى - محرضون على ماذا ؟

مریت - على المطالبة بحق التمتع بالجنة السماوية كي تصبح حقاً مشاعاً

لكل الشعب على السواء .. أنتم الذين حرضتم على نشر المبادئ الثائرة من

أجل حرية التمتع بالجنة السماوية .

عمر - (لمصطفى) فاهم !؟

مصطفى - ولافاهم حاجة أبدأ . الظاهر أن بها خبلاً .

مریت - (مستمرة) ومن أجل هذا تريدون دفن الشعب كله في مقبرة واحدة مع فرعون .. حتى يذهبوا كلهم معه في السماء .

عمر - (في هدوء) سيدتى .. أرجوك .. نحن لانبنى السد لكى يدفن الشعب فيه .. بل لكى يعيش منه .

مریت - ماذا تعنى ؟

عمر - أعنى أننا نقيمه على النيل لكى نحجز به كل المياه الضائعة في البحر وقت الفيضان .. ونتحكم في استعمالها كما نشاء طوال العام .. ثم نروى بها المزيد من الأرض ونطعم بها المزيد من الناس .. عندنا ثورة ولكن من أجل حق الحياة .. لا من أجل حق الموت والآخرة ، والجنة السماوية .

مریت - (تهز رأسها في دهشة) هذا كلام عجيب .. أشياء عجيبة تدور من حولنا دون أن ندرى عنها شيئاً .. لا بد أن نكون قد بلغنا آخر الزمن .. هؤلاء الناس الذين استقروا في وطنهم .. قد ثاروا من أجل حقهم في الجنة السماوية .. يريدون مشاركة فرعون فيها .. وراحوا يهاجرون إلى الشمال .. إلى حقل القربان في هليوبوليس بعد أن يتسوا من الصعود إلى السماء مع النجوم الثابتة حيث ينعم فرعون وأخصاؤه بالجنة السماوية .

عمر - (في دهشة) يهاجرون إلى أين ؟

مریت - (في تأكيد) إلى الشمال .. إلى حقل القربان في هليوبوليس ، لكى يتمكنوا من الوصول إلى الحقل الجميل على الطريق الطيب .. حتى يتمتعوا بجنة الأرض بعد أن يتسوا من جنة السماء .

مصطفى - (يهز رأسه) يهاجرون إلى الشمال .. أى نعم .. ولكن هليوبوليس .. كثير .. لأنهم قطعاً سيتوقفون في كوم امبو .. وسيمنحون أراضي .. من يدري .. قد يجعلونها جنة الأرض .

مریت - أنتم تعرفون إنن بأمر هذه المؤامرة ؟

عمر - أية مؤامرة ؟

مریت - تحريض الشعب على الثورة .. وعلى الهجرة .

عمر - أما من ناحية الثورة .. فنحن فعلا في ثورة .. ولقد قلت لك إنها من أجل حقنا في الحياة .. من أجل عدالة توزيع الرزق في الأرض .. ومن أجل منع الاستغلال في الدنيا .. أما مسألة حق التمتع بالآخرة السماوية حتى تصبح حقاً مشاعاً لكل الشعب على السواء .. فهذه في الواقع مسألة لم تخطر ببالنا .

مصطفى - ولو خطرت كيف تدبرها ؟

صبحى - يدبرها الله .. إن أكرمكم عند الله أتقاكم .. والجنة للمتقين .. الذين إذا ...

عمر - مفهوم .. مفهوم .. لانظن أن جنة السماء ستكون حكراً على الملوك والأمراء .. حتى تفكر في الثورة من الآن .

صبحى - ملوك .. وأمراء من .. هذا زمن الشعوب .

مریت - (في استنكار) ما هذا الهنيان .. ألم تسمع ما قيل من أن فرعون صعد إلى السماء بين النجوم الثابتة وأنه تأخى مع نجم الشعرى اليمانية .. ونجم الصباح يرشده وكلاهما يأخذان بذراعه إلى حقل القربان ، وكذلك يقال لفرعون

إنك تخترق السماء وتتخذ مسكنك في حقل القربان بين الآلهة الذين ذهبوا إلى أرواحهم .

عمر - (ينظر إلى الساعة في قلق) (لمصطفى) لا بد لنا من العودة .. غير معقول أن تبقينا هذه المخبولة .. لتسمعنا هذا الهديان عن النجوم التي تأخذ بذراع فرعون إلى السماء .. يجب أن نعود .

مصطفى - أعترف أنها خفيفة الدم .

عمر - ليس هذا وقته .

مصطفى - جميلة .

عمر - أرف ميعاد الوردية (لمريت) عن إنك ياسيدتى .. فرصة سعيدة جداً (لصبحي) ياالله ياصبحي .. اسبق بسرعة ، وصبّ المياه في العربة وجهازها .. مع السلامة .

مريت - (في إصرار) أتصيان الخروج بمثل هذا اليسر .. وقد ثبت اشتراككم في المؤامرة ؟

عمر - (في غضب) عدنا ثانية إلى المؤامرة .

مريت - ألم تعترف بنفسك بأن الشعب في ثورة وأنهم سيرحلون إلى الشمال ؟

عمر - قلت إن الشعب كله في ثورة .. ولست أنت التي تحاسبين الشعب على الثورة .. ولا حتى أبوك إن كان فرعون كما تقولين .. أما الرحيل إلى الشمال .. فهذه مسألة لا بد منها ، إذ لا يمكن بقاؤها في هذه الأراضي بعد غرقها .

- مریت - غرقها !! من قال إنها تغرق ؟
- مصطفى - بعد أن يتم بناء السد ، ستغرق هذه الأراضي .
- مریت - (في جزع) من ادعى هذا ؟
- عمر - هذا ليس ادعاء .. هذه حقيقة مقررة .
- مریت - (في شرود) ستغرق أرضنا ؟
- عمر - بما فيها هذا المعبد الذي نقف فيه .
- مریت - (صائحة) هذا المعبد .. يغرق .. مستحيل .. لا تقل .
- مصطفى - (مطمئناً) لا تخافي هكذا ، لن نتركه يغرق .. لقد دبرنا أمر نقله .. إلى هضبة عالية .. تصونه من الغرق .
- مریت - (في ذهول) ينقل من هنا .. حتى لا يغرق !
- عمر - أجل .. لأنه يعتبر من الآثار القيمة .. التي ينبغي صيانتها وحفظها .
- مریت - آثار .. ماذا تعني بآثار ؟
- عمر - نعى مبانى أثرية .. شيدت منذ آلاف السنين .. وهي من التراث القومي الخالد .
- مریت - (في استنكار) آلاف السنين .. أتمزح ؟
- عمر - وأى مزاح في هذا ؟
- مریت - ياسيدي .. النكس .. هذا البناء لم يستكمل إلا منذ بضعة أشهر .

مصطفى - منذ بضعة أشهر !!

عمر - عجيبة !

مريت - أى عجب فى هذا ؟! انظر إلى الجدران .. والنقوش .. أتبدو عليها آلاف السنين ؟

عمر - (يهز رأسه) فى دهشة) لا .

مصطفى - حسبناها رمت .

مريت - (فى استنكار) رمت .. أبدو عليها الترميم ؟

مصطفى - الحق .. لا .

مريت - إننا لم ننته من بناتها إلا منذ بضعة أشهر .. وقد بطل أبى كل ما يملك من جهد حتى أتمه .. قبل أن تتحقق النبوءة .. ولقد أوقف كل تلك الأراضي المحيطة به للقرايين الجنائزية .

عمر - القرايين الجنائزية ؟

مريت - أجل .. لتقديم الطعام الذى لا يد منه للأخرة .. إن طعامنا فى الأخرة هو التين .. وشرابنا النبيذ ، وشدانا العطر .

مصطفى - باسم الله ما شاء الله .. كل هذا سيقدم لكم .. تين ونبيذ وعطر ؟

مريت - (مؤكد) بالطبع .. ألا تصدقان ؟

عمر - نصدق .. تصدق ماذا ؟

مريت - لماذا تبدو عليكما كل هذه الدهشة .. تعال .. (تجره من يده نحو العمر الذى به البئر حيث توجد كوة فى الجدار) انظر .. هذا هو بيت الأبدية ..

كل هذه الحقول وقف على المعبد .. ومنها سيقدم إلينا التين .. والنبيد ..
والعطر .

عمر - (يهز رأسه كأنما يحاول أن يفيق من حلم) هذه أشياء عجيبة .. كأننا
في حلم .. هذه الأشجار والزهور .. والتماثيل المحيطة بالبناء .. والقصر
الأنيق .. فى الأفق .. والبحيرة الجميلة .. والحقول الياضعة .. التى تنتج التين
والنبيد والعطر .. هذه لاينبغى لها أن تكون خرائب وأطلالا وآثاراً ، (ينظر
إلى مريت نظرة جادة) اسمعى ياسيدتى .. لقد بدأ رأسى يدور .. تعالى نجلس
وحدثنا من جديد .. افهمينا .. من أنت .. وسنحاول أن نفهمك من نحن ..
هناك أشياء عجيبة .. لايد أن نفهمها .. أشياء غير معقولة .

مریت - أنا لا أرى بى شيئاً غير معقول .. ولكن أنتم .. هذا السد الذى
تبنونه .. وتريدون أن تغرقوا به أرضنا .

مصطفى - نحن لانقصد إغراق أرضكم ، وقد منحناكم غيرها .. وسننقل
كل المعابد التى ستغرقها المياه .

عمر - ليس بنا شيء غير معقول .. ولكن أنت ياسيدتى .. هذا المعبد
الجديد .. وأبوك فرعون .. وبيت الأبدية .. والأملك الموقوفة على القرابين
الجنائزية .. هذه أشياء وجدت منذ آلاف السنين .. أنت لاتعيشين فى زمننا
ياسيدتى .

مریت - أنا ؟!

مصطفى - أجل .. أنت تبدين كحلم .. أو وهم .

مریت - بكل هذا الواقع من حولى .. بكل هذه الجدران .. والحقول ..
أبدو وهماً .. وأنتما .. بشيائكما المضحكة .. وكل ما تتحدثون عنه من خرافات.

عمر - خرافات .. ألا تصدقين .. أن على الضفة الأخرى سداً بينى ..
وآلاف الناس تعمل ؟

مریت - (تهز رأسها في حيرة) ولماذا؟! بدل أن تقيموا مقابر تقي أجسادكم
وتهيبكم لجنة الآخرة .. تضيعون جهودكم في حائط على النهر تغرقون به
أراضي الآخرين .

عمر - عبتاً نحاول إفهامك .. لماذا لاتأتين معنا ؟

مریت - أين ؟

مصطفى - (فرحاً) إلى الضفة الأخرى .

عمر - لترى بعينيك ماذا نفعل .

مریت - غير معقول .. (تفكر في حيرة) .

(يسمع وقع أقدام ثم ترى سخمت خادمة مریت) .

سخمت - سيدتى .. سيدى الأمير حور يستعجلك .

مریت - حور .. (لعمري) إنه أخى .. يستعجل حضوري (للخادمة) قولي
له أن يذهب .. سألحق به في القصر .

سخمت - (لاتنصرف بل تنظر إلى عمر ومصطفى في دهشة) أحتاج
سيدتى إلى خدمة ؟

مریت - (مضطربة) لا ياسخمت .. إن السيدين غريبان وكانا يطلبان
جرعة ماء .. لا ضرورة لأن تخبري حور عنهما .

(سخمت تنصرف وقد بدا عليها الارتياح) .

مریت - منظرکما مریب .. مریب جداً .. ولن یصدق أحد هذه الخرافات
التي تحکونها .. والبلاد فی حالة غلیان .. الثورة .. والهجرة .. وكل غریب
هنا یدعو إلى الریبة .

عمر - ولكنك أنت .

مریت - أنا ماذا ؟

عمر - لم تعودى ترتابین بنا .

مریت - وماذا بهم ؟

عمر - أبداً .. الإنسان یحب دائماً أن ینصف نفسه .. لاداعی لأن ترتابی
بنا بغير مبرر للریبة .

مریت - أشعر أنکما مخلصان .. ومانقولانه یقتعنی إلى حد ما .. ثورة
الشعب من أجل حق الحیاة .. أولى من ثورته من أجل حق الآخرة .. والمد
للحیاة .. أولى من المقابر للجثث .. أشياء كثيرة فی حیاتنا كانت تقلقنی ، وقد
زادنی کلامکما قلقاً منها .

مصطفى - وستأتین معنا .. لترى واقعنا .. كما رأینا واقعک .

مریت - لست أدرى .

عمر - لماذا .. ألا تتقین بنا ؟

مریت - أنا أتق بکما .. ولكن کیف أقنع من حولی أن یثقوا بکما .

(تسمع صوت خطوات مقتربة .. ثم یدو حور وراءه سخمت وتابع
آخر) .

مریت - (تخفی عمر ومصطفی) . اختبنا أرجو كما .. إنه غيور وقاس ..
وليس من وقت لتفسير وجونكما .

(يختبىء عمر ومصطفى وراء باب)

حور - هيا يامریت .. إن أبى فى انتظارنا .. إنه شديد القلق .. بعد أن
اجتمع بالوزير موس .. الذى أنبأه عن اضطرابات حدثت .. وأن الشعب
يطالب بالتمتع بالآخرة السماوية .. وقد بلغنى أن بعض الجواسيس قد تسربوا
إلى البلد آتين من الشمال .. لكى يشيعوا الاضطراب فى البلد .. توطئة للغزو
الذى تحدثت عنه النبوءة .

مریت - كلام فارغ .

حور - بل كلام أكيد .. لقد أمرت بإجراء تفتيش دقيق .. هيا بنا .. حتى
لايزداد قلقه .

مریت - إنى آتية .. سألحق بك حالا .

(يخرج حور ووراءه التابع .. وتبقى سخمت)

سخمت - (فى قلق) : سينتى .. هذان الغريبان اللذان كانا يقفان هنا فى
المعبد .

مریت - مالهما ؟

سخمت - إنى أخشى أن يكونا ..

مریت - لاتخشى شيئاً .. ولاتقولى شيئاً لأحد .

سخمت - أوائقة أنت ياسينتى ؟

مریت - أجل .. أجل .. اذهبى أنت وسألحق بك حالا .

(تخرج سخمت .. ويظهر عمر ومصطفى)

مریت - اخرجنا بسرعة .. وانصرفا .. قبل أن يراكما أحد .

عمر - سينتى .

مریت - نعم .

عمر - لم أعرف اسمك بعد .

مریت - اسمى مریت .

عمر - واسمى عمر .

مریت - عمر .

مصطفى - وأنا مصطفى .

عمر - (ينظر إليها فى إعجاب شديد) مریت .

مریت - (تنظر إليه برهة .. ثم تبتم) تتطرق باسمى بطريقة جميلة ، قلّه ثانية .

عمر - مریت .

مریت - (ضاحكة) لم أعرف أن له هذا الرنين .. (فى قلق) اذهبنا بسرعة .

عمر - ماذا دفعك إلى الثقة بنا إلى هذا الحد .. بعد كل ما سمعت عن الجواسيس الذين يبحون عنهم ؟

مریت - جواسيس (ضاحكة) أنتما أغبى من أن تكونا جواسيس .

مصطفى - شكراً .

عمر - ستأتين إلينا ؟

مریت - ربما .

عمر - عدینا .

مریت - فی یوم ما .

مصطفى - قریباً ؟

مریت - أجل .. أجل .. اذهبنا قبل أن یعود حور ویقبض علیكما ..
اذهبنا .. إنه غیور .. وقاس .. مع السلامة .

(عمر ومصطفى یخرجان)

عمر - سنلتقی ثانية ؟

مریت - أجل .

(ستار)

الفصل الثانی

قدرة .. قارو

المنظر الأول

(موقع السد .. جسم المد ، مكان الردم في
الصنادل . على شاطئ النيل .
(الوقت ليلا وتبدو في المواجهة الشرفة
الخشبية الممتدة فوق الجرف حيث تبدو للواقف
عليها أصال تفريغ الصخور من اللوريات في آلة
الفرز ثم تعبأ في الصنادل كي تفرغها في موضع
جسم المد . وفوقها وقف المهندسين قنرى يرقب
العمل ، وعلى اليمين كشك خشبي صغير يقف
ببابه مساعده جمال .. تسمع أصوات اللوريات
مختلطة بأصوات قذف الصخور وصوت دوران
آلة الفرز . وعلى اليمين تبدو لافتة كتب عليها :
يا بناء السد باق ١٢٠ يوما .. يقبل عيد الغفار
الملاحظ معفر الثياب ويصيح وسط الضجيج
مخاطباً جمال)

- عبد الغفار - لورى ٢٤ معطل في مدخل النفق .
- جمال - شغل بدله لورى من الورشة ، وأسحبوه من الطريق بسرعة .
- عبد الغفار - ومن يشتغل عليه ؟
- جمال - عندك عبد الوارث .
- عبد الغفار - دخل المستشفى .
- جمال - له .. ماذا به ؟
- عبد الغفار - أمس وهو يلف بعربته بعد أن أفرغ حمولته .. ضربته عربة خلفه من فرط عجلتها .. وقد ضغط الدركسيون على صدره .. واستمر يعمل حتى آخر الوردية .. وهو يشعر بالألم في صدره .. وقرب الفجر لم يستطع مقاومة الألم .. وذهبوا به إلى المستشفى فاتضح أن ضلعين من أضلاعه مكسوران
- جمال - مسكين .. كان ينبغي عليه أن يكف عن العمل بمجرد أن أحس بالألم
- عبد الغفار - لا أحد هنا يريد أن يكف عن العمل .
- (يقبل المهندس قدرى من فوق الشرفة وفي نفس الوقت يصعد السائق صبحى من أسفل المنحدر ليلتقيا أمام الكشك الخشبي)
- قدرى - ماذا هناك ؟
- جمال - محتاجون لسائق .
- صبحى - أنا مستعد .
- عبد الغفار - لم يحل بعد موعد وريدتك .
- صبحى - قلت لك إنى مستعد .
- جمال - إنك لم تسترح بعد من الوردية السابقة .
- صبحى - استرحت .. وكان المفروض أن أسوق للباشمهندس عمر العربية الجيب فى مشوار خصوصى .. ولكنه زاغ وحده مع المهندس مصطفى .

قدرى - زهاب إلى أين ؟

صباحى - (يرفع كتفيه فى استنكار) وماذا عرفنى .. من عانتى عندما أسوق ...

جمال - (مقاطعاً) انتهينا .. إذا كنت مستعداً للعمل فإذهب مع عبد الغفار.

صباحى - (لعبد الغفار) .. مستعد جداً .

عبد الغفار - هيا بنا بسرعة .

(يسرعان بالخروج .. قدرى وجمال يسيران نحو الشرفة)

قدرى - أطوار عمر هذه الأيام غريبة .

جمال - كيف ؟

قدرى - ألا تراه دائماً شارد الذهن .

جمال - قد يكون هناك ما يشغله ، من منا بلا مشكلات .

قدرى - وماذا يمكن أن يكون لديه من مشكلات .. أعزب .. خالى

القلب .. خالى البال .

جمال - ربما كانت صحة أمه هى التى تشغله .. لقد كانت مريضة فى

الشهر الماضى .

قدرى - أمه على خير حال .. لقد أنبأنى أنها حضرت لزيارته هى وأخته

التي تعمل فى الإذاعة .. وهما تقيمان معه فى مسكنه .

جمال - قد يكون هذا ما يشغله .

قدرى - لا أظن .. لقد كان اليوم حريصاً على الانصراف بسرعة بعد

الوردية ، وأنت تعرف تسكعه معنا .

جمال - (مؤكداً) لأنه يريد أن يذهب إلى البيت .. لأمه وأخته .

قدرى - ألم تسمع من السائق صبحى أنه ذهب مع مصطفى فى مشوار خصوصى
جمال - لا تصدق هذا الغبى .

قدرى - أنا أعرف أن لهما اختفاءات مريبة هذه الأيام .. وهو يعود منها
دائماً شارداً الذهن .. وهذا الذى تظنه غيباً .. لا شك يعرف كل شيء .

جمال - يا شيخ .. بلا أوهام .. أى مجال تظنه هنا للاختفاءات المريبة ؟
(يتوقف قدرى وينظر أسفل المنحدر حيث يرى عمر ومصطفى ومعهما سيده)

قدرى - انظر .. ها هما قد عادا ، ومعهما فتاة .

جمال - قد تكون أخت عمر .

(يدخل عمر ومصطفى صاعدين من المنحدر تصاحبهما مريت وقد ارتدت
ملابس عصرية ويقتربون من الشرفة)

عمر - مساء الخير .

قدرى - أهلاً .. مساء النور .

مصطفى - سنلقى نظرة من الشرفة لنعطىها فكرة عن العمل هنا .. بعد إنك .

قدرى - تفضل .

(يتقدم عمر وهو يمسك بيد مريت ووراءهما مصطفى نحو الشرفة)

(قدرى ينظر إليهم وهم يسرون ثم ينظر إلى جمال نظرة ذات معنى ثم
يحدثه بصوت لا يسمعه الباقون)

قدرى - إنن هذا هو السبب .

جمال - وكنت تظنه خالى القلب .. خلى البال .

قدرى - لم يقل لى كلمة عنها .

جمال - لطيفة !

قدرى - فقط ؟ .. إنها تحفة .

جمال - أين عثر عليها ؟

قدرى - اصطادها من بين المعابد .. لا بد أنها تزور الآثار .. حلال عليه .

جمال - ولكن لماذا تتهمه هو فيها .. أليس من المحتمل أن تكون تبغ مصطفى

قدرى - لا أظن .. كل هذا الاهتمام .. وتكون تبغ مصطفى .. أنت تعلم

تقل عمر .. ليس من السهل أن يطوي ، ولكنه مع صاحبتنا يكاد يحملها من

فوق الأرض .. هيا بنا نرى اللوريات .

جمال - هيا .

(مريت تقف على الشرفة متكئة على السور الحديدى بين عمر ومصطفى

وقد بدا عليها الذهول وهى تتطلع إلى من حولها)

مريت - أهذا هو ليكم ؟

عمر - أجل .

مريت - ولكن لماذا .. لماذا قلبتموه نهراً ، وكيف ؟

عمر - لماذا ؟ لأن نهارنا لم يعد يكفى .

مريت - يكفى ماذا ؟

عمر - ما نريد أن ننجزه .

مصطفى - (مشيراً إلى اللافتة) . لا بد أن تنتهى المرحلة الأولى .. قبل

أن تنتهى أيام هذه اللافتة .. نحن فى سباق مع هذه اللافتة .. كل يوم ينقص

منها .. لا بد أن نضع فى النهر آلاف الأطنان من الصخور .

عمر - ولا بد أن نحفر من باطن الجبل .. وأن تبني من الأنفاق .

مريت - ومن يكرهكم على هذا .. من يدفعكم إلى هذه الحركة الجنونية ..

بلا سياط تلهب الظهور ؟

عمر - أشياء كثيرة .. أولها إرادة التحدى .

مریت - تحدى من !

عمر - تحدى الزمن الذى تركنا نغفو .. والعالم يطير .. والذى يحمل إلينا النسل .. ويقبض يده بالرزق .

مصطفى - وتحدى المستخفين بنا .. الهازئين منا .. المنكرين لحقنا فى الحياة الكريمة .. الذين يؤكدون من أن لآخر .. أننا لن نقيم السد .

مریت - ومن هؤلاء .. ولماذا ينكرون عليكم حق الحياة !

عمر - تاريخ طويل يامریت .. لقد استعبدنا كثيراً ، لقد استغلت أراضينا وجهودنا .. واستنزفت مواردينا .. ولم يترك لنا سوى الفتات .. وعندما ثرنا من أجل حقنا فى الأرض وحقنا فى نتاج الجهد والعرق ، لم يكن من السهل أن يترك المستعبد ما أنشأ فيه أظافره طوال قرون الاستعباد .. ولما أردنا أن نبني هذا السد نبحت عن إشراقة المستقبل لم يكن لنا منه إلا مزيد من القيود .. وفى الشمال لنا قناة حفرناها بأيدينا وأسناننا .. وبالسياط على ظهورنا .. ولما قلنا نأخذ إيرادها من أجل بناء هذا السد .. عاد هذا المستعبد يريد أن يغزو ديارنا ، ويدمر أراضينا .

مریت - (فى جزع) وماذا فعلتم ؟

مصطفى - طربناه .. وأثرنا العالم كله عليه .. وخرج ثليلاً كاللص متلبساً بجريمته .

عمر - وبدأنا نشيد السد بأيدينا ، وبمعاونة أصدقاء كرماء ، لم يضعوا لمعونتهم قيداً ولا شرطاً .

مریت - وما حاجتكم الشديدة إلى هذا السد ؟! لماذا أنتم حريصون على إقامته كل هذا الحرص ؟

عمر - حريصون عليه من أجل حياة أبنائنا .. الذين يتكاثرون على الأرض يوماً بعد يوم .. ومياه النيل تهدر في البحر .. والأرض الطيبة جرداء قاحلة محرومة من المياه الضائعة .. التي تنبت الزرع .. وتمنح الحياة .

مریت - وماذا يجرى هنا على الجرف .. ما هذه الصخور التي تقذف من العربات .. وماذا يفعل بها .. وإلى أين تحملها المراكب ؟

مصطفى - الصخور تحملها اللوريات من الجبل لتفرغها في الصنادل لتلقى بها في عرض النهر لإقامة السد .

عمر - وهذا الغريبال الحديدي الذي يبدو أسفلنا لا يبقى به سوى الصخور الكبيرة التي تفرغ في الصنادل .. أما الصخور الصغيرة والأترية فتحمل لتلقى في أمكنة معينة من جسم السد ، الذي يبدو هناك حيث تقف الصنادل لتلقى بصخورها .. وقد بدأ سطحه على وجه الماء من ناحية الشاطئ حيث تقذف إليه اللوريات بالصخور مباشرة .

مریت - أشياء عجيبة .. وماذا يحدث عندما يقوم السد في النهر ؟

مصطفى - سينحدر المجرى في قناة جانبية محفورة في الجبل حول المكان الذي أقيم به السد .

عمر - عندما تنتهي من مشاهدة أعمال الرجم .. سنذهب إلى هناك لنشاهد حفر القناة .. وبناء الأنفاق .

مریت - كل هذا عجيب .. عجيب .. ولكن أعجب منه هؤلاء الناس المتلهفون على العمل .. انظر هذا اللوري يكاد يدفع الذي أمامه ليحل محله .. وهذا المركب يقف على أهبة الاستعداد لا يكاد الذي أمامه يتحرك خطوة .. حتى يندفع ليحل مكانه في هذه الخطوة .. كأي بكل منهم يخشى أن تضيق منه لحظة بلا عمل .

عمر - إنهم فعلاً كذلك .

سريت - وبلا فرعون .. رمز القوة ، وبلا أعوان له ، يلوحون بالإرهاب .
عمر - بل بزعيم .. رمز حب ، وخير وعدل وحق .. وبأعوان ..
يلوحون بالمثّل الطيبة والتواضع والعمل .

مصطفى - نحن كلنا نتحرك كتلة واحدة .

مريت - (تهز رأسها في إعجاب وتبتسم) .

عمر - لماذا تبتسمين ؟

مريت - يبدو لنا .. أنه قد آن الأوان لنا .. نحن أجدانكم الفراعنة - كما
تصرون على الزعم - بأن نفاخر بأحفادنا .. إنكم حقاً شيء يستحق الفخر ..

مصطفى - لقد طالما فخرنا بكم .. بحضارتكم .. بتقدمكم .. بتفوقكم ،
بتوركم الذى شع فى عالم الظلمات وقد آن لكم أن تردوا لنا هذا الافتخار .

عمر - (محدقاً فى وجه مريت بإعجاب) أنا شخصياً .. لم أحاول أبداً
التفاخر بأجدادى .. إلا بعد أن رأيتك .

مريت - أنا !؟

عمر - أنت جده خطيرة .

مريت - أغزل هذا ؟

عمر - ولم لا .. إنى أحس بخطورتك فعلاً .

مصطفى - ومنذا الذى لا يحس بها !

مريت - والفواصل الزمنية بيننا ؟

عمر - كل الفواصل الزمنية تتهاوى أمام عينيك ..

مريت - أسمح الغزل عندكم .. فى وسط هذه المعمة من العمل ؟

عمر - نحن فى الراحة .. لقد انتهت وريدتنا .

مریت - (تلمح صبحی فجأة يدير عربته ليفرغ الصخور) .. الله .. أليس هذا .. زميلكم الذي كان يحمل الصفيحة ؟

عمر - (ينظر في انزعاج) أجل . إنه صبحی .. تعالى قبل أن يراك .. حتى لا يثير لنا مشكلة .

(قبل أن تتحرك يلمحها صبحی من أسفل ويسمع صوته صائحا)

صبحی - الله .. ما هذا ؟ .. مساء الخير ياسبت .. مساء الخير .

(يترك صبحی العربية ويسرع إلى الشرفة)

صبحی - أهكذا يا باشمهندس تخلى بي .. وتتركنى .

(يبدو قدری وجمال مقبلين) .

مصطفى - (يحاول أن يسكت صبحی) اسمع يا صبحی .. اذهب الآن إلى العربية .. وسأراك غداً .

صبحی - يا باشمهندس العربية تفرغ حمولتها .. دعنا نسلم على الست .. أهلا وسهلا .. الموقع نور .

مریت - أهلا بك .. كيف حالك ؟

(يسلم على مریت في حرارة)

صبحی - رضا (ينظر إليها في إعجاب) يا ماشاء الله .. هكذا والافلا .. هذا أحسن كثيراً من ثوب التمثيل المخطط الذي كنت ترتدينه .. طول عمري .. لا أحب ثياب الرقص .. حتى ولو كانت حشمة .

(قدری وجمال يسمعان كلام صبحی من بعيد فتبدو عليهما الدهشة)

قدری - صاحبتك طلعت راقصة .. ألم أقل لك إن هذا الغبي يعرف كل

شيء .

جمال - ترى من أين التقطها عمر ؟

قنرى - ياماتحت السوامى دواهى .

(مصطفى فجر صبغى من يده هابطاً به إلى العربة حتى يتخلص منه)

مصطفى - تعال .. تعال إله يهديك .. اطلع بالعربة حتى لا يتعطل العمل .

صبغى - يا باشمهندس .. لا بد أن نعمل الواجب للست .. لقد أكرمتنا

هناك .. فى بيت والدها المعلم فرعون .. وكنا نظنه بيت الله .. ملأت لنا

الصفحة .. أفلا أقل من أن ندعوها لفنجان قهوة .. أو زجاجة كازوزة ؟

مصطفى - بعدين يا صبغى ، بعدين .. تعال .. تعال ..

(يهبطان إلى العربة)

قنرى - (لجمال) والدها المعلم فرعون .. يعنى اسمها .. حاجه ..

فرعون .. هل سمعت بهذا الاسم من قبل ؟

جمال - لا .

قنرى - ربما كان لها اسم شهرة .. زمبلك .. أو كيت كات .. أو أى شىء

من هذا القبيل .

جمال - ربما .

(يهبط عمر ومريت من الشرفة ويصعد مصطفى وحده بعد أن تخلص من

صبغى ويلتقون بقنرى وجمال)

قنرى - أنتهيتم ؟

عمر - أجل .. أعطيناها فكرة سريعة .

جمال - لم نتشرف بالتعرف على الأنسة بعد .

عمر - (مرتكبا) الأنسة .. مر .. مريم .

قدرى - مريم فرعون ؟

مصطفى - (فى زمول) كيف .. كيف عرفت ؟

قدرى - ومن الذى يجهلها .

عمر - (يجر مريت من يدها فى عجلة) .. عن إنكمم .. لابد أن تذهب

إلى الأنفاق وننتهى منها بسرعة .. السلام عليكم .

(ينحدر الثلاثة)

عمر - (لمصطفى) مريم فرعون . اسم معقول .. هذا الغبى صبحى كاد

يفضحنا .. كان يجب أن ننبه عليه .

مصطفى - لم تكن نتوقع أن نراه مطلقا .

عمر - الحمد لله أن لحقناه قبل أن يفضحنا .. لو قلت لهم ما حدث لاتهمونا

بالجنون .

مصطفى - أو بالتحشيش .

(يخرج الثلاثة هابطين إلى العرية)

قدرى - (يهز رأسه فى حيرة) مريم .. بنت المعلم فرعون .

جمال - وكانت ترتدى ثياب الرقص .

قدرى - لا يبدو عليها أبدا أنها راقصة .. إنها تتحرك كأميرة .

جمال - بأستاذ .. الراقصة .. تتحرك أفضل من أميرة .. إنها محترفة

حركة .

« ستار »

المنظر الثاني

(فى مدخل القناة المحفورة فى الجبل . على
الجانبين يبدو الجداران العاليان المنحوتان فى
الصخر وفى المواجهة حائط الاسمنت الضخم تبدو
فيه فتحات الأنفاق التى ستوضع عليها بوابات
الصلب التى تنظم حبر المياه) ..

(معركة العمل على أشدها تبدو من بعيد فى
الأنفاق .. يسمع صوت نسف الصخور والآلات
القاضمة للصخور فى مقدمة الوادى المحفور الذى
لا يبدو للمشاهدين) ..

(تدخل مريت وعمر ومصطفى يتقدمون تجاه
الأنفاق ثم يتوقفون برهة ينظرون الجدران الشامخة
ويرقبون عملية تحطيم الصخور) ..

عمر - هذا هو مدخل القناة التى حفرت فى الجبل لتدور حول المنطقة حيث
أقيم السد وتنتهى إلى النهر مرة أخرى ليتحوّل فيها مجرى النهر بعد أن يغلق
السد مجراه الأصلي .

مصطفى - ومن هنا حفرنا القناة فى الجبل حتى هذا الجزء الذى تبدو منه
مداخل الأنفاق . ثم شقت الأنفاق داخل الصخر لمسافة معينة يبدأ بعدها الجزء
الذى حفر فى الجبل من الناحية الأخرى ليتم مخرج القناة إلى النهر .

عمر - وعلى فتحات النفق ستوضع بوابات الصلب الضخمة التي تحجز المياه لكيلا تهدر في البحر وقت الفيضان وتخزنها وراء السد في بحيرة شاسعة تغمر كل الأراضي التي وراء السد .

مصطفى - بما فيها الأراضي التي تقطنونها .

مریت - والمعبد .. وكل شيء ؟

عمر - (يهز رأسه موافقاً) أجل .. كل ما وراء السد .

مریت - (في دهشة) أتغرقون البلاد كلها .. لكي تخزنوا المياه فوقها .. لمة .. ومن أجل من ؟

عمر - من أجل الملايين المكسدين فوق شريط ضيق من أرض خضراء ، تروى بما يشبه النشع من مجرى النيل .

مریت - ولكن لماذا لا يعملون لكي يزرعوا بقية الأرض ؟

مصطفى - أي أرض ؟

عمر - يا مریت .. مشكلة عالمنا لم تعد الجهد .. بقدر ما هي مشكلة أين يبذل الجهد .. لم تعد أزمة الإنسان الذي يزرع الأرض .. ولكنها أزمة الأرض التي تطعم الإتمان .. لقد اعتصرت الأرض .. اعتصرت عصرأ .. اعتصرت فحمها وحديدتها وبترونها .. والقوة البشرية تزداد وتتكاثر ، والأرض تعتصر خيراتها .. وتضيق رقعتها .. والمحاولات تبذل لمزيد من الاعتصار والاستغلال .

مریت - (تهز رأسها في حيرة) لا أستطيع أن أصدق .

مصطفى - بل لقد بدأ البحث عن بديل للرقعة الأرضية .. في كواكب السماء .

مریت - البحث في السماء .. السماء لا تحتاج إلى بحث .. جنتنا

موجودة .. نحن نعرفها جيداً .. إن مأوانا ..نحن المختارين .. فى السماء بعد أن ينتهى مصيرنا فى الأرض .

عمر - لا نقصد هذا .. نحن نبحث فى السماء عن بديل للأرض .. عن مقر لأجسامنا .. لا لأرواحنا .

مصطفى - (ضاحكاً) مقر الأرواح ليس من اختصاصنا .. بل من اختصاص من يأخذ تلك الأرواح يضعها حيثما شاء .. إنما الذى يشغلنا الآن هو مصيرنا على الأرض .. مصير هذه الأفواه الجائعة ، والأجساد التى لا تنتهى حاجاتها .

مريت - (تنظر حولها فى استغراب) عجيب .. أنتم إذن أغرقتم أرضنا لكي تجعلوها مخزناً للمياه .

عمر - لم نقصد أن نغرقكم ، ولكن لم يكن من هذا بد .. والمياه المنقذة المختزنة ستوزع على الوادى كله .. بما فيه أنتم .. أنتم أنفسكم .. ستفيدون منه بعد رحيلكم .

مريت - لا تقل رحيلنا .. أنت تعرف أننا سنبقى .. نحن نعرف مقرنا جيداً .. فى الأرض وفى السماء .

عمر - (ينظر إليها فى شغف) ليت مقرك معنا .

مريت - (تلتفت إليه وتنظر إليه فاحصة) أتريدنى معك حقاً ؟

عمر - (هامساً) لا أظننى أحسست أنى أريد أحداً معى .. كما أحسست بك

مريت - (ببساطة) وأنا أيضاً ، ولكن كيف .. كيف يستقر أحدنا مع الآخر .. وهو أكلوبية فى واقعة .. كيف نعبّر هذه القرون .. كيف نجتاز هذه الهوة من الزمن .. من منا .. سيقفز إلى الآخر .

عمر - كل ما أعرفه أنك أصبحت حقيقة بالنسبة لى .. أصدق من كل هذه الحقائق التى تحيط بى .

مريت - (تتنهد فى عمق) كيف .. كيف أفر من واقعى .. وأبقى معك ..
ماذا تقول عنى .. كيف تفسرنى ، إنى أسير معك وكأنى جريرة ، تحتاج إلى
ستر .. أو لغز يحتاج إلى تفسير .

(تبدو صفية أخت عمر قادمة من ناحية الأنفاق ومعها مجموعة من الزملاء
والزميلات وزوار السد .. عمر يلحها فيبدو عليه الارتباك) .

مصطفى - (محتراً) عمر .. صفية قادمة .. هى وثلتها .. خذ حذرك ..
يجب أن نستعد لتقديم التفسيرات .

عمر - أجل .. أجل . لاينبغى ألا نؤخذ كما أخذنا مع قدرى وجمال .
مصطفى - على أى حال .. الغبى صبحى ليس هنا حتى يثير الفضائح والمشكلات
عمر - من يدريك .. ربما هبط علينا .. وهو يقود عربة محملة بالصخور
من مدخل القناة .

مصطفى - على أية حال يجب أن نتفق على التفسيرات .

مريت - ألم أقل لك .. إنى بت معكم كالجريرة .. أو كاللغز .. أحتاج إلى
إخفاء أو تفسير .

عمر - أبدأ .. مجرد أن نتفق على شىء نعرفك به .. وننتهى .

مصطفى - اسمها .. انتهينا منه .. مريم فرعون .. انكريه جيداً .

مريت - أمره سهل .. إنه يكاد يكون اسمى فعلاً .

عمر - وأنت ضيفة .. ونحن نشرح لك العمل فى السد .

مريت - مسألة يسيرة .

مصطفى - ولكن ماذا تعمل ؟

مریت - ضرورة أن أعمل شيئاً ؟

مصطفى - أعتقد .. نساؤنا كلهن يعملن الآن .

عمر - تعمل .. تعمل .. في مصلحة الآثار .. خريجة قسم الآثار .. هذا أسهل شيء .. أظنك تعرفين عن أهلك أكثر مما يعرف أى خريج فى الجامعة .. وأى أستاذ للآثار .

مصطفى - بل أحسن .. من الأب نريتون .. ومن سليم حسن .

عمر - ولكن احذرى أن تتحدثى عنهم كأنهم حاضر .

مصطفى - أجل .. أجل .. قولى دائماً .. كانوا .. كانوا منذ زمن طويل .. من آلاف السنين .. مفهوم ؟

مریت - (تهز رأسها فى خوف) سأحاول .. ولكن أرجو ألا يسألونى كثيراً

عمر - لاتخشى شيئاً .. تحدثى عن المعبد ، وعن جنة الأرض فى حقل القربان الذى يذهبون إليه من طريق القنوات المتفرعة من النيل .

مصطفى - وحدثيهم عن الحقل الجميل الذى على الطريق الطيبة .

عمر - وعن ثورة الشعب من أجل المطالبة بالتمتع بالآخرة السماوية .

مصطفى - أى شيء من هذا الذى قلت لنا .. سيجعلك عالمة آثار .

عمر - ولكن تنكرى .. منذ زمن سحيق .. منذ آلاف السنين .

مصطفى - ولاتكثرى الدهشة .. كفى عن الانبهار .. والاستغراب .. خذى

كل شيء فى يسر .. كأنك تعرفينه . وانكرى أن إنسان هذا العصر .. قد فعل

كل شيء .. حتى الانطلاق فى السماء والدوران حول الأرض .

مریت - (تهز رأسها فى حيرة) لأصدق .. لأصدق أبداً .

عمر - حدث والله .. صدقيه من أجل خاطرى .

مصطفى - تظاهرى بالتصديق .. حتى لا تفضح .

عمر - انتهينا .. لا تستغبرى شيئاً .. وتحثى عن أهلك كما تحثين على أنهم أشياء قديمة .. وجدت منذ آلاف السنين .

مصطفى - مفهوم ؟

مریت - سأحاول .. سأبذل كل جهدى .

(تقترب صفية .. وهى تحمل جهاز تسجيل صغيراً ، وفى يدها الميكروفون .. وتبدو فرحتها بقاء مصطفى واضحة) .

صفية - هاى .. عمر .. هالو مصطفى .. ماذا تفعلان هنا ؟

(مصطفى يقبل عليها فى فرحة ولهفة) .

مصطفى - هذا مقر عملنا .. ماذا تفعلين أنت ؟

صفية - أسجل بعض اللقطات لبرنامج جديد اسمه «مع العمالقة» .. لقد سجلت بعض لقطات فى النفق مع العمال والمهندسين .. وأسجل لكم بضع دقائق .. أهنئك مانع ؟

مصطفى - أبداً .. أبداً .

صفية - (تنظر إلى مریت مستفسرة) الأنسة ؟!

عمر - الأنسة .. مریم فرعون .. مهندسة آثار .

صفية - أهلاً وسهلاً .. أنسة مریم .

عمر - (مقدماً صفية) أختى صفية .. بالإذاعة .

مريت - (تهز رأسها كأنها تفهم) أهلا .

صفية - فرصة جميلة أن نسجل لمهندسة آثار .. رأيها .. فى أهرام القرن العشرين .. يمكنها أن تعطينا مقارنة لطيفة بين .. معجزة الفراعنة ، ومعجزة أحفادهم .

(صفية تقرب بالميكروفون من فم مريت .. مريت لا تعرف ما المقصود بالميكروفون ، ولكنها تنظر إليه كأنها تعرف .. ثم تنظر إلى عمر مستعينة لعله يرشدها إلى ما يمكن أن نفعله بالميكروفون الذى اقترب من شفيتها .. عمر يحرك شفتيه لكى يفهمها أن عليها أن تتكلم فتظن مريت أنه يحرك شفتيه علامة الأكل .. ولا شك أن الميكروفون شيء يؤكل .. وتفتح شفيتها وببساطة تقضم الميكروفون وتحس بصلابته فتتألم .. ولكنها تكتم ألمها ودهشتها) .

(صفية تصيح وتسحب الميكروفون من فم مريت .. مريت تنظر إلى عمر لعله يرشدها إلى ما ارتكبته من خطأ) .

صفية - الميكروفون .. ما هذا ؟

عمر - (متضاحكا لصفية) لماذا تصرخين هكذا ؟ .. إن مريم تحب المزاح .

صفية - مزاح .. لدرجة أكل الميكروفون !

مريت - (تبتم ببساطة) لا تخشى عليه .. فأنا قطعاً لا أستطيع قضمه .

صفية - طبعاً لا تستطيعين .

مصطفى - (محاولاً تغطية الموقف ، يفرق فى الضحك) . دعها خفيف .

صفية - (تنظر إليهم في غيظ) خفيف جداً .. (لمريت) أنبدأ الحديث ؟
مريت - طبعاً .

عمر - (يتناول الميكرفون) هاتي ياصفية .. سأسسكه لك .. (لمريت)
تكلمي يا مريم .. دعى الميكرفون لى ، تكلمي .. فقط .
مريت - (تهز رأسها علامة الفهم) .

صفية - (فى الميكرفون) سيداتى ساننى .. معنا الآن الأنسة مريم
فرعون .. خريجة قسم الآثار .. لقد التقينا بها هنا أمام الأنفاق على قاع
المجرى الجديد للنهر .. فى الوادى الذى شقه عمالقه المد فى الصخر .. مساء
الخير يا أنسة مريم .
مريت - مساء الخير .

صفية - أيمن أن تحدثينا كدارسة لآثار الفراعنة .. عن إحساسك ، وأنت
تقنين أمام هذه المعجزة الجديدة لأحفاد الفراعنة ؟

مريت - (تنظر إلى عمر ومصطفى فى شىء من الحيرة .. هل تبدى
دهشتها أم لا تبدى) .

عمر - (لا يستطيع التحدث والميكرفون يسجل .. ويهز رأسه مشجعاً
إياها على الحديث .)

صفية - طبعاً شىء بيعث على الدهشة .. على الذهول !

مريت - (تنظر إلى عمر بعد أن حذرهما من إبداء أى دهشة) .

عمر - (يشجعها على الكلام بهز رأسه) .

مريت - هذه أشياء تبدو غير بشرية .. أشياء لا تصنعها إلا الظواهر الطبيعية .. أو بلغة أخرى لا تصنعها غير الآلهة .. يعنى أن يشق الجبل ، ويحوّل النهر عن مجراه .. أشياء غير متوقعة ولا مطلوبة من البشر .. قد تأتي بالدعوات والصلوات .. للآلهة الكبيرة .. أما أن يفعلها البشر .. بطريق مباشر .. فهذا شيء لم نعتده من قبل .

صفية - الأنسة مريم .. تتحدث بلهجة الفراعنة .. تتحدث عن صلواتهم للآلهة .. واعتقادهم في أنها قادرة على أن تدك الجبل .. وتحوّل النهر .

مريت - ولكنكم .. أعنى ولكننا فعله الآن بأيدينا .. أبصر الآلة الضخمة تقضم الصخر .. كأنها الغول يقضم قطعة اللحم .. وأرى نفسى أفق فى قاع الوادى الذى شقه الإنسان بالآته .. وبأيديه .. وأسنانه .. الوادى الذى سيصبح بعد فترة قاعاً للنهر .. وأحس بفراط قدرة الإنسان .. بقوته .. بعظمته .. إنه أقوى كثيراً من تلك الآلهة .. التى عبدناها .. (عمر ينظر إليها محذراً فتقول مستدركة) التى عبدناها منذ آلاف السنين .

صفية - الظاهر أنك متأثرة جداً بدراستك .. وبهذه المناسبة وما دامت دراستك للفراعنة تغلب دائماً على حديثك .. ماذا تتصورين إحساس أحد الفراعنة لو أنه وقف وقفنا هذه .. ماذا يمكن أن يقول ؟

مصطفى - (يفرك يديه فرحاً) أهلاً وسهلاً .. انطلقى ياست مريم .

عمر - (لمصطفى) فرجت .

مريت - لو أن فرعون ، وقف وقفنا هذه ...

صفية - أجل .. تصورى .. مجرد تصور .

مريت - (تنظر إلى أعلى للجداران الشاهقة الممتدة فى الصخر) هذا

الجبل الذى شق ، والنهر الذى سد ، والمجرى العتيق القديم قدم التاريخ الذى تحول .. بقدره قادر . والقادر ليس آمن ، ولا أتون ، ولاست ، ولكنه هذا الشعب .. شعبنا القادر على طول الزمن .. بسيط .. هادى .. طيب ، ولكنه قادر .. مسخر .. قادر ، وحر قادر . مازح قادر ، وجاد قادر ، تكمن ، ولا تمحى .. تضمير ولا تزول .. أعرفه جيداً .. فى صمته ، ودأبه ، وصبره وجلده .. هذه الآلات الخطيرة .. قد أعانته على المعجزة ، ولكنى واثقه .. أنه قادر عليها .. بها وبدونها .. قادر بآلاته .. قادر بمعاوله .. قادر بأظافره .. قادر بأنبيائه .

صفية - (بمنتهى الإعجاب) براقو .. براقو آنسة .. لو أنها ابنة فرعون .. قد تحدثت .. لما تحدثت بأفضل من هذا .. براقو .

عمر - (لمصطفى) فعلا .. لو أنها ابنة فرعون .. لما كانت خيراً من هذه .

صفية - شكراً يا آنسة مريم . سيداتى سادتى .. لنستمر فى جولتنا بين عمالقة المد.

(تغلق جهاز التسجيل وتسحب الميكرفون من يد عمر) .

صفية - متشكرين يا جماعة .. عن إنكم (لعمر) متى ستعود ؟

عمر - بعد أن تنتهى جولتنا مع مريم .

صفية - لا تتأخر ... سننتظرك على العشاء .

مصطفى - (مازحاً) عمر وحده ؟

صفية - أحتاج أنت لدعوة ؟ ... (ضاحكة) أنت صاحب بيت .

- (تنصرف صافية ، مصطفى يتابعها بنظرة في إعجاب) .
- مصطفى - بنت ممتازة .
- عمر - (يفرك يديه مسروراً ويقبل على مريت) .. رائعة .. مذهشة .
- مريت - (صامتة) .
- عمر - مريت .. لماذا لا تجيبين ؟
- مريت - أبداً .
- عمر - أضيائك الحديث ؟
- مصطفى - لقد كان ممتازاً .
- مريت - أستعود إلى البيت ؟
- عمر - طبعاً .. بعد أن نوصلك .
- مريت - وستتعشى مع أختك ؟
- عمر - أجل .. نحن نعيش معاً ، إذا لم أكن مشغولاً في وديتي !
- مريت - (في صوت به رنة يأس) أتعيشان معاً ؟
- عمر - طبعاً .
- مريت - (فجأة) هيا بنا .. لا بد أن أعود .
- عمر - سنشاهد مخرج القناة من الناحية الأخرى .. حيث توضع مولدات الطاقة الكهربائية الضخمة التي ستستخرج من السد .
- مريت - (في ضيق) لا .. لا بد أن أعود .. لقد قلت لسخمت إني لن أتأخر

وأخشى أن تنام .. ويسأل عنى أبى أو أخى حور .. فلا يستطيع أحد أن يستر
غيبتى .

مصطفى - سنوصلك حتى البيت .

مريت - أعرف ذلك .. وستنتظراننى حتى أعطيكما الملابس .

عمر - أية ملابس ؟

مريت - ملابسى هذه .. سأبدل ملابسى . وأقذف لكما بها من النافذة .

عمر - ولكنها ملابسك .. لقد اشتريتها لك .. وهى ليست بالشيء الثمين ..
اعتبرها هدية .

مريت - ولكنى لم أعد فى حاجة إليها .

عمر - (فى دهشة) كيف ؟! أنت لا تستطيعين أن تسيرى هنا بملابسك
بدون إثارة الناس !

مريت - ومن قال إنى سأعود إلى هنا .

مصطفى - ولماذا لا تعودين ؟

مريت - ولماذا أعود .. لقد انتهى الغرض الذى أتيت من أجله .

عمر - أى غرض ؟

مريت - أن أثق من صدق قولك ، أثق أنكم لستم غزاة .. ولا متأمرين ..
وأن لكم واقعكم الذى تعيشون فيه ..

مصطفى - لعلك قد اطماننت .. واسترحت .

مريت - (تتهد فى حيرة) يعنى ...

مصطفى - ماذا تقصدين بيعتى .. ألم تطمئنى إلينا .

مریت - شىء يبعث على الحيرة .. لیتکم كنتم غزاة ومثامرين .

عمر - كيف ؟

مریت -- لو أنکم كذلك .. لکنتم أقرب إلی .. کنتم نصبحون شيئاً کائناتاً فى حیاتی .. وكان یمكن أن یكون هناك أمل فى شىء ما .. ولکنکم بكل هذا الواقع المؤکد الجازم .. قد أصبحتم أسطورة .. وأصبح کل منا بالنسبة للآخر .. مجرد خرافة .. أو وهم .

عمر -- لماذا تتحدثين بمثل هذا الیأس . أنت موجودة ، وأنا موجود .. کلانا کائن .. وکلانا یريد أن یبقى مع الآخر .

مریت - أتريد أنت ؟

عمر - ألتیک شک ؟

مریت - برغم أنك ...

عمر - إنی ماذا .

مریت - أنك ... (مترددة) أنت ... وأختک .

عمر - (فى دهشة) أنى وأختى ماذا ؟

مریت - تعیشان سوياً .

عمر - وماذا فى ذلك ؟

مریت - (فى غضب) كيف تريدنى .. وفى حیاتک أخرى ؟

عمر - إنها أختى .

مریت - ولكنك قلت إنكما تعيشان سوياً ؟

عمر - أجل .

مریت - وتريدني ؟

عمر - أجل .

مریت - تجمع بين ضربتين .

عمر - (ضاحكاً) من قال هذا ؟

مریت - ألم تتزوجا بعد ؟

مصطفى - (ضاحكاً) لا بعد ولا قبل .

عمر - كيف أتزوج أختي ؟

مریت - وماذا في ذلك .. أنا مخطوبة لأخي حور .

عمر - (صارخاً) إيه .. أخوك حور .. والعمل ؟

مصطفى - غير معقول .. غير جائز .

مریت - غير جائز .. كيف ؟

مصطفى - لا يصح زواج الإخوة .

مریت - لا يصح لماذا ؟

مصطفى - لأنه .. لأنه .. غير جائز .. مستحيل .

عمر - من أجل هذا .. خشيت من أختي ؟

مریت - أجل .

عمر - على أية حال .. أختى لم تعد بالمشكلة .. المهم أخوك .. ما العمل فيه ؟

مریت - لست أظنه أيضاً مشكلة بالنسبة إلی .
عمر - حقاً ؟

مریت - لم أشعر قط .. بلهفة على الزواج منه .. هذا الشيء الذى جنبنى نحوك .. لم يشدنى إليه قط .. كنت أبتهل دائماً أن نبقى كما نحن .. أخاً .. وأختاً .

عمر - إذن لم تعد هناك مشكلة ؟

مصطفى - كيف ؟

عمر - لأننا موجودان .. وكل منا يريد الآخر .

مصطفى - والزمنا الذى بينكما ؟

عمر - لا يهم .. جانبية الإنسان أقوى من كل حائل ، من جنس .. أو لغة .. أو عرف .

مصطفى - أو زمن ؟

عمر - ما دمنا موجودين .

مصطفى - كل فى زمن .

عمر - لا يهم .

مصطفى - وأنت يا مریت ؟

مریت - أشعر أنى أريده أكثر من أى شىء آخر . الجاذبية التى تشدنى
إليه أقوى من كل حائل .. حتى من حائل الزمن ..

مصطفى - على أحكما إذن أن يتنازل عن واقعہ .. إما أن تأتى أنت إلى
هنا لتعيشى بعد عشرات القرون من زمنك ، أو تقفز أنت إلى الوراء آلاف
السنين .

عمر - أجل .. واحد منا لابد أن يقفز .. هذه الهوة الزمنية .. إما أن تأتى
إلى .. أو آتى إليك .

مریت - (تنظر إليه فى شغف) سأتى أنا .. سأتى .. سأتى ..

(ستار)

الفصل الثالث

الن فكون فرباء

المنظر : (على شرفة الكتراكت المطلة على النيل في وقت الغروب) .

(مريت وعمر يصعدان الدرج ويسترخيان على مقعدين طويلين مريحين .. بجوار بقية السائحين والزوار الذين جلسوا يتناولون الشاي) .

مریت - (تنهد تنهيدة طويلة مريحة وهي تنظر إلى الأفق) أشياء كثيرة لم يغيرها الزمن .

عمر - مثل ؟

مریت - الشمس الأرجوانية تتهاوى في الأفق .. هذا القرص الجمري .. تختلط فيه ألوان الورد والبنفسج والياقوت .. طالما تمنيت أن أتحمسه قبل أن ينساب في الماء .. والصخور في عرض النهر .. والنخيلات على شاطئيه .. تنعكس صورتها .. في الماء .. مطرزة بخيوط الأشعة الوردية .

عمر - أتجيبن كل هذا يا مريت ؟

مریت - أجل .

عمر - اتجيبين فيه دنياك التي ألفتها ؟

مریت - أكاد لا أشعر .. بأنى غريبة هنا .. لم يتغير شيء من حولي .

عمر - وماذا أيضاً لم يتغير ؟

مریت - نحن .. باطننا .. تركيبنا الآمى .. مشاعرنا آلامنا .. متاعبنا .. حاجاتنا .. أذواقنا .. مطامعنا .. آمالنا .. رغباتنا .

عمر - (يمد يده فيتحسس يدها برفق) أتعرفين مشاعري ؟

مریت - أحسها .

عمر - وحاجاتي ؟

مریت - ألمحها فى عينيك .

عمر - وآمالى ؟

مریت - لا أظنها تختلف كثيراً عن آمالى .. لست أراك غريباً عنى .. أنت أقرب إلی من كل من كان حولي .. تدفنتى مسه يدك وتنشيني نظرة عينيك .. ويمتعنى قربك .. وأتمنى المزيد منه .. أتمناه إلى حد الاندماج فيك .. أتمنى أن تكون شيئاً واحداً .. أنت جزء من عالمى الجميل الرائع .. الثابت على الزمن .. الشمس والنهر .. والصخر فى النهر .. والنخيل على شاطئيه .. وأنت .. أنت .. أجمل ما فيه .. وأقرب ما فيه .

عمر - (يرفع كفها إلى شفطيه فى شبه عبادة) عجيب هذا الشيء الذى يشد إنساناً إلى آخر .. منذ أن وقع بصرى عليك فى المعبد أول مرة ..

أحسست بفرحة للقائك وتمنيت لو مسستك .. أو ضممتك إلى .. ووجدت نفسي
أستمع بوجودك .. برغم هذا الكلام العجيب الذي سمعته منك .. ولم آبه
كثيراً .. إن كان بعقلك مس .. أو كنت تعيشين فعلاً منذ آلاف السنين ..
انجذابي لك كان أقوى من كل هذا .. لم أعبأ كثيراً .. بمشكلة الزمن .. ولا
حاولت أن أفكر فيها .. يكفيني أنك حقيقة .. وأنت موجودة .. أنى إليك .. أم
تأتين إلى .. أثنى إلى زمنك .. أم تثبين إلى زمني .. سواء لدى .. ما دمت
أحيا معك .. أحنك .. وأمسك بيدك .. وأضعك إلى صدري .. الزمن لم يكن
في نظري أبداً .. مشكلة .. لن يكون الإنسان .. غريباً .. فى أى زمن .. ما
دامت معالم الزمن أقوى على الزمن الباقي من الزمن .. السماء والأرض ..
والشمس المشرقة الغاربة .. ونحن .. نحن الناس .. بتركيبنا الآدمي ..
بعيوننا ، وأفواهنا .. وقلوبنا .. لن نكون أبداً غرباء .. فى أى عصر .

مریت - (تضغط يده بكفها فى حنان) لن أشعر بالغربة أبداً .. وأنت
بجواری .. والنخيل فى الأفق .. والنهر على مدى البصر .. مادمت بجواری
أستطيع أن أحتمل كل شيء .. لن أشعر بالحنين إلى الزمن الذى عبرته بآلاف
السنين .. أهلى .. أمى وأبى وأخى .. وأصدقائى .. ودارى .. ومراتع
صباى .. وكل ما ارتبطت به .. والذى تسللت منه فى جنح الليل لألقى بنفسى
فى عالمك الغريب .. كل هذا أستطيع أن أحتمل بعده .. وأنا بجوارك ..
(تصمت برهة ثم تقول فجأة فى جزع) ولكن ..

عمر - لكن ماذا؟

مریت - أستبقى بجواری دائماً ؟

عمر - (ينظر إلى عينيها فى شغف) دائماً .

مریت - وعملك ؟

عمر - عملى ؟. سأذهب بالطبع إلى العمل .. وبمجرد انتهاء الورديّة سأعود إليك .

مریت - ولكنك ستتركنى خلال العمل ؟

عمر - أجل .

مریت - عدة ساعات ؟

عمر - أجل .

مریت - وحدى ؟

عمر - وحدك ؟ .. طبعاً لا .

مریت - أعنى بدونك !

عمر - أجل .. ولكن لن تكونى وحدك .. ستكونين دائماً محاطة بالأصدقاء والمعارف .

مریت - الأصدقاء ؟ أى أصدقاء ؟!

عمر - الأصدقاء .. أصدقائى .. أخواتهم .. وزوجاتهم .. والأصدقاء الذين ستعرفينهم .

مریت - (فى جزع) إنى أخاف كل هؤلاء .. إنى أصاب بالذعر من كل غريب ألقاه .

عمر - سنألقيهم .

مریت - مستحيل .. إن كل هؤلاء الناس يثيرون رعبى .

عمر - هذا وهم .. الزمن .. كفيل .. بـ ..

مریت - (مقاطعة) زمن ؟ أى زمن .. آلاف السنين .. حتى أصير منهم .

عمر - أبداً .. كما اعتدنتى .

مریت - (مقاطعة) أنا لم أعتدك .. لم أكن فى حاجة إلى أن أعتادك .. لقد وجدت نفسى فجأة وكأنى بعض منك وكأنك بعض منى .

عمر - لقد ظننتى أحد الغزاة .

مریت - لیتك كنيه ..أؤكد لك أن هذا الظن لم يزعجنى كثيراً .. فلقد كان إحساسى بك أغلب من كل شىء ، أتصدق أنى كنت أريد أن أدعو الخراس لكى أستبقيك ؟ وعندما عرفت منك تلك الأعاجيب التى عرفتها .. لم يستطع شىء منها أن يقتلع وجودك من نفسى .. المسألة إذن لم تكن مسألة اعتياد .. حتى أحاول أن أعتاد هؤلاء .. إنى أحس بالخوف منهم .. أخشى من كل شىء أقوله .. ومن كل شىء أفعله .. ومن كل شىء أراه .

عمر - انكرى عالمك الجميل هذا .. انكرى الشمس والنيل والنخيل .

مریت - ولكن عالمكم مليء بأشياء أخرى غير هذه .. أشياء مفزعة مثيرة على أن أواجهها فى كل لحظة .

عمر - سأكون معك لأعينك على كل شىء .

مریت - إن تكون معى دائماً .. ولست أنت وحدك فى عالمى .. إنى أشعر بالخوف .. عندما أفكر فيما أوشك أن أواجهه من أشياء عريية .. وما أوشك أن ألقاه .. من بشر غريباء .

(يقبل مصطفى .. فيصافحهما متهللاً) .

مصطفى - كنت أبحث عنكما .

عمر - عدنا من رحلة في النهر .

مصطفى - (لمريت) وكيف الحال ؟

مريت - (تبتسم في صمت) .

مصطفى - كيف وجدت عالمنا .. وكيف وجدت أهله ؟

مريت - (تهز رأسها في حيرة) لم أخض التجربة بعد .. مازلت أشعر
بأنى فى عالمى .. مع أهلى .. ولست أدرى أين موقعى من عالمكم ومن أهله .

مصطفى - ستكونين فى أجمل موقع .. أنت مخلوقة رائعة .. أرجو أن
تعتبرينى دائماً كأخيك .

عمر - (فى جزع) لا .. أرجوك .. دعنا من مسألة الأخوة هذه .

مصطفى - (ضاحكا) أقصد أخوية القرن العشرين .. لا أخوة الفراعنة .

مريت - (تتنهد ويبدو عليها الشرود) .

عمر - هاى .. أين ذهبت ؟

مصطفى - وثبة إلى الشاطئء الآخر .. عبر السنين الطويلة .

مريت - (تتنهد) ترى كيف يفتقدوننى هناك .. ماذا حدث لأبى ..
ولأمى ؟

عمر - بدأنا الحنين .

مريت - (تهز رأسها كأنها تطرد ما بها من أفكار تعلقها ..) تتنهد وتنظر
اليه فى شغف) كل شىء يهون .. بجوارك .

مصطفى - (مفكراً) ولكن .. لماذا لا يأتي أربابك معنا .. أبوك وأمك
وبقية أسرتك ؟

مریت - (فى یأس) أسرتى الملكیة .. کیف تقنعهم بالمجیء .. وکیف
یعیشون هنا ؟ .. ومعابدهم وقصورهم .. وأموالهم .. وممتلكاتهم !

عمر - (مؤكداً) ستصادر حتما .

مریت - تصادر ؟ .. ماذا تعنى ؟

عمر - تؤخذ منهم .

مریت - من الذى يأخذها ؟

مصطفى - الشعب .. الناس .

مریت - لماذا ؟

عمر - (ببساطة) لأنهم فى غیر حاجة إليها .. والناس فى حاجة إليها ..
ألیس كذلك ؟ .

مریت - (مفكرة) جائز .. أشياء كثيرة كنا نملكها وفى غیر حاجة إليها ..
هذه الأراضى الموقوفة على بیوت الأبدیة .. التى تطعم منها أرواحنا .. كانت
تحیرنى دائماً .. لا جدال فى أن حاجة الأحياء إليها كانت أكثر إلحاحاً ، من
أرواحنا فى السماء .

مصطفى - على أية حال لن تستعصى عليهم الحياة ، إن هناك نظاماً
موضوعة لتصفية الأموال المصادرة والحراسات تمنح أصحابها قدرأ معقولا ،
لمعیشهم .

عمر - (يهز رأسه فى قلق) تظنهم يستطيعون أن يعيشوا بما سيمنحون ؟

مصطفى - عليهم أن يعتادوا حياتهم الجديدة .. فى زمنهم الجديد .

عمر - (فجأة) والضرائب ؟

مصطفى - مالها الضرائب ؟

عمر - بتقديراتها الجرافية سيصبح فرعون مديناً لنا بإذن الله ، بعد كل هذا العمر الطويل من الفرعة .. سيتحتم عليه أن يدفع بدل أن يأخذ .

مصطفى - يا أخى .. يستطيعون أن يعملوا .. إن هناك فرصة العمل للجميع .. الأب يستطيع أن يفتح مطعماً يقدم فيه المأكولات الفرعونية .

عمر - والأم تستطيع أن تفتح محلاً للأزياء .

مريت - (فى دهشة) ما هذا ؟؟ فرعون ينحدر به الزمن حتى يفتح مطعماً .. والملكة تفتح محل أزياء ؟

عمر - لم لا .. الكل يجب أن يعمل .

مريت - أجل يعمل .. ولكن فرعون يعمل .. صاحب مطعم .

عمر - لا ضرورة بالذات لأن يكون صاحب مطعم .. إنه مجرد اقتراح .. يستطيع أن يعمل أى شىء .

مريت - (تهز رأسها فى يأس) إنه لا يستطيع أن يعمل إلا فرعون .

عمر - (فى حيرة) مشكلة .. لست أظنه بمستطيع أن يجد له مثل هذا العمل فى هذا الزمن .

مريت - لقد قلت لى إن حاكمكم من ؟

عمر - واحد منا .. من الشعب .. يحكم باسم الشعب من أجل الشعب .

مریت - ليس باسم الآلهة ؟

مصطفى - كان زمان .. أما الآن ، هنا .. فى زماننا هذا .. فحكم الشعب من أجل الشعب .. حكم ديمقراطى اشتراكى .

مریت - ديمقراطى ؟

عمر - أجل .. الناس ينتخبون حكامهم والحكام يمثلون سلطة الشعب .. إن الشعب .. يحكم نفسه من أجل نفسه .

مریت - (فى حيرة) والاشتراكية ؟

عمر - العدالة الاجتماعية .. تكافؤ الفرص بين الناس .. أن يمنح كل الناس فرصاً متساوية للعلم والعمل والعلاج والأمان .. أن توضع كل الموارد لخدمة كل الناس .

مریت - (فى دهشة) أنتم إذن تفعلون مالا تفعله الآلهة ؟

مصطفى - كيف ..؟

مریت - آلهتنا لم تكن اشتراكية قط .. لم تمنحنا فرصاً متكافئة .. حتى قبل أن نبدأ السير فى الحياة .

عمر - آلهتكم فعلت هذا !

مریت - (مؤكدة) وأغلب الظن أن آلهتكم تفعله ، إنها لا تمنحنا تكافؤاً فى القدرة .. فى الموهبة .. فى الذهن .. فى الخلق .. فى الشكل .. توجدنا بفوارق هائلة .. وتطلقنا فى الحياة بهذه القدرات المتفاوتة .. كيف يمكن التكافؤ .. بعد هذا ؟

مصطفى - وسط هذا الانطلاق يجب أن يضمن لكل ، حد أدنى للحياة

الآدمية الكريمة .. مهما كانت قدرته .. يجب ألا تدوس الأقدام المنطلقة ،
الأقدام المتعثرة .

مريت - أنتم تصلحون إذن باشتراكيتكم . ما أفسدته عدم اشتراكية الآلهة ؟
عمر - (مأخوذاً) لا .. لا .. يبدو أننا لم نستطع أن نفسر لك ما نقصده
جيداً .. نحن نمنح فرصاً متكافئة .. لا يضيع من تكافئها إرث ، أو نفوذ ..
أو سلطان .. ولكن يحدد نتائجها .. التفاوت في القدرة .. الذي قلت إن الآلهة
أوجدته . التفاوت في الموهبة .. في الذهن .. في الخلق .. في أى شيء ..
ذلك هو الذي يحدد للإنسان نتاجه في الحياة .. وبحسبه يمكن أن تتشكل حياته
وأن تزداد حصيلته منها .

مصطفى - بشرط ألا تضاف إلى قدرته الغول المسمى رأس المال .

مريت - لا أفهم ما تعنى .

عمر - أعنى أنه يمكن أن ينال دائماً نتيجة قدرته .. من موهبة ذهنية ،
أو بدنية أو خلقية ، أو أية موهبة أخرى ، وأن تتاح لآماله في الحياة فرصة
الانطلاق والتحقق حسبما تيسر له موهبته ، وأن يمنح فرصة الاستمتاع بالحياة
حسبما يوفره له جهده وكفايته وخلقته ، وأن ينعم من الحياة بثمرة قدرته هو
نفسه على العمل .. لا بثمرة استغلاله لقدرة الغير وجهده .. وأن تكون قيمته
دائماً في تلك القدرة الذاتية .. لا أن تكون قدرته في مال ينمي مالا ، ويتضخم
في يده باستغلال قدرة الغير لكي يزداد مع الأيام نمواً وجبروتاً ، ويصبح
كصاحب غول أو وحش يزيد على الأيام ضراوة ، يطعمه من عرق الناس
ليزداد شراهة ، وتصبح قيمته في قدرة هذا الشيء الخارج عنه .. الطبع له ..
الجبار على الغير ، الذي ينمي مجرد وجوده .. وقدرته على الاستغلال
والسيطرة .. والذي لا قم له سوى النمو والتضخم .. على حساب حاجة

صاحب الجهد ، ولا يعود بضخامته يمثل له أى نفع سوى إرضاء شهوة السيطرة والاكنتاز .

مصطفى - هذا المال يا مريت الفائض عن حاجة الإنسان المعتدلة فى الحياة يجب أن يكون أداة لخدمة الناس لا لاستغلالهم .. يجب أن تملكه اليد المأمونة الخيرة ، يد كل الناس ليخدم كل الناس ويؤمن كل الناس ، بدل أن تملكه يد تستغل به جهد الناس ولا تمنحهم سوى الفئات الذى يبيهم قادرين على مزيد من الجهد لمزيد من الاستغلال وتمنح اليد المستغلة كل الثمار لتزداد ضراوة وقدرة على مزيد من السيطرة والاستغلال .. أفهمت يا مريت ؟ .

مريت - أكاد أفهم .. ما كان أحق زمنى بما فعلتم .. فهمت الآن .. لماذا سخرتم من ثورة الشعب من أجل الجنة السماوية .. كان أحق بأن يثور من أجل الحق العاجل لا الحقوق الآجلة .. (تهز رأسها مفكرة) لا .. لست أظن أبى يستطيع قبول اشتراكيتكم .. ولا فهمها .

مصطفى - وسيبقى هناك ؟

مريت - (فى أسى) لا مفر من ذلك .

مصطفى - حتى تغرق الأرض ؟

مريت - (فى تردد) أوافق أنت أنها ستغرق ؟

عمر - ألم ترى بنفسك كل ما يجرى فى النهر .. ألم ترى السد والأنفاق !

مريت - (فى حزن) أجل .. أجل .

(تبدو صافية قادمة ومعها عابدة زميلة لها صحفية تحمل معها كاميرا)

عمر - دعونا من هذا الآن .

(ينهضون ويتبادلون السلام)

(يجلس الجميع ونضع صفيحة « راديو ترانزستور » أمامها على المنضدة)

صفيحة - فرصة طيبة أن نسمع البرنامج سوياً .. (تنظر إلى الساعة) بعد دقائق سنبداً إذاعته (لعمري) ألن تطلب لنا شيئاً ؟

عمر - حالا (مشيراً إلى الجرسون) .

الجرسون - أفندم .

عمر - شاي من فضلك .

(صفيحة تعبت بأصابعها في الراديو فتصدر أصوات تفرع مريت وتنظر إلى الراديو في قلق .. عمر يحاول طمأنتها بنظراته) .

صفيحة - عايدة نفوم بعمل ريبورتاج لجريدتها .. وقد زارت اليوم معيداً من المعابد التي تقرر نقلها قبل أن تخرقها المياه .

مريت - (يبدو عليها الاضطراب وتزدرد ريقها) .

عايدة - شيء رائع .. يستحق الإنقاذ .

صفيحة - الآنسة مريم .. خريجة قسم الآثار .. لا شك أنها نعرف عنها الشيء الكثير .

عايده - حقاً .. ليتك كنت معي .. كانت هناك أشياء كثيرة وددت الاستفسار عنها .. المرمسى .. المؤيدة للنيل كيف كانت تستعمل ؟

مريت - (في شرود) كانت المراكب تحملنا إلى الشاطيء (مستدركة) أعنى تحملهم .. عند الغروب .. ويخرج فرعون وزوجته وابنه وابنتهم

للصيد ، ويتجهون إلى البحيرة التي يسبح فيها الأوز ويحلق فوقها الطير ..
وتمتلىء بأزهار اللوتس الجميلة .. وكشك الحديقة يبدو من شاطئ البركة .

عايدة - (لمريت) .. وكأنك رأيته ؟

مريت - (مرودة) كأنى رأيته .. جميل .. جميل .

(صفية تدير الراديو فيعلو صوت مريت وهي تجيبها على أسئلتها حين
سألتهما في النفق) .

صوت مريت - هذه أشياء تبدو غير بشرية .. أشياء لا تصنعها إلا الطواهر
الطبيعية .

مريت - (يبدو عليها الذعر ثم تصرخ فزعاً) من .. من ؟ . أنا هنا ..
روحي قد استقرت هنا .. أنا ...

(صفية وعايدة تذهلان ثم تغرقان في الضحك) .

عمر - (يسرع بإغلاق الراديو ويعتذر مرتكباً) .. متأسف .. متأسف
جداً ، مريت تصيبها بعض حالات الضيق نتيجة دراستها الطويلة للآثار .

(مريت تحس أنها ارتكبت خطأ وتبدو عليها الحيرة والأسف) .

مريت - (متممة) آسفة .. آسفة جداً .

(صفية وعايدة تحاولان أن تكتما ضحكاتهما) .

مصطفى - لا .. لا .. بسيطة .. حصل خير .

(يقبل الجرسون بالشاي ويضعه على المنضدة) .

عمر - (لمريت) هذا جهاز راديو للإذاعة ، أتذكرين الآلة التي عضضتها
أمس لقد نقلت حديثك إليه .

- مریت - (فی یأس) جائز .. جائز جداً .
(صفة تصب الشای) .
- صفية - (لمریت) قطعة أم قطعتين .
- مریت - (تبدو عليها الدهشة ولا تعرف ماذا تقصد صفة وتنظر إلى عمر
حائرة) .
- عمر - (بسرعة) قطعنين .
- (صفة تمد يدها بالفنجان إلى مریت التي تأخذه بخوف) .
- عمر - (يهمس لها) لا تخافى .. هذا شای .. اشربيه .. برفق لأنه
ساخن .
- (صفة تسمع ما يقوله عمر فيبدو عليها الدهشة)
- صفية - (هامة لعائدة) تصورى ، يقول لها إن هذا شای .. هذه الفتاة ..
مخلوقة عجيبة .. إما أنها مجنونة .. أو ليست من هذه الأرض .
- (عائدة تمسك بالكاميرا في يدها وهي من نوع البولارويد .. تخرج منها
الصورة بعد دقيقة من تصويرها)
- عائدة - سألتقط لكم صورة وأنتم تحتسون الشای .
- (مریت تنظر إلى آلة التصوير مرتابة)
- مصطفى - (هامساً) .. لا تخشى شيئاً .. إنها جهاز لالتقاط الصورة .
- مریت - (غير فاهمة) .. صورة ؟ أى صورة !
- عمر - (هامساً) صورتنا نحن !

مریت - (تهز رأسها في حيرة) ، جائز .. كل شيء في عالمكم جائز ..
المهم ألا أسمع فيها صوتي .. لأنني أحس أن روحي قد حبست فيها .

(عايدة تلتقط الصورة ، وتعد ١٥ ثم تفتح الكاميرا وتخرج الصورة وتعطيها
لمریت) .

مریت - (صارخة) لا .. لا .. غير معقول .. أنا دائماً أخاف السحر ..
صوتي في هذا الصندوق .. وصورتى في الصندوق الآخر .. لا .. لا ..
مستحيل .

(صفية وعايدة تغرقان في الضحك)

صفية - غير معقول .

(مریت يبدو عليها الحيرة والخوف واليأس) .

عمر - (ينهر صفية) صفية .. كفى .

صفية - (في ذهول) عمر .. هذا غير معقول .. أيعنى هذا أنها لم تسمع
رائيو ولم تر صورة من قبل ؟

مصطفى - طبعاً لا .

عمر - قلت لك إن لها حالة خاصة تصيبها أحياناً .

صفية - (كأنها أدركت أن مریت بها خيل) ها .. فهمت .. فهمت (تنظر
إليها في رقة) أنا متأسفة .. (تتناول الصورة) إنها شيء سخيف حقاً .. (في
لوم لعايدة) ما كان لك أن تفعلى هذا .

(صفية وعايدة تنهضان) .

صفية - عن إننكم .

عمر - مع السلامة .. سأراك فى البيت

مریت - (منهارة) غیر معقول أن أستمر هكذا .. إنهم ينظرون إلی كأن بی خبلا .. وهم على حق .. إنی وراءهم بآلاف السنین . كل ما لديهم وما اعتادوه .. غریب على .. أنا غریبة بینهم .. إنی لست حتى مجرد طفلة .. وفى كل یوم .. بل فى كل ساعة .. سأواجه بجدید لا أعرفه .. هذا الإناء لم أكن أعرف ما بها .. کیف یشرب .. لم أعرف حتى ماذا تعنى بقطعة أو قطعین .. لو أتى معك وحدك لهان الأمر . ولكن على أن أعیش فى عالمك الواسع .. على أن أواجه فى كل خطوة شيئاً مذهلاً .. وعلى ألا أذهل .. وأن أبوء كائى أعرفه .. والا اتهمت بالجنون .. وحتى أعرف كل هذا یكون العمر قد ضاع .. لیس لى مكان هنا .. بین هذه اعجائب .. إلا أن أكون أنا مجرد أعجوبة .

عمر - (فى یأس) وبعد .. !

مریت - لا بد أن أعود .. إنی خائفة .. إنی أرتعد .. من كل شیء .. وأخشى إن طال بی الخوف .. أن أخافك أنت .. وأن أشعر بغریبتى معك ، لست أرید هذا أبداً .

عمر - تعوبین ؟! أتحتملین الفرقة ؟

مریت - لا .. سأموت إن بقیت .. وأموت إن تركتك .

عمر - والعمل .. ؟

مریت - تعال معى .

عمر - أتى معك ؟

مریت - أجل .. لن تجد هناك ما یفزعك .. كل شیء یرى فى هدوء .. لن تخافى من أى شیء .. كل ما هنالك تعرفه .. كل شیء بسیط .. بسیط .

عمر - (يفكر برهة) سأتى .. لأنى لأستطيع أن أتركك ، ولأستطيع أن أعذبك هنا .

مصطفى - أحقاً ستذهب ؟

عمر - أجل .

مصطفى - وحدك ؟

عمر - وماذا يمكن أن يكرهك على المجيء ؟

مصطفى - لست أتصور .. كيف أتركك وحدك .. سأذهب معك .. على الأقل لأطمئن عليك .

مريت - (فى فرحة) هيا بنا .

عمر - أنتظري حتى تدبر الأمر .

مريت - سأدبر أنا كل شيء .. لن تجدنى بمثل هذا العجز والحيرة .. سأكون ابنة فرعون .. فرعون الأصيل .. لاصاحب المطعم .. وستكون أنت بجوارى .. سيدى .. وسيد الأرض .. وسيد الناس .. لن نكون أبداً غرباء .. هيا بنا .

(يتنهد الثلاثة .. ويدفع عمر الحساب .. ثم يغادرون الشرفة) .

(ستار)

الفصل الرابع ماذا يريد ؟

(المنظر : القاعة الكبيرة في القصر الفرعوني تبدو أمامها البحيرة بسبح بها الأوز وتحلق فوقها الطيور .. وتتناثر في وسطها الأزهار .. القاعة تبدو فسيحة قائمة على الأعمدة الفرعونية ، وتبدو الشرفة في المواجهة تطل على البحيرة وقد رصت فيها الموائد .. وفي الركن الأيسر البعيد مقعد كبير تحيط به بعض المقاعد الصغيرة ، وفي الركن الأيمن منضدة ومن حولها المقاعد . وفي الجانبين القريبين رصت الأرائك ، وعلى اليسار بدا باب كبير في الوسط يبدو خلاله بهو صغير قائم في مدخل القاعة .. وعلى اليمين بابان صغيران أحدهما يفضي إلى بقية حجرات القصر والآخر يفضي إلى مدخل خلفي .

(الأسرة الفرعونية في اجتماع عائلي .. رع يجلس على المقعد الكبير وبجواره زوجته نفرو وابنه حور وابنته مريت وأمامهم الوزير موس وقائد الجيش مين وكبير الكهان بوتو .. أحد الحراس يقف بالباب الكبير) .

رع - كان من العسير على يامريت أن أقطع برأبي في الأمر .. خلال ساعات الليل الطويلة استبد بي الأرق وأنا أحاول أن أصل إلى رأى حاسم حكيم .. يحفظ ملكنا من الدمار .. ويحفظ أرواحنا من الضياع .. واستشرت الآلهة فلم تحسم أمرى .

بوتو - الآلهة تثق يامولاي في سديد رأيك ونافذ حكمتك .

رع - أعلم يا باتو أعلم .. ولكنى كنت أشد حاجة إلى رأيها منى إلى ثقتها .. كنت أحس أنى غارق فى بحر من الضياع ، كنت واثقاً أن الآلهة راضية عن زواج حور بمریت .

حور - لاجدال فى هذا يابى .. لم تكن الآلهة لتسمح لغريب يتسلل إلى أسرتنا أن يشاركنا الملك ويقاسمنا المجد الأرضى .. والنعيم السماوى .

(بوتو يهز رأسه موافقاً)

مریت - لأن يأتى غريب يقاسمنا ملكنا ويصبح واحداً منا .. خير من أن نفقد ملكنا كله . ونهيم على وجوهنا فى الأرض ونشرد فى السماء .

حور - من قال هذا ؟

مریت - لاتحاول أن تنكر النبوءة ياحور .. سل أبى . عن الجحافل التى تنبئوا بأنها ستجتاح أرضنا .. والمياه التى ستغرقها .. سله كيف أكتتها الروى فى المنام .

رع - أجل .. أجل . لقد باتت كالشبح يطاردنى ليل نهار .

(بوتو يهز رأسه موافقاً)

مريت - وموس يعرف جيداً .. إن حالتنا لاتحتمل خوض حرب .
موس - إننا لم نخلص بعد من ثورة الشعب ، من أجل حق الجنة السماوية
وشائعات الفيضان والدمار تسرى بينهم .
مين - وجيشنا فى حالة لانبعث على الطمأنينة .

مريت - ثم تسنح لنا هذه الفرصة الذهبية فلا نحاول أن نفتنصها .. لماذا
نصر على انتظار الغزو إذا كنا لانملك دفعه ؟! ولماذا نصر على خوض حرب
نعرف جيداً مصيرنا فيها ؟! ولماذا لانمد أيدينا إلى غصن الزيتون المبسوط
لنا ؟! لقد التقيت بهم أكثر من مرة ، ولقد فضلت أن أواجههم مباشرة ، مادام
الأمر يعينى أنا وعرفت نواياهم جيداً .. واطمأننت إليهم كل الطمأنينة .

نفرو - ولكن يا حبيبتى .. لماذا يقع عليك وحدك عبء التضحية ؟

مريت - (فى دهشة) تضحية ؟! (مستدركة) لست أظن أحدكم أقل منى
قدرة على التضحية .. أو رغبة فيها .. لو أن أحدكم فى موضعى لما تردد
لحظة فى أن يفعل ما فعلت .

رع - (متنهداً) على أية حال .. لقد حتمت الحكمة علينا القبول .

موس - إنى واثق أن هذه المصاهرة امتداد لنفوننا فى الشمال .. وأمان لنا
من أى غزو يخشى من هناك .

حور - إن هذا امتداد لنفوذ أهل الشمال فى أراضينا .. إن هذا هو الغزو
المقنع .. إنى أخشى على حضارتنا من همجيتهم .. و .. تأخرهم .

مريت - (مقاطعة) حضارتنا .. نخشى عليها من همجيتهم وتأخرهم ..
(تفرق فى الضحك) .

حور - ماذا يضحكك ؟

مریت - يضحكنى .. يضحكنى .. لاشيء .. لاشيء . (لنفسها) لیتهم كانوا أقل حضارة .. لیتهم كانوا أكثر همجية وتأخراً .. إنن لهان الأمر .. ولاستقررت بينهم ، وكفیت نفسى كل هذه المتاعب .

حور - مهما كانوا .. أنا لا أوافق .. لاوافق أبداً على تشنيت أملكنا .

رع - مفهوم .. وجهة نظرك .. مفهومة تماماً ، ولكن لا بد مما ليس منه

بد .

نفرو - على أية حال .. المسألة أولاً وأخراً مسألة زواج .. مسألة شركة ، وأصحاب الحق فيها .. هما طرفا الشركة ، ومامن أحد يستطيع أن يكره أحداً على شركة لايريدها ، ولمریت أن تقرر ما تريد ، ولنا أن نتمنى لها أسعد الأيام .

حور - أنت دائماً تدللینها .. هذه ليست مسألة شخصية .. مسألة بلد .

نفرو - يابنى .. إنها مسألة مریت أولاً .. لاتدع أنانيتك تعمى بصيرتك (لمریت) مادمت يامریت تعتقدين أن هذا الزواج سيسعدك فإننا ندعو الآلهة أن تباركك وتحفظك وترعاك .

مریت - (تضم أمها إلى صدرها) يأماء .. سأكون دائماً فى حاجة إلى دعواتك الطيبة .

رع - متى تتوقعين حضورهم ؟

مریت - عندما تسقط الشمس فى الأفق .. سيحضر الأمير ومعه قائد الجيش وكبير الكهان .

رع - (لموس) هل أعددت العدة للاحتفال ؟

موس - أجل يامولاي .. بقدر ماتسمح الظروف .. الموائد مدت في الخارج والموسيقى والراقصات والمنشدات .

رع - (لبوتو) والعقد .. هل أعددته يابوتو ؟

بوتو - جاهز يامولاي .. ولتمنحنا بركاتها .. صل من أجل مريت يابوتو .. إنها طيبة وتستحق كل خير .

بوتو - سأصلى لها دائماً يامولاتي . إني أعرف قدرها لدى الآلهة ولدى الناس جميعاً .

(مريت تنظر إلى الباب في قلق فتجد سخمت خانمتها تطل في حذر فتذهب إليها) .

مريت - (هامسة لسخمت) ها . ماذا فعلت ؟

سخمت - لقيتهم في المعبد ، وسلمت إليهم الملابس .. كم كان الأمير رائعاً يامولاتي ، وكان صاحبه معقولا .. أما ثالثهم الذي يبدو كالبغل فغير معقول بالمره .. لايمكن يامولاتي أن يكون كبير كهان أبداً .

مريت - (في قلق) لماذا ؟

سخمت - لقد قرصني هنا (تشير إلى مؤخرتها) .

مريت - لا بأس ياسخمت يجب أن نحتمله .

سخمت - لو استمر في حركاته .. فلن يكون محتملا بالمره .

مريت - هل أكدت عليهم ما سبق أن اتفقنا عليه ؟

سختت - أجل .. أجل .. كل شيء كان مفهوماً لديهم .

مريت - وأين هم ؟

سختت - إنهم أتون في أعقابى .

(تزداد الحركة في القاعة .. يحضر بعض الكهان وكبار رجال الدولة .. حور يقف جانباً ، وهو يتهامس مع بعض أتباعه ، وعلى رأسهم خنوم رئيس الفضاة) .

حور - يبدو أنه لم يعد هناك مقر من هذه المصاهرة .

خنوم - كيف تم كل هذا بمثل هذه السرعة ؟

حور - لأن مريت تريد هذا .

خنوم - وكيف استطاعوا التأثير عليها .. متى اتصلوا بها ؟ . وأين ؟

حور - (يهز كتفيه في حيرة) وكيف أدري .. إنها وحدها التي دبرت الأمر .. قالت إنها اجتمعت بهم مرة في المعبد ، ومرة أخرى ذهبت إليهم في الضفة الغربية .

خنوم - هذا أمر عجيب .

حور - إن في المسألة سرأ خطيراً .. إما أن تكون مريت مخدوعة .

خنوم - أو ..

حور - متأمرة .

خنوم - على أية حال .. بعضاً من الصبر وسيتكشف كل شيء .

حور - أجل .. لا بد أن أعرف الحقيقة . إن ما حدث شيء أشبه بالسحر .

خنوم - كيف ؟

حور - لقد كانت راضية تماماً عن زواجنا .. كان كل شيء مقررأ ..
وفجأة .. (بهز رأسه فى حيرة) .

خنوم - ماذا حدث ؟

حور - تبدلت تماماً .. كانت تبدو كالشاردة .. وكثر أختفاؤها .. ثم أقبلت
علينا فجأة بهذا التدبير الجديد مصررة عليه فى ثقة وإيمان .

خنوم - صه .. أسمع بالباب ضجة .. لابد أنهم قد أقبلوا .

مریت - (يبدو عليها الاضطراب .. تتجه نحو الباب ويقف الجميع ، وقد
بنت على وجوههم اللهفة مشرئبين بأعناقهم إلى الباب الكبير) .

الحارس - (صائحاً) .. أمير الشمال .

(يدخل عمر ، وقد ارتدى ملابس فرعونية ووزاءه مصطفى وصيحي
يرتدى أولهما ملابس قائد الجيش والثانى ملابس كبير الكهان) .

(مریت تتقدم لتحييتهم والقيام بواجب تقديمهم إلى فرعون وأسرته
وحاشيته) .

مریت - الأمير محب أمير الشمال .

(ينحنى عمر تحية للحاضرين ويتقدم لمصافحة فرعون) .

مریت - (تقدم مصطفى وصيحي) القائد أزيرو قائد جيش الشمال .. السيد
سمنكرع كبير كهان الشمال .

(ينحنيان ثم يتخذان مكانهما وراء عمر) .

رع - أهلاً وسهلاً .. مرحباً بكم في بلدنا .. لقد حدثتنا مريت عن نواياكم الطيبة نحونا .

عمر - طيبة دائماً .. لقد كنا دائماً فخورين بآثاركم .. أعني بأعمالكم الرائعة ، بحضارتكم ، وتقدمكم ، إنها تثير العجب والدهشة في أيامنا هذه .

رع - (في دهشة) أيامكم .. (ضاحكاً) لعلنا لم نهرم كثيراً !

عمر - أبداً .. أبداً .. سنبقون دائماً في أوج شبابكم .. ومجدكم .

رع - (في سخرية) لعلكم لم تسبقونا كثيراً في تقدمكم .. وحضارتكم .

عمر - أنتم الأصل دائماً .. مهما فعلنا .. إنكم الجذور العميقة المتشعبة في باطن الزمن .

رع - على أية حال .. إني سعيد بأن تقوم بيننا رابطة من المودة والمحبة والقرب .. إن هذا يمنحنا القوة .. ويقضى على الشائعات التي لانفتأ ، تقض مضاجعنا وتسبب لنا القلق .. والتي تثير بيننا المخاوف والشكوك .

عمر - ليس هناك أبداً ما يبعث على المخاوف والشكوك .

حور - أما كانت هناك نوايا غزو ؟

عمر - غزو ؟ .. لا .. مطلقاً .

حور - لنسأل السيد أزيرو قائد الجيش .. ألم يحشد جنوده في الضفة الغربية .

مصطفى - (ينظر شاردأ غير متحرك أنه المقصود بالحديث) .

صبحى - (يدفعه بمرقعه هامساً) أجب .. ياباشمهندس .. أنت أزيرو قائد الجيش .. هل حشدت جنوداً في الضفة الغربية ؟

مصطفى - أبدأ .. أبدأ .. ليس هناك جنود سوى البوليس الحربي والثئون العامة .

حور - يعنى هناك جنود .. يعنى هناك احتمال .. قتال .

عمر - قتال !! لا .. لا .. إنهم للأعمال التنظيمية فقط .. أليس كذلك ياأزيرو ؟

مصطفى - طبعاً .. طبعاً .

حور - وآلهتكم ألا تنوى إغراق أراضينا بالمياه .. ياكبير الكهان ؟

مصطفى - (يدفع صبحى بمرقعه) أجب .. ياسمنكرع .. أنت كبير الكهان . هل ستغرق أراضيههم ؟

صبحى - (هامساً) الشهادة لله .. ستغرق .

حور - لماذا لاتجيب ياسمنكرع ؟

صبحى - (لنفسه) سمنكرع .. اسم غير معقول ، ولكن ما علينا .. (لحور) نسأل عما إذا كانت الأرض ستغرق ؟

حور - أجل .

صبحى - (فى لهجة ممنودة) الله رحيم بعباده .. وجعلنا من الماء كل شيء حى .. نغرق شبراً .. ونزرع عشرة .

حور - يعنى ستغرق آلهتكم الأرض ؟

(تحدث ضجة بين الحاضرين وتسود موجة تنمر) .

(مریت تنظر إلى عمر نظرة توصل .. عمر يتلفت إلى صبحى فى غيظ) .

عمر - السيد سمنكرع لا يقصد أبداً أن الأرض ستغرق ، إنه يؤكد أن آلهتنا تبارككم جميعاً ، وأنها تدفع عنكم الضر ونهبكم الخير .. أليس كذلك ياسمنكرع ؟

مصطفى - (يزغد صبحى) انطق ياغبى .

صبحى - طبعاً .. طبعاً .

(يحدث هرج ويتشاغل رع بالحديث مع عمر) .

صبحى - (غامساً لمصطفى) متى سنتهى من كل هذا ؟

مصطفى - بعد كتابة العقد .

صبحى - أهنالك عقد ؟

مصطفى - أجل .. سخمت أنبأتنى بهذا .

صبحى - عقد واحد !

مصطفى - ماذا تعنى ؟

صبحى - أعنى أسيتزوج الباشمهندس وحده ؟

مصطفى - طبعاً .

صبحى - كنت أظننا سنتزوج كلنا .

مصطفى - (فى دهشة) أأنت متزوجاً ؟

صبحى - واحدة فقط .. وأنت سخامة هذه تعجبنى .. لحمها طرى ..

وجسدها يملأ الحوض .. قل لمريت إنى أريد زواجها .

مصطفى - ليس هذا وقته ياصبحى .

- صبحى - لماذا ؟ .. بدل العقد .. نجعله عقدين .
- مصطفى - أنت كبير كهان .
- صبحى - وماذا فى ذلك ؟
- مصطفى - وهى وصيفة .
- صبحى - يعنى إيه وصيفة ؟
- مصطفى - خادمة .
- صبحى - ليكن .. أنا خادم بيت الله .
- (رع يحاول إسكات الضجة) .
- رع - صمتاً .. لقد أكد لنا الأمير محب أنه ليس فى نيتهم غزو بلادنا ،
ولا إغراق أراضينا .. وهذا وعد كاف لاضرورة لكل هذه الضجة .
- (نفرو تنهض من مقعدها وتقترب من عمر ومريت) .
- نفرو - يا ولدى .. أهم عندى .. من أن بلدك لن تغزو بلدنا .. وقومك لن
يفرقوا أراضينا .. هل تحب مريت ؟
- عمر - (فى حرارة) أجل .
- نفرو - أشعر بالسعادة وأنت بجوارها ؟
- عمر - لأعرف السعادة إلا بجوارها .
- نفرو - أتفكر فيها إذا غابت عنك ؟
- عمر - لم يعد ذهنى يستطيع الخلاص منها .

نفرو - وسعيد أنت بهذا ؟

عمر - لم تعد المسألة بالنسبة لي سعادة أو شقاء .. لقد أصبحت ضرورة لازمة .. لزوم كل مقومات الحياة .. لزوم الماء والهواء .

نفرو - (لمريت) ، وأنت يامريت ؟

مريت - (هامسة) بت شراً منه .

نفرو - (لنفسها) بعد كل هذا لم تعد هناك أى مشكلة .

عمر - مشكلة ؟! .. لو تدرين !! الزمن نفسه لم يكن مشكلة .

نفرو - هيا يارع .. مر الكهان أن يبدعوا إجراءاتهم .. ولتباركنا الآلهة .

بوتو - أنا جاهز يامولاي .

رع - ناد الكهان .

(رع يخرج إلى الشرفة وينادى) .

رع - توت .. نحت .. هاتوا أوراكم .

(تدخل مجموعة من الكهان ويجلسون في ركن القاعة ، ويأخذون في

الكتابة) .

رع - (لموس) لتبدأ الاحتفالات ياموس .

(موس يشير لأحد معاونيه) .

موس - لتبدأ الرقصات .. وليقدم النبيذ والأطعمة .

(يخرج معاونه لإعطاء الأوامر ببدء الاحتفالات) .

(بوتو يتقدم من الكهان ويقف في وسطهم ثم يتناول الورقة التي كتب عليها العقد ويأخذ في القراءة) .

بوتو - يا أمير الشمال .. يا ابن الفراعنة .. اتل معي الوثائق المقدس الذي سيربطك بزوجتك ابنة رع .. سليمة الآلهة .. أجاهز أنت ؟
عمر - أجل .

بوتو - يا مريت يا بنت رع .

(عمر يردد كل فقرة من فقرات العقد) .

عمر - يا مريت يا بنت رع .

بوتو - لقد اتخذتك زوجة^(١) ، وللأطفال الذين تلدينهم لى كل ما أملك وما سأحصل عليه .

عمر - لقد اتخذتك زوجة ، وللأطفال الذين تلدينهم لى كل ما أملك وما سأحصل عليه .

بوتو - ولن يكون فى مقدورى أن أسلب منهم أى شىء مطلقاً لأعطيه إلى أحد من أبنائى أو إلى أى شخص آخر فى الدنيا .

عمر - ولن يكون فى مقدورى أن أسلب منهم أى شىء مطلقاً لأعطيه إلى أحد من أبنائى أو إلى أى شخص آخر فى الدنيا .

بوتو - (يجد بعض الفقرات غير واضحة فيقدمها إلى مساعده) ، أصلح هذا .

(١) عقد الزواج مأخوذ من نص عقد زواج يرجع تاريخه إلى عام ٢٣١ ق . م .. أبرم بين أمحوتب وتاحاتر (وهو محفوظ فى المتحف المصرى بالقاهرة) .

مصطفى - (لصبحي) .. أما زلت تصر على الزواج ؟

صبحي - ولم لا ؟

مصطفى - وتحرم أولادك ؟

صبحي - من أي شيء .. ماذا تأخذ الريح من البلاطة بإباشمهندس .. دعنا .. تتمتع .

(صبحي يقترب من سخمت .. ثم يرفع يده ويضعها على كتفها ويتحسسها كأنه يمنحها البركة) .

صبحي (لسخمت) باسم الله ماشاء الله .

مصطفى - إحشتم يا صبحي ، أنت كبير كهان .

صبحي - (مستمراً في التحسيس) الله جميل يحب الجمال .

بوتو - (مستمراً في تلاوة العقد بعد أن يتناوله من مساعده الذي أصلحه) .. سأعطيك من النبيذ والفضة والزيت ما يكفي لطعامك وشرابك كل عام .

عمر - (في دهشة يتساءل) نبيذ وفضة وزيت !

مريت - (تشير إليه برأسها كي يستمر في التردد) .

عمر - سأعطيك من النبيذ والفضة والزيت ما يكفي لطعامك وشرابك كل عام .

صبحي - نبيذ ؟! (متحسماً سخمت) تشربين نبيذ يا سخمت .. وتأكلين فضة وزيتاً .. (صائحاً كأنه اكتشف غلطة) تقصد فولاً وزيتاً ياسيدنا .

بوتو - (في دهشة) ماذا ياسيدي ؟

- صبحى - تقصد .. فول .. وزيت .
- بوتو - (فى إصرار) فضة وزيت .
- صبحى - كيف تأكل الفضة والزيت .. أنا لا أوافق إلا على فول وزيت ،
ويمكن إضافة الليمون .. يكون أطعم .
- بوتو - (فى إصرار) فضة وزيت .
- صبحى - ولكن ..
- مصطفى - (يهزه بمرفقه) يا صبحى .
- صبحى - فضة .. وزيت .. ماذا تفعل بالفضة والزيت ؟
- عمر - تشتري بالفضة فول .. وتأكله بالزيت .
- صبحى - آه .. فهمت .. (البوتو) لماذا لاتفهمنى هذا ؟
- بوتو - (يهز رأسه فى أسف ويستمر فى قراءة العقد) ستضمنين طعامك
وشرابك الذى سأجريه لك شهرياً وسنوياً وسأعطيه إليك أينما أردت .
- عمر - ستضمنين طعامك وشرابك الذى سأجريه عليك شهرياً وسنوياً
وسأعطيه إليك أينما أردت .
- بوتو - وإذا طردتك أعطيتك خمسين قطعة من الفضة ، وإذا اتخذت لك
ضرة أعطيتك مائة قطعة من الفضة .
- عمر - وإذا طردتك أعطيتك خمسين قطعة من الفضة .. وإذا اتخذت لك
ضرة أعطيتك مائة قطعة من الفضة .
- (بوتو يكمل إجراءات الزواج)

صبحى - (متحسباً) سخمت يحسب الحسبة فى بطء) الطرد بخمسين
والضرة بمائة .. طبعاً أطردك أرخص .. ثم أتزوج من جديد .. لاداعى أبدأ
لمساءلة الضرة .

مصطفى - ياغبى .. إن لها ضرة جاهزة .. عليك أن تدفع المائة .. بمجرد
الزواج .

صبحى - غير معقول .. (يتحسب سخمت) مائة .. كثيرة .

سخمت - كثيرة .. ماذا تعنى ؟

صبحى - كثير .. كل شيء فبك كثير .. لحملك .. وشحك .

سخمت - كأنك أنت القليل .. وأنت تبدو كالعجل .. يا سيدى .

صبحى - (غاضباً) عجل ؟ !

مصطفى - لا تفضب هكذا .. أنت لاتعرف قيمة العجل عندهم .. إنه من
بين الآلهة .

صبحى - (يعاود تحسيسها) مائة .. لا .. يفتح الله .

مصطفى - عدلت .

صبحى - ليس بالضبط .. سأعاملها ككبير الكهان .. أمنحها البركات ..
مجاناً .. (لسخمت) تعالى يا سخامة البرك .. لاداعى لمساءلة الزواج هذه .
سنمنحك البركات .. فقط .. بركاتك ياست سخمت .

(بوتو مستمر فى بقية إجراءات الزواج .. ويتمم بعض أقوال غير مفهومة
ويلوح بيديه كأنه يطرد الشياطين .. ثم يعطى العقد لبعض الحاضرين لإمضائه
كشهود ومن بينهم صبحى ومصطفى) .

(بوتو يناول عقد الزواج لعمر ويريت كتفه) .

بوتو - (لمريت) تناولى عقد الزواج من يد زوجك كى يعمل بكل كلمة فيه .. إنه موافق على ذلك .

(الموسيقى تتعالى والراقصات يرقصن على شاطئء البحيرة خارج الشرفة وأكواب النبيذ تقدم للحاضرين) .

نقرو - (لعمر) أشعر أنى قريرة العين .. لأن ابنتى سيرعاها من يحبها .. كن لها .. كما أكون أنا .. وكما يكون أبوها .

عمر - سأكون لها كل شىء .. فى كل مكان .. وفى كل زمان .

مريت - (مؤكدة) فى كل زمان ؟

عمر - أجل يا مريت .. أنت تعلمين .. أن الزمن لم يكن أبداً بالنسبة لنا مشكلة .

مريت - (تسير معه لتقف بجوار الشرفة بعد أن يأخذ الحاضرون فى الخروج إلى الحديقة وينهمكون فى الطعام والشراب والرقص . ويختفى فرعون وزوجته داخل القصر) لن تضيق بزمنى .

عمر - مادمت فيه ، قلن أضيق به .

مريت - أتحتمل أن يسلب منك حضارة كل هذه القرون .. كل تجربة الإنسان طوال تلك السنين . كل نتاج ذهنه .. وجهده .. تتنازل عنه بمثل هذه السهولة !

عمر - كل تجاربه .. وجهوده ، وإنتاجه .. قد بذله من أجل أن يشعر بما أحس به بجوارك . أن يشعر بحلاوة الحياة ، بنعمة الاستقرار ، والراحة .. لكى يوفر لنفسه السعادة والطمأنينة والأمن .

مریت - هل .. وفرة ؟

عمر - (يتهد) لأعلم يا مریت ، لأعلم .. بعد كل الذى فعله الإنسان من معجزات .. بعد كل هذه الأعاجيب التى صنعها منذ البخار إلى الذرة .. بعد كل وسائل الراحة التى ابتكرها هل استراح ؟ . هل حصل على قدر أكبر مما تحصلون عليه أنتم ؟

مریت - (فى لهفة) هل حصل ؟

عمر - أشك يا مریت .

عمر - كل ما يحصل عليه فى الحياة .. يحدده تركيبه البشرى ، وتركيبه يا مریت لم يتغير .. تركيبه الجسمانى والعاطفى ، والذهنى ، نفس الانفعالات ونفس المشاعر ، ونفس الآلام ، والمتاعب .. لم يستطع برغم كل ما ابتكر أن يزيد من قدرة معدته على استيعاب المزيد من الطعام .. لكى يستمتع بالمزيد مما ابتكر من أطعمة .. لم يستطع أن يمنح لنفسه قدرة على الاستمتاع بالجنس أكثر مما لديكم من قدرة .. لم يستطع أن يغير كثيراً .. أو حتى قليلاً من تركيبه البشرى .. نفس النسيج الواهن والخلايا المستهلكة التى تدمرها جرثومة وتحطمها لفحة هواء وتمضغها الأيام حتى تتآكل مع الزمن . لم يستطع أن يخفف من أحقاده . من مطامعه .. من أنانيته . لم يستطع أن يلغى انفعال الحب أو الغيرة .. أو الحسد ، وبات كل ما طوره خارج نفسه ، لا يجد مقابلاً له داخل نفسه ، وأصبح من أجل ذلك محدود القيمة .. ما قيمة أن أبدل لك كوب العسل .. بحراً .. إذا كانت قدرتك لا تحتمل أكثر من الكوب . إن الفارق بين اليد الخالية ، واليد التى تحمل السكين .. واليد التى تحمل المدفع .. أو القنبلة الذرية - إذا كان الانفعال الذى يحركها هو الشر والحقد - لن يكون أكثر من الفارق بين الخنق والذبح ، وغيرها من وسائل القتل .. لم نسترح يا مریت ،

لأن شيئاً في تركيبنا .. يأبى علينا الراحة . عندما أفكر في السنين الطوال التي بيننا ، وأسأل نفسي ماذا فعلت بنا .. لا أستطيع أن أقنع نفسي بأنها فعلت شيئاً عميقاً .. لم تمنحنا الشيء الحقيقي الذي نريده .. بل لعنا .. سلبت منه بعضه .

مررت - - ما هذا الشيء الذي تقصده ؟

عمر - - نعمة الراحة .. نعمة الاكتفاء .. نعمة الأمان من الخوف .. الخوف من أنفسنا .. ومن حولنا ، ومما حولنا .. بكل هذه المخترعات ، والمبتكرات التي عملها الإنسان من أجل الإنسان ، لم يحاول واحد من أصحابها أن يسأل نفسه .. ماذا يريد الإنسان ، وكيف يناله ؟

مررت - - وهل سألت، أنت نفسك و

عمر - - ماذا يريد .. وكيف ؟ .. ماذا يريد .. هي المشكلة ، إنها مشكلة معقدة .. لأن تركيبه معقد .. لو أن ما يريده الإنسان في بساطة ما يريده الحيوان .. أكل وجنس ونوم لأصبح حلها واضحاً ، وأضحى عليه أن يعمل لتدبير احتياجاته الواضحة ، ولكنه يبدأ بهذا .. ثم تنمو مطالبه وتتعدد وتتشابك وتتعارض ، ويحركها في اتجاهاتها المختلفة الخليط العجيب الذي يتركب منه الإنسان .. خليط الحنان والقسوة والحب والبغض والألفة والنفور والخير والشر .. والإيمان والكفر .. والاستسلام والثورة ، والشجاعة والجبن . والغباء والنكاه ، والبله والمكر .. هذا الخليط العجيب الذي يوجد كنهه في المخلوق الواحد .

مررت - - كأنى بك تحس بأساً من الزمن أن يفعل بالإنسان شيئاً ما .

عمر - - بعد كل هذا الزمن الذي بيننا .. عندما أشعر في بعض الليالي أن خير ما أستطيع الحصول عليه هو إغفاءة في الفراش .. عقب يوم شاق ..

عندما أحس أن أمتع ما يمكن أن يمنحني زمني هو إغماضة عين .. لا أظنني أمل في الزمن أن يفعل جديداً في الإنسان .. أو في الإنسان أن يأتي لنفسه بجديد على الزمن .

مررت - أتقول هذا .. بعد كل ما رأيت في زمنك من معجزات ؟

عمر - معجزات .. يعادل خيرا شرها .. لم ترى أنت .. كيف استعمل الإنسان معجزاته .. في تأكيد كل ما لا يتمناه .. وتحقيق كل ما لا يصبو إليه .. تأكيد القلق والخوف .. وتحقيق الدمار .. كل ما يصنعه من معجزات ، يسلمه ببساطة إلى يد الفتك .. اليد التي تحركها الأحقاد ، ويتساوى لدينا أن تكون فارغة لتخلق .. أو محملة بقنبلة ذرية لفتك .. ولعلها تكون السخرية .. إذا قلت لك إن أقصى مايفعله الإنسان هو تطوير وسائل الفتك لكي تلتكم نمو البشرية وتكون أقدر على الفتك بها .

مررت - ووسائل الراحة .. والاستمتاع ؟

عمر - لست أدري .. ماذا منحتنا حقيقة .. أو لعل طبيعتنا الإنسانية التي يفقدنا تعود الشيء متعته .. هي التي أنستنا قيمتها .. ولكن الشيء الذي لايمكن إنكاره أن باطننا وأحاسيسنا النابعة منه وانفعالاتنا المتبادلة وعلاقة الإنسان بالإنسان هي السبب الحقيقي لسعادتنا أو شقائنا .

مررت - (تتهجد) حديثك يطمئنني على مصيرنا معاً .. وإن كان لايطمئن على مصير الإنسان في الدنيا .

عمر - لايفلتك الإنسان .. فلمست أظن أن هذا الذي قلته لك إلا ملائماً لتركيبه وطبيعته .. حياته صراع .. كما قلت لك .. مع نفسه .. ومع من حوله .. ومع ماحوله .. يبدأ منذ أن يولد ولايفرغ حتى يموت .

(مصطفى مقبلاً عليهما)

مصطفى - (ينظر في ساعته خلسة) أظن الوقت قد حان .

مریت - حان لأى شىء ؟

مصطفى - للعودة .

مریت - العودة إلى أين ؟

مصطفى - موعد الوردية .. لم يبق عليه سوى ..

عمر - (مقاطعاً) وردية .. أى وردية ؟

مصطفى - وردية العمل .

عمر - أى عمل ؟

مصطفى - العمل فى الموقع .

عمر - أى موقع ؟

مصطفى - موقع السد .

عمر - أتعنى .. أنك تنوى العودة ؟

مصطفى - طبعاً .

عمر - كيف ؟ لقد انتهينا من هناك .. لقد أصبحنا هنا ، ارتبطنا بهذا

الزمن .

مصطفى - أنا .. أنا .. لم أرتبط .. ليس هناك مايربطنى .

عمر - ولكنك قلت إنك آت معى .

مصطفى - قلت إني آت للاطمئنان عليك .

(تفرو تنادى مريت فتذهب إليها)

عمر - ولكن .. كيف تتركني وحدي ؟

مصطفى - وحدك؟! أنت عريس .. والمفروض أن تبقى مع زوجتك
وأهل زوجتك .. ماذا يحشرنى أنا وسطكم ؟

عمر - ولكنك أنت قائد جيش .

مصطفى - (يقهقه) أصدقت أنى قائد جيشك ؟

عمر - أنا أتحدث بواقعي .. أنا أعيش فى زمنى الجديد .. أعنى فى زمنى
الغابر .

مصطفى - ولكنى لست كذلك .. أنا المهندس مصطفى عبد الرازق فى
شركة المقاولين العرب .. أعمل فى السد العالى بالجمهورية العربية المتحدة
فى عام ١٩٦٣ ، ولست بالتأكد أوزيرو قائد جيش الشمال .

عمر - أنت إذن ستخذانى ؟

مصطفى - كيف أخذاك ؟ إنى أتركك فى كل هذا المجد والسعادة .. تتزوج
ابنة فرعون .. فتاة شهية كالفتاحة الناضجة .. وتتهمنى بأنى أهداك . (منادياً
لصبحى) ياصبحى (مستدركا) ياسمكرع (يقبل صبحى وقد بدا عليه السكر)

(عمر يتجه إلى مريت ويتشائل معها)

صبحى - ماذا تريد ياأوزيرو ؟

مصطفى - نهارك أسود .. لقد سكرت .

صبحى - أنا مبسوط فقط يا أوزيرو .. الست سخمت ممتعة جداً .. قرصتها
فى ساقها .. كأتى أغرس أصابعى فى طبق بالوظة .. تعال خذ لك قرصة .
مصطفى - اسمع يا صبحى .. كنى عبتاً .

صبحى - لست صبحى .. أنا سمنكرع كبير الكهان .

مصطفى - (يهزه من نراعه) .. اسمع .. هنا .. أنت صبحى السائق .
صبحى - أنا سمنكرع .

مصطفى - سمنكرع .. سمنكرع .. هيا بنا ياسمنكرع .

صبحى - إلى أين ؟

مصطفى - إلى الموقع .

صبحى - موقع ؟!

مصطفى - أجل موعد الوردية قد حل .

صبحى - أنا سمنكرع .. أنا ذاهب إلى سخمت .. لا بد أن أمنحها
البركات . (هامساً) بينى وبينك ، ستبيت معى .. فلقد أفهمتها أن البركات
نحتاج لوقت طويل .

مصطفى - اسمع يا صبحى .. أفق لنفسك .. سنعود الآن إلى الموقع .

صبحى - لا .. لا .. أنا لن أعود .. لن أترك سخمت ، وأذهب إلى نبوية
أبدأ .

مصطفى - إذن اذهب بى .. وعد .. أوصلنى فقط .. مسافة الطريق .

صبحى - وأعود ثانية ؟

مصطفى - أجل .

صباحي - ومن يضمن لي ؟

مصطفى - أعذك .

صباحي - (متردداً) تترك كل هذا العز .. والشرب والأكل .

مصطفى - نصف ساعة فقط .. هيا .

(عمر عائداً)

مصطفى - (العمر) عن إنك .. تصبح على خير .

عمر - أمصر على العودة ؟

مصطفى - طبعاً .

عمر - هكذا ببساطة .

مصطفى - ماذا تعني ببساطة ؟

عمر - تذهب وكأننا سنلتقي في الغد !

مصطفى - فعلاً .

عمر - كيف ؟

مصطفى - لعل مركزك الجديد ، في أسرتك الفرعونية الجديدة لا يجعلك

تترفع علي .

عمر - ليست مسألة ترفع .

مصطفى - مسألة ماذا إنن ؟

عمر - هل ستضمن أننا سنستطيع اللقاء .

مصطفى - ولم لا ؟!

عمر - أمت أدري .. هل هذا الفارق الزمني القائم بيننا .. هذا العصر الذي ساندمج فيه .

مصطفى - لا تكن سخيلاً .. سأتي لأراك هنا .

عمر - من يدري .

(بيدو حور وخنوم متسللين وراء عمود وينصتان إلى حديثهما) .

مصطفى - يدري ماذا ؟

عمر - هل يمكن أن تجدني ؟

مصطفى - ولم لا ؟!

عمر - أنت تعرف أن هذه الأرض ستغرق كلها .

مصطفى - (في شرود) أجل .

عمر - ومنغمر المياه كل ما عليها .

مصطفى - أجل .. أجل .

عمر - وكل من عليها .. بما فيهم أنا .

مصطفى - أنت ؟

عمر - أجل أنا .. أأست واحدأ من هؤلاء الذين يعيشون هنا ؟

مصطفى - ولكن .. لماذا لا ترحلون مع الباقين إلى كوم امبو ؟

عمر - كيف ؟ الأميرة الفرعونية ترحل إلى كرم امبو ؟

مصطفى - ماذا متفعل إذن !؟

منبقى في المعبد حتى تغرق .

مصطفى - غير معقول .

عمر - بل معقول .. أنت تعرف كيف أكدت إذا مريت أنهم سيستقرون في المعبد .. وسنذهب إلى الجنة السماوية .

مصطفى - وأنت ؟

عمر - معهم .. إلى حقل القربان بين الآلهة الذين ذهبوا إلى أرواحهم .

مصطفى - مستحيل .. غير معقول ، هذا كلام فارغ .

عمر - وستجدنى في المعبد عندما يرفع . محيطاً .. وملقوفاً في الشاش ، في أحد التوابيت .. بعد أن تغرق الأرض .

(حور وخنوم ينصتان في اهتمام بعد أن أحضرا بقية الحاشية ومن بينهم موسى ويوتو) .

حور - أرايتم بعيونكم .. أسمعتم بأذانكم .. المؤامرة الدنيئة .. القى توشك أن تودى بنا وتغرق أراضينا !

خنوم - كنت أشعر بهذا .

موس - عجب .. لم يخطر ببالي أن تفعل مريت بنا هذا .

يوتو - لاشك أنهم غرروا بها .

حور - على أية حال لا بد أن نأخذ إجراء سريعاً .. لا بد من القبض عليهم .

موس - لنستأنن أولاً من مولانا رع .

حور - أنا مستول .. سأمر الحراس بالقبض عليهما فوراً .. وإيداعهما السجن .

خنوم - سيحاكمون أمام الجميع .. وسأوقع بهم أشد الجزاء .

حور - أنت قاضى القضاة .. وقد سمعت بنفسك اعترافهم .

(حور صائحاً بالحراس)

حور - أيها الحراس .. اقبضوا على هؤلاء .. اودعوهم السجن .

(الحراس يققون مشدوهين برهة .. حور يصيح بهم)

حور - أنا آمركم .

(الحراس يحيطون بالثلاثة ويمسكون بهم)

عمر - ما هذا ؟

حور - لاداعى للإتكار .. لقد سمعنا اعترافكم .. سمعنا كلنا تأمركم على إغراق البلاد .

(مریت مقبلة على صوت الضجيج)

مریت - ماذا .. ماذا حدث ؟

حور - اصمتى أنت .. سيأتى دورك بعد .

مریت - ما هذا الذى تقول ؟

حور - اسألى موس .. واسألى خنوم ويوتو كيف اعترف الأشرار بعزمهم

على إغراق البلاد .

- (يهزون كلهم رعوسهم بالمواقفة) .
- مریت - سأذهب إلى أبي .. سأخبره بهذه الواقعة .. والدس الدنيا .
- حور - سيعرف أبوك كل شيء .
- حور - (للحراس) إلى السجن .
- مصطفى - (وهو يجر إلى الخارج) موعد الوردية ياناس .. يا صبحى ،
مالى أنا ولكل هذا ؟
- صبحى - سخمت .. سخامة البرك .. ساتى إليك .. سأمنحك البركات ..
أنا عائد إليك .. لا تخافى .. سأعود حتى لو طلقت نبوية .
- عمر - غير معقول .. السجن .. فى هذا الزمن .. لماذا ؟ . نحن لم نغرق
أحداً .. الأهالى هاجروا .. والمعابد سترفع .. لقد كنا حريصين على ألا نضيع
شيئاً .. حتى مع كل هذا الزمن الذى مر .
- حور - قل هذا فى المحاكمة .. سترى أى مصير ينتظركم .

(يسدل الستار)

الفصل الخامس

متى وكيف وأين ؟

(المتظر : حجرة في السجن .. عمر ومصطفى يجلسان على الأرض في حالة يأس ، تبدو في المواجهة يضع درجات تؤدي إلى باب كبير به فتحة يطل منها حربو حارس السجن الذي يتحدث مع صبحى الجالس على الدرج بجوار الباب .. على اليمين في أعلى الجدار تبدو نافذة مستطيلة ضيقة تطل على النيل) .

صبحى - (صائحاً) .. ياسيدنا .. ياباشسجان .

حربو - وبعد .. ماهذا الصياح الذى لا ينتهى .. ماذا تريد ؟

صبحى - سيجارة .. سيجارة يا حربو .. سيجارة .. يا حربية الكلب .

حربو - رجل كبير وقبيح .. شاييب .. وعاييب .

صبحى - لاتواختنى .. حاجة الكيف تردى .. حقك على .. هات
سيجارة .

حربو - قلت لك مائة مرة .. لا أعرف ماهى السجارة .

صبحى - أهذا كلام !! أنتم .. ناس !! أهذا زمن !! سجارة .. ياأستاذ ..
دخان .. (يرفع يده إلى فمه وينفخ كأنه يدخن) دخان .

حربو - لا .. لا أستطيع أن أسمح بحريق .. ليس من عملى أن أنفذ حكم
الإعدام .. أنا سجان فقط .

صبحى - إعدام .. يانهار أسود .

حربو - طبعاً إعدام .. لقد أصدر رئيس القضاء خنوم حكمه على كبيركم
بالإعدام .

صبحى - حكم على كبيرنا بالإعدام ، سامع ياباشمهندس .. هذه نتيجة
اللعب مع المجانين .. رحنا فى شربه ماء .. تصور هؤلاء المخابيل يفعلونها
ويغتموتنا .

حربو - ليس كلكم .. كبيركم فقط .

صبحى - وأنا ؟

حربو - سيقطعون أنفك .

صبحى - (يمسك بأنفه فى خوف) يا حفيظ .

مصطفى - (يتحسس أنفه فى صمت)

حربو - لا .. أنت .. سيقطعون أنفك .

صبحى - هذا ظلم .. ظلم .

حربو - هذا حكم المحكمة .

صبحى - محكمة .. محكمة .. هات سيجارة .

حربو - قلت لك نحن لا نعرف هذه السيجارة التي تتحدث عنها .. والتي
قلبت تماغنا عليها .. بصراخك هذا .

صبحى - ماذا تعرفون إنن .. ألدیکم .. جوزة ؟

حربو - لم نسمع عنها .

صبحى - شيشة ؟

حربو - ولا هذه .

صبحى - ماذا لديكم إنن غير خبز السن الذى تطحنونه على الرحاية ..
قل ماذا لديكم فى هذا الزمن النحس .. الذى ساقنا إليه الحظ العكر ؟

مصطفى - (يتمتم فى أسى) وباليقينا عجيبنا .. رضينا بالهم .. والهم لم
يرض بنا .. يعدموتنا .. ويقطعون آذاننا وأنوفنا .

عمر - (فى يأس) وحتى كلمة وداع .. حرماننا منها .. ليئننى لم أذعن
لها ، وما عدت معها .. ليئننى أبقينها فى زمنى .. كان أقصى ما يصيبها ..
خوف يسير .. بعده تتعود على كل هذه الأشياء التي تفرعها .. مهما حدث
لها هناك .. فى عالمنا الذى ضاقت به وفرغت منه ، لم يكن يتعدى الهزؤ بها
والسخرية منها .

مصطفى - لم يكن يصل أبداً .. إلى حد السجن والإعدام .

صبحى - وإعدام حاف .. بلا عقب سيجارة .. الذى أعلمه عندنا .. إنهم يسألون المحكوم عليه بالإعدام .. عما يشتهى قبل أن ينفذ فيه الحكم .

حربو - (معترضاً) قلت لك إنك غير محكوم عليك بالإعدام .. أنك فقط هو الذى سيقطع .

صبحى - فقط .. (يهز رأسه فى دهشة) ليكن .. هذا الرجل المسكين الذى ستعدمونه .. مات له سيجارة .

حربو - (فى ملل) .. مائة مرة قلت لك .. ليس لدينا سجائر .

صبحى - لاسجائر .. ولا غير سجائر .. ليس لديكم أى شيء فى هذا الزمن النحاس ؟

حربو - وماذا لديكم أنتم .. لديكم معابد كهذه ؟

صبحى - طبعاً .. بمآذن، وقياب .

حربو - ومقابر كهذه ؟

صبحى - شيء يقضى .. يلم عظامنا ورممتنا .

حربو - وتقدم لكم كل هذه القرايين ؟

صبحى - شيء على ما قسم .. فطير .. وشريك .. وبلح .

حربو - فقط ؟

صبحى - طبعاً .. ماذا تريد .. نباتح ؟

حربو - ونبيذ وعطر .

صبحى - لا .. لا .. أمواتنا لا تحب الرمرمة .. ولا العياقة ولا العريدة .

- حربو - ماذا لديكم إنن في زمنكم الذى تعبيرنا به ؟
- صبحى - لدينا .. لدينا .. عربات . قطارات .. طائرات .
- حربو - لماذا .. كل هذا ؟ .
- صبحى - للركوب .. للتنقل .. لكى لا نتعب فى المواصلات .
- حربو - لابد أنكم مستريحون جداً ؟
- صبحى - مستريحون ؟ .. (فى تردد) مستريحون فى المواصلات ؟
- (محدثاً زميليه) أنحن مستريحون يباشمهندس فى المواصلات ؟ وأزمة المواصلات .. ويوم الحشر فى الأوتوبيسات ، والعذاب الذى نلقاه من المحصلين والسائقين ، ماذا أقول له ؟
- عمر - قل له مستريحون طبعاً .. لا داعى للفضائح .
- صبحى - مستريحون طبعاً .. ليس لدينا أزمة مواصلات .. مثل التى عندكم .
- حربو - من قال إن عندنا أزمة مواصلات ؟
- صبحى - لديكم أتوبيسات ؟
- حربو - لا .
- صبحى - ولا عربات ؟
- حربو - ولا ترام ؟
- حربو - لا .
- صبحى - ولا تاكسيات ؟

حربو - لا .. لا .. ليس لدينا شيء من كل هذا الذي تقوله .

صباحي - وليس لديكم أزمة مواصلات . ؟

حربو - قلت لك لا .

صباحي - (سائلا زميليه في دهشة) الله .. لماذا إذن اخترعنا نحن كل هذه المواصلات ؟

مصطفى - (ضاحكا لنفسه) لكي نحدث بها أزمة مواصلات .. (اصباحي) اسمع .. قل له لكي تقرب المسافات البعيدة ؟

حربو - ولماذا تقربون المسافات البعيدة ؟

عمر - لكي توفر الوقت .

حربو - ولماذا توفر الوقت ؟

صباحي - (في حيرة) توفر الوقت .. توفر الوقت .. (لعمر) أجل ياباشمهندس .. لماذا توفر الوقت ؟

عمر - لكي .. لكي .. تذهب إلى السينما .. وتسمع الراديو وتشاهد التلفزيون .

حربو - ما كل هذا ؟

مصطفى - اختراعات .. تميز عصرنا .

صباحي - وتلعب طاولة .. وكوتشينة .

حربو - لماذا تفعلون كل هذا ؟

مصطفى - لكي .. لكي (في حيرة لعمر) .. أيمكن أن أقول له لكي نقلل الوقت

عمر - غير معقول .. سيقول عن زمننا زمن مجانيين .. نصف اختراعاتنا
لقتل الوقت الذي نوفره بالنصف الآخر .. لا .. لا تضحك هذا اللثيم علينا ..
(لحربو) لأجل أن نتتقف .

حربو - (ببساطة) ولماذا نتتقفون ؟

عمر - (لمصطفى) هذا الغبي لن ينتهي من أسئلته .. إنه يتسلى بنا ..
دعك منه .

حربو - (يعاد السؤال) لماذا نتتقفون ؟

مصطفى - لكي .. لكي .. نزيل غشاوة الجهل عن نفوسنا .. لكي نعرف
المزيد .. من عالمنا .. الذي نعيش فيه .. لنطوره إلى أفضل .

حربو - لكي تقوموا بالمزيد من الاختراعات .. التي تسبب لكم المزيد من
المتاعب .. أو تقتل لكم المزيد من الوقت الذي توفرونه بها .. أو المزيد من
النسل الذي تنجبونه .. قل .. ماذا يميز زمنكم .. عن زمننا الذي ترمونه
بالنحس ؟

مصطفى - ماذا أقول له .. هذا الغبي الذي يحاول أن يقارن زماننا بزمانه .
عمر - قل له إننا سنصعد إلى القمر .

حربو - قمر !؟ أنتم تصعدون إلى القمر .. ماذا ستفعلون هناك ؟

صباحي - أجل يا باشمهندس .. حقيقة .. ماذا سنفعل هناك ؟

عمر - سنكتشفه .

حربو - وبعد ؟

- عمر - لننعم بخيراته .
- حربو - لأظن الأرض قد ضاقت بكم .
- مصطفى - بدأت تضيق .
- حربو - إذن ستنتقلون إليه ؟
- عمر - أجل .
- حربو - بما أنتم عليه .
- عمر - ماذا تعنى ؟
- حربو - أعنى .. بما أنتم عليه فى الأرض .
- مصطفى - طبعاً .
- حربو - بكل ما تحملونه فى نفوسكم من متناقضات .
- مصطفى - (لعمر) الظاهر أنه سيقبل أدبه .
- حربو - (مستمراً) بحروبكم ومطامعكم .. وورثانكم .. وثنوبكم .. بكل ما يحمله الإنسان من نقائص .
- عمر - وما يحمله من مزايا .. بحبنا ونكائنا .. وخيرنا .. وصبرنا .. فى التعمير والبناء .. والعدالة والمساواة .
- حربو - بحصيلة كل هذا الذى فى أرضكم .. والذى جعل الأرض ... بكم .. ما هى عليها .
- مصطفى - أجل .
- حربو - باختصار .. ستجعلون منه أرضاً أخرى .

صباحى - (بفخر) طبعاً .

حربو - (بمنتهى الأسى) عليه العوض .

مصطفى - فعلاً .. عليه العوض .. (لعمر) أترى مشكلة البشر هى أن الأرض قد ضاقت بهم فعلاً ؟

عمر - الحقيقة .. لا .. بإمكانات البشر الحالية .. لم تضق بهم الأرض .. وإنما يهدر خيرها من البعض .. ويعيش البعض الآخر محروماً .. ميزانيات التسليح التى تهدر فى الأرض .. يمكن أن تقضى على كل ما بها من حرمان وعوز .

مصطفى - وبإمكانات البشر المقبلة .. يمكن أن تضاعف طاقات الأرض فى تهيئة الرخاء

عمر - المشكلة إذن لم تصبح بعد مشكلة طاقة الأرض .. أو طاقة البشر فى استغلال الأرض .. وإنما هى مشكلة سوء تدبير أمر البشرية كوحدة نتيجة لسوء التفكير ، وسوء الخلق .

مصطفى - أجل .. لو نبر البشر أمرهم كوحدة واحدة .. بحسن فهم وتعاون .. فإن خير الأرض يكفى البشر جميعاً .. وتوافرت للبشر جميعاً سبل من الرخاء .. تقضى على الصراع الذى ينشب بينهم من أجل أن يوفر كل منهم الرخاء لنفسه ويحرم الآخرين .

عمر - لو فعل الإنسان هذا .. لفرغ من الصراع الداخلى .. وتفرغ لصراع أعداء البشر فى الأرض .. من الجرثومة إلى الزلزال .

مصطفى - واستطاع أن يحصل على المزيد من الرخاء فى أرضه .. والمزيد من الخير فى عالمه .

عمر - والمزيد من الفضل في نفسه .. لطور نفسه إلى مخلوق أفضل ..
في كل شيء .

(حريو يهز رأسه في دهشة ويسأل صبحي) .

حريو - ماذا يقول صاحبك ؟

صبحي - كلام فارغ .. مما يكتبونه في الكتب .. أشياء تقال ولا تحدث ..
أشياء لا تتحقق كما قال الباشمهندس إلا بحسن الفهم بين البشر وحسن الخلق ،
ومن أين لنا هذا يا حريو ؟

حريو - من يدري .. قد يقتنع البعض بهذا .. ويدعون إليه ويدبرن أمر
البشرية .

صبحي - (مقاطعاً) تدبير أمر البشرية ليس مهماً الآن يا حريو .. المهم
تدبير سيجارة . سيجارة يا حريو ؟
(يسمع ضجيج في الخارج) .

حريو - ما علينا .. يبدو أنهم قادمون لتنفيذ الحكم (لعمر) طبعاً .. أنت
لا تعرف كيف تلقى آلهتنا ؟

عمر - أعرف كيف ألقى إلهي .. أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً
عبده ورسوله .

حريو - اسمع .. نصيحتي .. عندما تذهب بعد الموت إلى قاعة الحساب
ستجد القاضي أوزيروس يساعده الاثنان والأربعون إلهاً في محاسبة المتوفى
وهؤلاء شياطين مخيفة يحمل كل منهم اسماً بشعاً مثل آكل الظل الذي يخرج
من الكهف وكاسر العظام الذي يخرج من أناسيا .

صبحى - يا حفيظ .

حربو - (مستمراً) وتبرىء نفسك من كل الذنوب .. التى ترتكب فى
زماننا هذا .

عمر - ولكنى ارتكبتها فى زمنى .

حربو - اسمع لما أقوله ولا تضع الوقت .. قل لهم إنى لم أقتل ، إنى لم
أسرق ، ولم تعظم ثروتى إلا من ملكى الخاص ، إنى لم اغتصب طعاماً ، إنى
لم أثر الخوف ، ولم أذك الشجار .

عمر - هذه كلها ذنوب زماننا .

حربو - إنى لم أطف الكيل ، ولم أطمع ، ولم اغتصب ، ولم أسب ، ولم
أتكبر .. إنى لم ارتكب الفحشاء .

عمر - لا جديد هنالك فى الذنوب ؟

حربو - إنى لم أكذب .

عمر - هذه أكبر كذبة .

حربو - تلك ذنوب زماننا التى عليك أن تبرىء نفسك منها أمام الآلهة ...
لقد قالتها لك حتى تذكرها جيداً .. أتريد أن أعيدها عليك ؟

عمر - لا داعى .. إنها بعينها ذنوب عصرنا .

حربو - عجيبة !! ألم يتغير الإنسان فى زمنكم ؟ شىء ما كان لا بد أن
يحدث له ؟

مصطفى - كيف ؟

حربو - بعد كل هذا الزمن ، وبعد أن التصقت به تلك الذنوب المعادة
المكرورة .. كان المفروض أن تصبح جزءاً آمنه .. من طبيعته .

عمر - الذنوب تصبح جزءاً من طبيعته .. معنى هذا أنها لن تصبح ذنباً .

حربو - أجل .. عندما يلتهم الأسد طعامه .. أتحسب عليه جريمة ؟

مصطفى - لا .

حربو - عندما يمكر ابن آوى ... يصبح مذنباً

عمر - لا ..

حربو - أيعتبر الديك وسط الدجاج زانياً ؟

صباحي - (مؤكداً في حماسة) طبعاً لا .

حربو - لماذا تعتبر مساوية الإنسان النابعة من طبيعته .. الملتصقة به

على مدى الزمن .. ذنباً

عمر - لا يا حربو .. الذنوب ستظل ذنباً .. مادامت تنتج أذى .. والإنسان

ملزم أن يمنع الآخرين من الأذى .. الحيوان يرد الأذى بالأذى ، ولكن الإنسان

يرد الأذى بتحريم إتيانه ، بتحديد الأعمال المؤذية .. في ذنوب لا يسمح

بارتكابها ويعاقب من يمارسها .

حربو - وهل استطاع العقاب منعها ؟

مصطفى - لا أظن .

حربو - لماذا ؟

مصطفى - لأنها .. لأنها نابعة من طبيعته .. من تركيبه .

عمر - هذه هي المشكلة .. إذا كانت ذنوب الإنسان لا يمكن السماح بها .. لأنها أعمال مؤذية .. ولا يمكن الامتناع منها لأنها نابعة من طبيعته .. فقد كان عليه طوال تلك السنين ، أن يطور طبيعته .

حويبر - كيف ؟.

عمر - متاعب الإنسان .. لن يحلها تطوير الأشياء الخارجة عنه .. بقدر ما يحلها تطوير الأشياء الداخلة فيه .

حويبر - (يهز رأسه في غير فهم) .

صباحي - أنا أيضاً لم أفهم !

عمر - إن كل ما استطاع الإنسان أن يصل إليه من اختراعات لم يحقق له فعلاً ما يمنحه .. شيئاً أكثر مما حصل عليه الإنسان في الزمن الغابر .. إننا نتمساوى وإياهم في المتاعب والآلام والقلق والخوف والمرض والعراك .. وحصيلة المتع لا تكاد تتفاوت كثيراً برغم كل ما حققه الإنسان بعد السنين الطوال مما ظنه مسببات للمتعة .

عمر - إن الإنسان برغم كل ما طوره مما حوله .. لم يطور شيئاً من نفسه .. الأخ حويبر الواقف بباب السجن .. ينكر أمام آلهته هذه الذنوب التي يرتكبها أي إنسان الآن .

حويبر - أظنك أكنت هذا ؟

عمر - وهي وكل متاعب الإنسان .. لاشك ناتجة من طبيعته .. من طريقة تركيبه .. من خامه خلقه وعاطفته وذهنه ، وجسده .

مصطفى - أجل .

عمر - لماذا لا يوجه الإنسان إثنين جهده .. لتطوير نفسه .. لتطوير الأجيال التالية له .

حربو - كيف .. أيمن هذا ؟

عمر - لقد فعلها في النباتات والحيوان .. لقد أنتج من الحيوان سلالات أنضج .. بطرق علمية ، وطور النبات بطريقة .. لو تصورنا حدوثها في الإنسان .. لأصبح القزم عملاقاً .. وأصبح المجرم قديماً .. ماحدث في النبات من وفرة المحصول .. وجودة النوع جيلاً بعد جيل .. لو أنه طُبق على الإنسان لرأينا منه عجباً .

صباحي - أجل .. أجل .. لم تكن في الماضي نعرف البرتقال أبو صرة .. ولا العنب الجانكليز .. ولا المنجة القونس .

مصطفى - هذه أصناف طورت بالتطعيم .. ولكن كيف يمكن أن تطور الإنسان ؟

صباحي - جهود يجب أن تبذل لتطوير بنيانه .. وتركيبه الذهني .. والعصبي .. يجب ألا نكتفي بعلاجه وصد عادية الأمراض عنه .. ولكن يجب بذل أكبر جهد في تطويره .. في تحسينه .

مصطفى - أظن الجهود التي تبذل من أجل التربية والثقافة الاجتماعية والدينية هي التي يمكن أن تطوره ؟

عمر - لست أقصد التطوير من خارجه .. أقصد تطويراً عميقاً من داخله .. نحن لا نقنع شجرة النارج أن تعطينا برتقالاً ، ولكن نحولها لكي تعطى برتقالاً .

مصطفى - هذه أشياء بالنسبة للنبات معقولة ، ولكن للإنسان تبدو غير معقولة .

عمر - أبعده كل الذي اخترعه من العجائب .. يبدو لنا .. تطوير جنسه غير معقول .. أينجح الإنسان في خلق سلالات رائعة من الدجاج .. والبقرة .. ولا ينجح في خلق سلالات متطورة من الإنسان ؟

حريو - لست أعرف .. ماذا تعلمتم في زمنكم .. (لصبحي) أيمكن هذا ؟
صبحي - يمكن أو لا يمكن .. ماذا يهمنا نحن ؟ .. وماذا يمكن أن نفيد نحن من تحسين أجيال قادمة .. لكي تصبح أفضل جنساً .. إن تطوير الدجاج والبقرة أفضل لنا كثيراً .

عمر - أتري تلك هي العلة .. في أن الإنسان لا يركز جهوده في هذا .. أتراه لا يبذل جهداً إلا فيما يحصل هو على ثمرة ؟

(تسمع الضجة مرة أخرى)

حريو - استعدوا .. يبدو أنهم قادمون فعلاً هذه المرة .. عن إنكم .

صبحي - (صائحاً) سيجارة ياناس .. سيجارة يازمن خرمان .

(يسمع صوت مريت في الخارج ومعها سخمت)

مريت - أسرعى يا سخمت .

عمر - (يقفز من مكانه) مريت .. إنها قادمة .. كنت أتمنى أن أراها .

مصطفى - وما الفائدة .. إذا كان الحكم سينفذ بعد هنيهة .. (لنفسه) هذا غير معقول يجب أن نبلغ إخواننا هناك .. في الضفة الأخرى .. في زمننا .

مریت - (من الخارج) مساء الخير يا حريو .

حريو - سيدتي الأميرة .. مساء الخير .

مریت - أريد أن أرى مساجينك يا حريو .. أفتح لي ؟

حريو - أوامر سيدي حور .. ألا أفتح لأحد .

مریت - حتى أنا ؟

حريو - أوامر سيدي حور .. حتى أنت .. أو على الأصح .. لاسيما

أنت .. ولكن ...

مریت - لقد أتيت الليلة .. لأني أعلم أنك هنا يا حريو .. انتظرت حتى نام

الجميع .. وتسالت من حجرتي مع سخمت ، ولم أشك لحظة في أنك ستفتح

لي .. فأنا أعلم أنك طيب القلب ، نقي السريرة .

حريو - (متمماً) وإنى لا أنكر الجميل ، ولا أنسى الفضل .

مریت - لست أنكر فضلاً لي على أحد .

حريو - ولكن الناس كلهم ينكرون أفضالك عليهم ، وأنا بينهم .. لن أنسى

تلك اليوم الذي كنا ننقل فيه الحجارة إلى المعبد في الهجير ولهيب الشمس يلسع

ظهورنا .. وقد أثقلت كواهلنا ، وجفت حلوقنا .. وجلست ألتقط أنفاسي .. وأنا

أحس أني أوشك أن أتهاوى عندما أحسست بيد رقيقة تربت ظهري وتناولني

إناء الماء البارد ، ووجدتك ياسيدتي الأميرة تأمريننا بالعودة إلى بيوتنا وإلى

حقولنا .

مریت - لم تكن هناك فائدة .. فيما فعلت .. فلقد أعانكم أبي إلى العمل في

اليوم التالي .. لم تكن المشكلة مشكلة مشقة العمل بقدر ما كانت مشكلة الهدف

الذى تعملون من أجله .. لقد رأيت هناك من يعمل أضعاف عملكم .. وكانوا يتسابقون إلى العمل بابتسامة على شفاههم وأغنية على ألسنتهم .

حربو - مهما كان الأمر ياسيدى ، فإنى على أتم استعداد لكل ما تطلبينه .

مريت - أفتتح لى يا حربو .. إنى أريد أن ألقى مساجينك .

حربو - (يفتح الباب) تفضللى ياسيدتى .

(تدخل مريت وراءها سخمت .. حربو يفلق الباب وراءهما) .

حربو - لا تتأخرى كثيراً ياسيدتى .

(عمر يندفع إليها ويمسك بيديها فى شغف) .

عمر - مريت .. كنت أخشى أن أحرم من كلمة وداع .

مريت - (ترفع يديه إلى شفتيها وقد انهمر الدمع من عينيها ميلاً كفيه)

كنت السبب فى كل ما حدث لك .. أنا الذى جررتك إلى هنا .. خطفتك من عالمك ، لألقى بك فى هذه الغياهب .. لأقنق بك آلاف السنين وراء عالمك المتحضر .

عمر - لم يقلقتى هذا قط .. وإنما أرقى بعنك عنى .. أرقى أن أفقدك :

مصطفى - تفقدما فقط .. إنك ستفقد حياتك .

صباحى - وسأفقد أنا أنفى .. لماذا ؟ .. ماذا فعل لهم أنفى ؟

مريت - أنا آسفة .. كم أحزنتى أن أسبب لكم كل هذا .. ولكنى كنت واثقة أنه لن يمسمكم ضرر وأنا على قيد الحياة .. إنى لم أتق طعم النوم حتى استطعت أن أدير أمر إنقاذكم .

مصطفى - هلى سيفرجون عنا ؟

مریت - لقد حاولت عبثاً أن أقنع أبي بكذب الفرية ، التي نقلت إليه ،
وبالمؤامرة المحكمة التي دبرت ضدكم .. ولكن حور كان قد أقنعه هو وحاشيته
يمدى خطورتكم على ملكه .

صبحى - خطورتنا نحن على ملكه ، أين هذا الملك الذي ليس به سيجارة
واحدة ؟ .. ياستى يشيع به .. قريى يابنت يا سخمت خذى البركة وهاتى
تحسيسة .

(يقرص سخمت) .

سخمت - (تبتعد عنه) سيدى سمنكرع ، لقد أخطأ خنوم كبير القضاة فى
حكمه عليك عندما أمر بقطع أنفك .

صبحى - لماذا ؟

سخمت - (ضاحكة) كان يجب أن يأمر بقطع يدك حتى تقتصد فى
بركانك .. إن كبير الكهان ...

صبحى - (مقاطعاً) ياستى .. انتهينا .. لم أعد كبير كهان ، ولا حتى إمام
زاوية .. فقط خلصونا .

مریت - حاضر يا سمنكرع .

صبحى - صبحى .. صبحى وحياة والدك .. لاداعى للمسكرع والمنكرع .

مریت - لقد دبرت أمر فراركم من هنا .

عمر - كيف ؟

مریت - (هاسمة) وراء هذه النافذة .. يعمل أعوانى طوال الليل لخلع
الحجارة من أسفل النافذة .. والليلة سينتهى خلعها جميعاً .. وعندما تسمع

ثلاث طرقات من الخارج سيكون كل شيء معداً .. وعندما يسمعون رد
طرقاتهم بثلاث طرقات مثلها ، سيرفعون الحجارة من مكانها حتى تستطيعوا
الخروج من فتحة النافذة .

عمر - وبعد الخروج ؟

مريت - سيكون هناك قارب معد .. لنقلكم إلى الشاطئ الآخر .

عمر - تقولين .. نقلكم ؟

مريت - (تهز رأسها في أسى) أجل .

عمر - أم نقلنا ؟

مريت - نقلكم .

عمر - ألن تأتي معنا ؟

مريت - إلى أين ؟

عمر - إلى الضفة الشرقية .

مريت - ليتنى أستطيع .

عمر - ولماذا لا تستطيعين ؟

مريت - إنها بعيدة .. بعيدة .

عمر - بضع دقائق .

مريت - بل بضعه قرون .

عمر - لم تعد غريبة عنك .

مريت - أخشى كل ما فيها .

عمر - حتى أنا ؟

مریت - أنت أكثر ما أخشى هناك .

عمر - كيف ؟

مریت - أخشى أن تمسى .. وتصبح .. فتجذنى غريبة عنك .. غريبة عن
زمنك .. تجذنى أعيش فى أقصى الزمن ..

عمر - يا مریت .. أنت تعيشين فى دمی .. فى كيانى .

مریت - وأنت كيانى .. أنت حياتى .. ولكن التجربة المروعة التى خضتها
فى عالمك تجعلنى أرتجف .. تجعلنى أحس بهوة الزمن بيننا كالغول يفتح
فاه .. ليلتهم كل من يحاول تخطيه إلى الآخر .

عمر - الزمن يا مریت .. إنى لا أخشاه أبداً .. أحس بأنفاسك على يدى ..
أشد جانبيه من كل ما بيننا من فوارق .. أحس برغبتى فىك .. أقوى من
الزمن .. لقد قفزت من عالمى إليك ولم أضق به .

مریت - ولكنه ضاق بك .

عمر - سأبقى معك .

سختت - أجل ، لماذا لا يهربون ويبقون معنا ياسيدتى !

مریت - كيف .. كيف يبقون .. وأين ؟

سختت - بعيداً عن القصر .. وسط الحقول المترامية يزرعون الأرض .

مریت - أنت لا تعرفين يا سختت .. لاتعرفين ماذا يفعلون فى زمنهم ،
لديهم صناديق صغيرة تتحدث كالروح ، وآلات تقضم الجبل .. كيف نريد منهم

أن يزرعوا الأرض بالفأس .. ويخرجوا في الصباح إلى الحقول ومعهم كسرة الخبز والبصل وقطعة السمك المقدد ويشربوا من ماء النهر .
مصطفى - السمك المقدد ؟ .. فلاحكم يأكل السمك المقدد ؟ .

سختت - أجل .

صباحي - عجيبة !

سختت - لماذا ؟

مصطفى - لأن فلاحنا .. لا يكاد يجده .. فلاحنا مازال يفعل ما يفعله فلاحكم .. عدا السمك المقدد .

مرريت - ولكن زمنكم .. زمن العجائب .

عمر - لا يفرنك يا مرريت ما رأيت .. مازال هناك في عالمنا .. أناس يعيشون أسوأ مما يعيش الإنسان في زمنكم ، مازالوا يشربون ماء النهر ولا يجدون أكثر من العيش والبصل ، ومن أجل هذا تقوم الثورات .

مصطفى - لكي يلحق الذين وجدوا في زماننا .. بالزمن الذي يعيشون فيه .. لكي يعيش أهله .. كما ينبغي أن يعيش الناس فيه .

مرريت - ألم ينصفهم القدر بعد كل هذا الزمن ؟

عمر - القدر .. يا مرريت .. لم نعد نلقى عليه بكل أعبائنا .. أشياء كثيرة بتنا نفعلها نحن لأنفسنا .. لقد بات علينا أن ندبر أمرنا .. تدبيراً محكماً .. لم نعد نترك للقدر شيئاً .. بل بات علينا أن نقوم شطحات القدر .

مرريت - ومفاجآته ؟ .. والأعبيه ؟

عمر - توضع في الحسيان .. كشيء متوقع منتظر .. فننقد قدرتها على المفاجأة ، والخذلان .

مصطفى - لم يعد المستقبل ينمو كما يريد .. بل بات ينمو بإرادة الإنسان ..
برغبته في الإنماء .. ويقدرته عليه في الحدود التي يريدها .. وبالقدر الذي
يريده .. من أجل حاجاته .. وآماله .

عمر - شيء واحد هو الذي لا قدرة للإنسان على التخطيط له .. أو رسم
حدود أيامه .. ولياليه .. شيء واحد .. احتفظ به القدر .. لنفسه .. فلم يستطيع
الإنسان أن ينزعه منه .

مریت - ما هو .. ؟

عمر - الإنسان نفسه .. لقد ملك السيطرة على كل ما حوله .. والتخطيط
له .. إلا نفسه .. أشياء كثيرة استطاع أن يرسم لها الحدود .. ويضع لها خط
المسير .. لكي يعرف .. متى ستصبح كيف .. ولكن عن نفسه .. عن الشيء
البيسط المحرك .. لذاته .. لم يستطع أبداً .. أبداً .. أن يعرف .. متى سيصبح
كيف .. ولا أين .. المخططون المفكرون العياقة .. الذين يحددون لكل شيء
متى سيصبح كيف .. وأين .. لا يستطيعون أن يعرفوا لأنفسهم ، متى ستصبح
كيف .. وأين .. متى ستتوقف دقائق قلوبهم وكيف وأين .. متى ستعجز
أذهانهم عن التفكير .. وكيف وأين .. متى ستتوقف أجسادهم عن الحركة ..
وكيف وأين .. متى سيتحول هذا الشيء القيم الأنيق المفكر العامل .. الذي
يسمى الإنسان إلى رمة يثيبها التراب . وروح مبهمه غامضة أقرب إلى الأمنية
منها إلى الحقيقة .. وكيف وأين .. ذلك هو الشيء الذي عجز عنه .

مریت - الميزة الوحيدة الباقية للإله .

صبحى - (متمتماً) .. الله .. لا إله إلا هو .. الحى القيوم .. لا تأخذه
سنة ولا نوم .. له ما فى السموات وما فى الأرض .. من ذا الذى يشفع عنده

إلا بإذنه .. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم .. ولا يحيطون بشيء من علمه ..
إلا بما شاء .

(تسمع فجأة ثلاث طرقات على الجدار)

(ينصت الجميع مأخوذين ثم تتحرك مريت بسرعة تجاه النافذة)

مريت - لقد أعدوا كل شيء .. هذه هي الطرقات الثلاث التي اتفقتنا
عليها .. ارقبي الباب ياسخمت .. شاغلي حريو إذا بدا منه أي قلق أو شك .

(تتجه سخمت إلى الباب)

صبحى - شاغليه ، من غير تحسيس .. فاهمة .

(مريت تدق على الجدار ثلاث دقات)

(تمتد يد إلى الأحجار التي أسفل النافذة فتنزعها في سر بعد أن خلعت
من موضعها)

عمر - (ينظر إلى مريت في لهفة وأسى) .. مريت .. أيمكن أن يكون
هذا وداعنا الأخير ؟

مريت - لا أستطيع أن أفكر في هذا .. حتى أحتمل الحياة . لا أستطيع
أن أتصور الحياة .. بغيرك .. أبداً .

عمر - إذن ستأتين إليّ ؟

مريت - من يدري .

عمر - أو آتى إليك ؟

مريت - هوة الزمن سحيقة .. سحيقة .

عمر - ما بيننا .. من كل الفواصل .. والسدود .

مریت - والزمن ؟

عمر - والزمن يا مریت .. قولى إننا سنلتقى .

مریت - سنلتقى .. سنلتقى .. فلتعنا الآلهة .. حتى نلتقى .. عبر هذه
السنين الطوال .

(تسمع حركة فى الخارج) .

مریت - (بسرعة) هيا .. أسرعوا .

(يخرج مصطفى مودعاً مریت)

مصطفى - لا أظنى أسفت على فراق إنسان .. كما أسفت على فراقك .
إنك يا مریت أجمل ما فى زمناك .

مریت - شكراً .. مع السلامة .

صبحى - (خارجاً) السلام عليكم .. سأعود إليكم .. بعد أن اشترى علبه
يلامونت .. انتظرينى ياسخامة البرك .. إياك أن تلعبى بنيلك .

(تزداد الضجة فى الخارج)

مریت - هيا أرجوكم .

عمر - (يضمها إليه فى لهفة) .. سأنتظرك .. يا حبيبتي .. فى أى
زمان .. وفى أى مكان .

مریت - (تضمه إليها ثم تدفعه إلى الخارج) .. اذهب ، وليحفظك الله ..
يا حبيبى .. فى كل زمان .. وفى كل مكان .

(ستار)

الفصل السادس

المعجزة ..

المنظور الأول

(موقع السد في يوم تحويل مجرى النيل .. في مكان على الضفة الشرقية للقناة المحفورة في الجبل يشرف من ناحية اليسار على السد الرملي الذي يحجز مياه النيل عن القناة ويوشك أن ينسف لتندفق منه المياه إلى القناة بعد أن تمت المرحلة الأولى للسد العالي .. وتم سد المجرى الأصلي للنيل .. على اليمين تبدو فتحات الأنفاق التي ستندفع فيها المياه لتندفق من الجانب الآخر حيث تتحكم فيها البوابات وتولد منها الكهرباء .

جمهرة من العمال والمهندسين والخبراء يجلسون على صخور الضفة وقد بنت عليهم الفرحة وأخذوا يتبادلون التهانى ومن بينهم عمر ومصطفى وقدرى وجمال وقد جلس بجوارهم ستيفانوف المهندس الروسى الشاب ، وعلى مقربة منهم جلست صغية تسجل صورة صوتية لعملية التحويل) .

صفية - (في الميكروفون) في هذه اللحظات الحاسمة يعيش شعب مصر أروع لحظات عمره بعد سنوات من النضال كافح فيها من أجل بناء السد العظيم ، بعد معارك الدفاع ضد قوات الاحتلال والنزاة.. بعد الحصار الاقتصادي .. بعد حروب التشكيك والصراع مع الماء والجبل .. بعد كل هذا النضال حقق الشعب المعجزة .. لقد بدأت ساعة الانتصار أمس حين تم وضع اللمسات الأخيرة في الاستعدادات لتحويل النهر من مجراه القديم ، وفي هذه اللحظات مستغمر فيها المياه المجرى الجديد رمزاً حياً للإرادة والعمل .

عمر - لقد أعد كل شيء للحظة التاريخية .

مصطفى - وصدرت الأوامر بنقل الكهرباء إلى أسلاك التفجير التي تتصل بشحنة الديناميت المثبتة في السد الرملي الأمامي .

عمر - أرى قناة التحويل قد غمرت بالمياه إلى ارتفاع خمسة أمتار لتخفيف قوة اندفاع الماء بعد التفجير حتى لا تؤثر على أساسات الأنفاق والمحطة الكهربائية .

قدرى - والسد الرملي قد أخلى تماماً ولا يبدو فوقه سوى آثار أقدام أمضت الليل تشرف على التحول التاريخي .

مصطفى - وصندوق التفجير في مكانه ينتظر اللمسة الحاسمة .

(من مكبرات الصوت يسمع صوت الرئيس عبد الناصر في خطبته التاريخية) :

«يارجال مصر .. ويا نساءها وأطفالها ، هنا أمام الدنيا كلها .. رمز حي لإرادتكم وتصميمكم ومقدرتكم على العمل وعلى الفداء .. هنا بهذا السد العالي

تنكار لانتصاركم على كل اعتداء .. وعلى كل الصعوبات .. هذه صورة رائعة لأحلامكم صنعها العمل الذي يحرك الجبال ويخضع الطبيعة لإرادة الإنسان مهما دفع من الدم والعرق وليؤكد سيطرة الإنسان بروح ربه وهداه على الحياة لتكون شرفاً له وليكون شرفاً لها .. تحت الظلام الذي فرضته الغارات أثناء معركة السويس وفي الخنادق ووسط المعارك العسكرية والاقتصادية والفسية كانت أغنية الرجال والنساء والأطفال من أبناء مصر بأنهم سوف يبنون السد .

«يارجال مصر ونساءها وأطفالها لقد تحققت المعجزة وبنيت السد ؛ إن الله منحكم الشجاعة على الصمود ومنحك القدرة على العمل» .

«إننا الآن ننظر إلى المعجزة أمامنا ونقول كما قلنا دائماً بعد كل انتصار : الحمد لله ..» .

(يسمع صوت انفجار الديناميت الذي ينسف السد الرملي ، ثم يسمع هدير المياه المتدفقة في القناة) .

عمر - لقد حركت ضربة الانفجار الجانب الأيمن من السد .. الرمل يتحرك .. ظهر خيط من المياه .. خيط رفيع كأنه يتسلل من وراء السد .. يحفر لنفسه طريقاً .. إنه يتسع ويتسع ويزداد عمقاً في باطن السد .

قبرى - ما أجمل تدفق المياه وسط الصخور .

جمال - تبدو كشرايين تتدفق منها الحياة .

مصطفى - لن نسير بعد ذلك في القاع .

عمر - كل مرة إذ أسير في أرض القناة .. وأخوض وسط الأنفاق .. كنت أحس بالنشوة وأنا أتصور ما سأقوله للجيل القادم من أحفادنا .. بعد أن يغمر كل هذا بالمياه .. ولايعودون يبصرون منه سوى مجرى طبيعي للنهر .. هل

سيصدقون أننا سرنا على أقدامنا في قاعه .. وفي أنفاقه .. وأنا حفرناه
بسواعدا .

قدرى - (ضاحكا) لقد أحضرت ابني لكي يسير معي .. ولكي يرى بنفسه
المعجزة .. ولكي يروى هو لأولاده .. ما فعل أجدادهم .. ليروا ما حققته
عزيمة قائد وصلابته وإصراره .. وقوة شعب وجلده وصبره .

مصطفى - خير ما في هذا العمل أنه دليل على إرادة الإنسان .. وعلى
تفوقه المطلق في هذه الأرض .. لم يعد له أن يستسلم لشيء ما .. لمجرد أنه
وجد هكذا .. لأن إرادته قادرة على أن تحوله إلى ما ينبغي أن يكون عليه ..
هذا الجبل الذي كان هنا .. عليه أن ينقض وأن يخلي مكانه .. وهذا النهر الذي
كان يسير هناك .. ينبغي له أن يسير هنا .. إن هذا العمل يملؤنا إيماناً بالإنسان
وبإرادته .

عمر - (يهز رأسه في دهشة) الآن وأنا أجلس هنا . وأرى المياه تتدفق
في القناة .. لا أكاد أصدق أن كل هذا العمل قد أنجز في هذا الزمن .. من
يصدق أننا حفرنا عشرة ملايين من الأمتار في الصخور .

قدرى - وربما مثلها في النهر .

مصطفى - والأزمات التي مررنا بها ، أتذكرون يوم أنهار السد الرملى
حيث تتدفق المياه الآن .. وكان يحجز تيار النيل عن العاملين في القناة وفي
الأنفاق .

جمال - عندما تساقطت أجزاء منه في النيل وأخذ التيار يأكل الشريط
الضيق الباقى .

قدرى - كل معنى هذا أن تغرق الأجهزة والكرات والسيارات ويتوقف

العمل عاماً كاملاً حتى يتم بناء السد الرملى الجديد وتترشح المياه المتدفقة فى موقع العمل .

مصطفى - واندفعنا جميعاً وكأن بنا مساً من جنون .. اندفع كل عامل وكل مهندس فى إرادة عنيدة وإصرار عجيب لنقل الرمال والحجارة .

قدرى - ودون أن يخلت سير العمل الأصلي فى السد سُدَّت الفجوة التى كاد التيار يفتحها فى دقائق قليلة .

رئيس العمال - كان يوماً مخيفاً ، كنت أدعو الله أن ينقنا .. وقبل الله الدعوة .. ولكن (عنتر) راح منا فى ذلك اليوم .. عندما انقلبت به العربة وهو يسرع نحو السد .

جمال - رحمه الله ... ورحم شهداءنا جميعاً .. ليتهم كانوا هنا معنا ليروا نتيجة جهودهم .

ستيفانوف - هذ السد ثمن ثمن بمائكم التى أريقت فى معارك الكفاح المريرة التى خضتموها من أجل حقكم .. إنه ثمن ثمن بماء شهدائكم الذين سقطوا فى كل ميادين النضال التى خضتموها .. فى بور سعيد .. وفى القناة .. وعلى مدى التاريخ .. هذا السد دليل على انتصار حق الإنسان فى الحياة .. إنه إشراقه الأمل فى أفق كل مكافح من أجل حريته .. ومن أجل حقه فى الحياة الكريمة .. هذا هو العمل الجاد الحقيقى .. يشرق على قارتكم المكافحة .. ليؤكد لشعوبها أن كفاحها لن يضيع سدى ، وأن اليد التى فك قيدها لن يقف فى سبيلها شىء من أجل توفير الرخاء والرفاهية .. والمشاركة فى الحضارة الإنسانية وإقرار السلام فى العالم كله .. هذا السد دليل على أسعى المعانى الإنسانية .

قدرى - أجل .. أجل .. هذا السد لايعنى فقط إضافة مليونى فدان تزرع فى أرضنا .. أو عشرة مليارات كليوات تضاف إلى قوانا الكهربائية .. ولكنه

يعنى .. مثلاً جديدة فى علاقات البشر .. مثلاً رائعاً فى تعاون الشعوب القائم على الثقة والمحبة .. لا على الاستغلال والشك وسوء النية .

عمر - أنت هنا ياستيفانوف نموذج لكل تلك المثل الطيبة .. أنت الذى تعودت حياة الثلوج فى سيبيريا .. تجلس هنا بيننا لتصلى سعيرنا .. أنت وزوجتك إيلينا وولداك .. أتيت لتمدحنا خبرتك وجهدك ومتعود غداً إلى بلدك دون أن تأخذ منا شيئاً أكثر من أجرك ودون أن تترك بيننا إلا العمل الطيب والتكرى الحسنة .. لم تأت بسلاح .. ولم تذهب بغنيمة .. لم تمنح لنفسك حقاً فى أرضنا ، ولا حاولت أن تفرض علينا أسلوباً فى التفكير أو فى الحياة .. احترمت حريرتنا فى العمل وفى التفكير .

مصطفى - أجل ياستيفانوف .. لم تفعل شيئاً من هذه الأشياء التى كانت تملأ نفوسنا ريبة فيكم .. وخشية منكم .. لم تحاول أن تخلط ببضائع السد .. ببضائع مذهبية .. ولا حاولت أن تسرب مع خبرتك المنية .. خبرة حزبية .. لم تحاول أن تخصص بعضنا بصلات خاصة .. لنكون منهم جماعة يدينون بالتبعية لكم .. كنت دائماً مستقيماً فى عملك واضحاً فى علاقاتك .

قدرى - أسلوب جديد فى تعاملكم مع الناس ياستيفانوف - (مفكراً) قد يكون هذا مظهراً لأسلوبنا الجديد فى الحياة .. وفى العلاقات مع الناس .

جمال - كيف ؟

ستيفانوف - الأسلوب الذى اتهمنا من أجله رجعيو الشيوعية بالبورجوازية .. والخروج على المبادئ الأصلية للشيوعية .. أن نجعل الإنسان أئمن مافى الحياة .. وأن نمنحه أقصى ما يمكن تيسيره من سبل الراحة والاستمتاع بالعيش .. أن نوفر له الطعام الشهى والملبس الجيد والمسكن

المريح .. لكى نزيد من قدرته على الإنتاج .. وأن نكافئه على قدر جهده ..
لكى نزيد من رغبته فى الإنتاج .. ألا نساوى العامل بالخامل .

قدرى - تعنى اشتراكية إنسانية باستيفانوف .. أن يكون الإنسان سيد
الآلة .. وليس عبداً للآلة .. أن يكون الإنسان هدفاً .. ليس وسيلة .. أن يكون
غاية .. لاسببلا إلى غاية .

ستيفانوف - لقد قاسى الإنسان عندنا كثيراً .. كانت علاقته بالسعادة
والراحة والحياة الطيبة .. لاتوجد إلا فى الأفلام التى تعرض علينا .. وكانت
الحكومة تفرض على المزارع الجماعية سعراً للمحصول الزراعى لايمنع
الفلاحين فى المزارع إلا حياة الكفاف .. وكانوا يعملون بالسخرة من أجل أن
يوفروا الكمية المطلوبة من المحصول بالسعر المفروض . كانت الدولة عندنا
قادرة ، والناس تعساء مساكين .. ولقد آن للناس أن يعيشوا .. وأن يكافئوا عن
جهدهم .

جمال - تغيير خطير فى أسلوبكم فى الحياة .. كان لابد منه .. فالإنسان
ينتصر دائماً .. الإنسانية قبل كل شىء

مصطفى - ولست أظن علاقاتكم بالناس منصير قائمة على التسلك
المذهبى .. ولست أظن الأحزاب الشيوعية قد باتت الوسيلة المثلى .. فى
ارتباطهم بالغير وصدافتكم له .

ستيفانوف - جائز .. (ضاحكا) لم لا .. ألسنا كذلك ؟

عمر - الاشتراكية .. كفاية وعدل .. ليحققها كل منا بأسلوبه النابع من
أرضه ومن تراثه الفكرى .. ولنكن جميعاً أصدقاء .

(عمر ينهض وقد بدا عليه الإجهاد)

مصطفى - عمر .. ماذا بك ؟

عمر - لا شيء .

مصطفى - أين كنت في الصباح ؟ لقد مررت عليك فأخبروني أنك خرجت
مبكراً .. وحاولت عبثاً أن أعتز عليك في أى مكان .

قدرى - (لجمال) كان هائماً في الضفة الغربية .

جمال - يبدو عليه الإرهاق .

قدرى - شيء ما قد حدث له .. لم يعد أبداً .. الإنسان المرح اليقظ .

جمال - (مشيراً إلى المياه المتدفقة في القناة) انتهينا يا عمر .. لن تجرى
بعد ذلك في قاع النهر .. أغرقت المياه كل شيء .

عمر - (متطلعاً إلى الأفق الغربى) ليس بعد .. لم تغرق كل شيء .

قدرى - (ضاحكاً) يا أخى غداً .. ستغرق كل شيء .

عمر - (في صوت خفيض) أجل ، غداً ستغرق كل شيء .. (يطرق في
حزن) غداً .. سيفرق كل شيء .

(مصطفى ينتحي بعمر جانباً .. ويتشغل الباكون بمراقبة ماحولهم ويلتف
البعض حول صفيحة وهي تسجل الصورة الصوتية) .

مصطفى - أما زلت تذهب إلى هناك ؟

عمر - (يطرق)

مصطفى - وما آخرة كل هذا .. أما لهيامك من نهاية ؟

عمر - النهاية ؟! أجل .. ستحل النهاية .. عندما يغرق كل شبر من

الأرض هناك .. لن يعود هناك أثر لأي شيء .. حتى هذه البقايا والأطلال ..
أشم منها عبيرها .. وأسمع من أحجارها صدى صوتها .

مصطفى - كف عن هذا يا عمر .. لاتدع الناس يتهمونك بالجنون .. انس
كل شيء .

عمر - أنسى ؟ كيف أنسى !

مصطفى - كما نسيت أنا .

عمر - لقد نسيت أنت .. لأن قلبك لم يخفق بحب .. ولكن - أنا ؟ . مع
كل هذه المشاعر التي تضطرم في صدري أيمكن أن أعتبره وهماً كما اعتبرته
أنت ؟

مصطفى - أو يمكن أن يكون غير ذلك ؟

عمر - الإحساس العجيب الذي أحس به لهذه المخلوقة .. مصر على أن
يجعله غير ذلك .. مصر على أن يتشبث به كحقيقة .

مصطفى - وما الحل .. ؟ أنتوى أن تقضى عمرك .. هائماً متقباً .. بين
الرمال والأطلال .. على الشاطئ الغربي .

عمر - ليتنى أستطيع .. مادام هناك أمل .. فالحياة محتملة .. فى ذات
يوم .. سأجد الحقول الخضراء والبحيرة حيث الزهور والطيور .. وأجدها
هى ..

مصطفى - عبث .. عبث .. إننا لانستطيع أن نغمض عيوننا لنستعيد
أحلامنا الجميلة .

عمر - ليتنى بقيت هناك .. عندما أعود إلى الضفة الغربية فلا أجد سوى

المرسى حيث رسا القارب الذى حملنا من السجن فى تلك الليلة .. أتمنى لو عدت إلى السجن مرة أخرى .

مصطفى - لكى تلقى حتفك هناك ؟

عمر - كان يمكن أن نهرب سوياً .

مصطفى - وتعيش بين الحقول .. لتأكل الخبز والبصل والسمك المقعد .

عمر - كنت أستطيع أن أحتمل أى شيء إلا ضياعها كل شيء ممكن قبله .. إلا أن تتبدد هكذا كالدخان .. هى وكل ما حولها .. حتى المعبد .. حتى أطلال المعبد ، وجنته بين عشية وضحاها أكواماً من الحجارة .. يفكه العمال .. كأنه بيت من بيوت الأطفال ، وتحمله روافع الشركة الألمانية .. لنقله إلى أعلى الجبل ، وأحسست كأنهم يحطمون آخر أمل للقاء .. ويمحون ما تبقى من أثر ملموس لكل ما عشناه فى حلمنا الرائع .

مصطفى - أكنت تتوقع أن تراها هناك مرة أخرى ؟

عمر - ولم لا .. ألم نراها من قبل ؟

مصطفى - وترى الحقول والقصر الفرعونى .. وكل ما رأيت من أعاجيب ؟

عمر - لا يهمنى كل هذا .. المهم أن أراها هى .

مصطفى - وتبقى معها ؟

عمر - أو أتى بها معى . إننى لم أشعر قط أن الزمن كان مشكلة .. إن ما بيننا كان دائماً أقوى من الزمن .

مصطفى - لم يكن مشكلة لأنها انتزعتك من واقعك . لقد سيطرت على

كل جوارحك .. يجب عليك أن تخلص من سيطرتها .. يجب عليك أن تنساها .. أن تنسى كل ما حدث .

عمر - مستحيل .. إنى أنكرها فى كل شيء .. هنا وهناك .. فى زمنى وفى زمنها .. أنكرها كلما وقفت لأرى حائط السد يعلو .. أو رأيت القناة تغمرها المياه .. أنكر وفتنها ترقب العربات تقذف بالصخور إلى الصنادل ، وفتنها فى قاع النهر .. تقول إن كل هذا حدث بقدرة قادر ، والقادر هو الشعب .

مصطفى - أجل .. أجل .. أذكر حديثها العجيب فى الميكرفون على لسان فرعون .

عمر - وأنكرها فى مغرب الشمس وقد سرى النسيم بين النخيل .. أنكرها فى غابرها ، وأنكرها فى حاضرها ، بين أطلالها الصامته ، وآلاتنا الصارخة الصاخبة .

مصطفى - اترك كل هذا .. اترك المكان برمته . انزل إلى القاهرة ، واشغل نفسك بأشياء أخرى .. غير هذه الأشياء التى تشدك إليها وتربطك بتكرياتها .

(تقبل صفة وهى تضع الميكرفون فى الحقيبة) .

صفية - (لعمر) .. عمر .. لقد سجلت صورة رائعة للاحتفال بتحويل مجرى النيل . لقد عشنا لحظات تاريخية . هذا التسجيل سأحتفظ بنسخة منه لأهديها إلى أبنائى .

مصطفى - سيكون أبنائك فخورين بأهمهم .

صفية - لماذا ؟ أنا لم أفعل سوى أن سجلت صورة لما حدث .. كم تمنيت لو شاركت فى رفع الحجارة ، وحفر القناة .. أنتم الذين سيفخر بكم أبنائكم .

مصطفى - (ضاحكا) إذا كنت مؤمنة بهذا .. فأنا على استعداد لأن أمنح
أبناءك هذا الفخر .

صفية - (ضاحكة) لطيفة .

مصطفى - العرض .

صفية - لا .. النكتة .

مصطفى - ليست نكتة .. إنه عرض جاد .. ويمكن أن احوّله إلى عمر ..
باعتباره ولي أمرك .. فوراً .

صفية - هكذا ؟

مصطفى - ولم لا .

صفية - وهنا .. فوق الصخر .. على ضفة القناة ؟

مصطفى - لكي تزيدهم فخراً .

صفية - (تبسم) يبدو أنك مهتم .. بتفاخرهم .

مصطفى - وتفاخري أنا أيضاً .

صفية - بمن ؟

مصطفى - بك .

صفية - أخرجتكم تواضعي .

مصطفى - ما رأيك ؟

صفية - (باسمه) لست أمانع في أن أمنح أولادى هذا الفخر .. أقبل فقط
من أجلهم .

- مصطفى - (في فرحة) إنى أتحدث جاداً .
صفية - وأنا أتحدث جادة .
مصطفى - (لعمرك) مارأيك يا عمر ؟
عمر - (شارد الذهن في الأفق الغربي) فى ماذا ؟
مصطفى - فيما اتفقنا عليه .
عمر - اتفقتم على ماذا ؟
مصطفى - أمنح أولادها شرف أبوتهم .
عمر - (ضاحكاً) هكذا .. مرة واحدة .. وبدون سابق إنذار !
مصطفى - من ناحية الإنذار .. فأعتقد أنى أحسست بعدة إنذارات فى باطنى .
عمر - وما رأيها هى ؟
مصطفى - سلها .
عمر - مارأيك يا صفية ؟
صفية - (تهز رأسها وتقول فى استحياء) لأظن أن هناك مايمتع .. فى وقت ما .. لابد أن تتزوج الفتاة .. شخصاً ما .
عمر - أو قد حل بوقت ما، هذا ؟
صفية - لقد تجاوزت الثالثة والعشرين .. أخشى أن أعنس .
عمر - وهذا الشخص .. أيصح أن يكون شخصاً ما ؟
صفية - ممكن احتمالاه .

مصطفى - حتى آخر العمر ؟

صفية - إذا استطاع أن يحتملى حتى آخر العمر .. فلا جدال أنى سأحتمله .

عمر - (يهز رأسه) مبروك .. هذه فيما أعتقد أول خطبة تتم فوق المجرى الجديد للنيل .

مصطفى - إن لدينا إجازة نستطيع أن ننزل فيها إلى القاهرة .. لإتمام كل الإجراءات .

صفية - إنى سأنزل إلى القاهرة غداً .. (لعمر) أظنك ستنزل معى ؟

عمر - (مأخوذاً) أنا .. أنزل إلى القاهرة ؟

مصطفى - أجل .. إن لدينا إجازة .

عمر - سأقضيها هنا .

مصطفى - هذا غير معقول .

عمر - غير معقول .. لمة ؟

مصطفى - لأنه يلزم لك أن تستريح .. إنك فى أشد الحاجة إلى الراحة .

عمر - أنت تعرف أنى لن أستريح .. سأبقى هنا .

صفية - إن والدتك فى انتظارك .. وليلى بنت خالتي قد وصلت إلى القاهرة عائدة مع أبيها من لندن .. والمفروض أن تلقاها .

عمر - مفروض .. لماذا ؟

صفية - أنت نفسك كنت فى شوق لرؤيتها .. أنسيت أنك كنت تود خطبتها ؟

- عمر - لأريد أن أرى أحداً .. ولا أن أخطب .. سأقضى إجازتي هنا .
- صفية - (لمصطفى) لماذا لاتحاول أن تتقعه ؟
- مصطفى - حاولت من قبلك .
- صفية - أمعقول أن يقضى إجازته هنا بعد كل هذا التعب ؟
- مصطفى - (يهز رأسه) لافائدة من محاولة إقناعه .
- (يقبل صبحى ، وهو يلهث) .
- صبحى - (لعمر) العربية جاهزة ياباشمهندس .
- (عمر يقفز من مكانه) .
- مصطفى - إلى أين .. ؟
- صبحى - سنذهب لزيارة المعبد فى موقعه الجديد فوق الجبل .
- مصطفى - (يهز رأسه فى يأس) غير معقول .. يجب أن يكف عن كل هذا .
- صبحى - أتأتى معنا ياباشمهندس ؟
- مصطفى - (ينظر إلى صفية متردداً) إذا كان سير المروحة متيناً ، ولن نحتاج إلى مياه للعربة ..
- صبحى - (ضاحكا) لاتخش شيئاً .
- مصطفى - أتأتين ياصفية ؟
- صفية - لم لا .. هيا بنا .
- (يتجه الأربعة إلى العربة ذاهبين إلى المعبد) .

الجزء الثاني

(المعبد من الداخل بعد أن نقل إلى أعلى
الجبل ، الزوار والسياح يملئون ردهاته .. بعض
مهندسي الآثار والمهندسين الألمان الذين أشرقوا
على عملية النقل .. يصاحبون الزوار ويشرحون
لهم .

(عمر يدخل ومعه مصطفى ، وصفيّة تتركهما
وتتجول في المعبد بين الزوار .

(عمر يقف ممسكا بذراع مصطفى ، وقد بدا
عليه الشرود .

(حريش (حارس المعبد) يبدو من ظهره
مراقباً لبعض الزوار ، وهو يشرح لوحة مكتوبة
باللغة المصرية القديمة ومنقوشة على الحجر .

حريش - هذا هو بهو الأعمدة لقد ظل كل شيء فيه كما هو .. على اليسار
المعبد ، وفي العواجيه المرصاة التي كانت تفضي إلى شاطئ النيل عندما كان
المعبد على مكانه الأول .. ومن هذه الفتحة كان يبدو منظر القصر الفرعوني
تحيط به البحيرة .

عمر - (يتصت مأخوذاً إلى صوت الحارس ، ويقول لمصطفى) أجل ..
أجل .. كان يبدو رائعاً .. لقد رأيته بعيني .

حريش - وهذا الدرج الذي على اليمين .. يفضى إلى قدس الأقداس .

عمر - (لمصطفى) لقد بدت منه أول مرة .. أتذكر .. كانت رائعة .

مصطفى - أجل .. أجل ، وكانت تريد أن تسلمنا للحراس .

عمر - لم تكن تعرفنا .

مصطفى - على أية حالة لقد سجننا أهلها .. بعد أن عرفونا .

حريش - (مستمراً في الشرح وظهره لعمر) ، وفي أقصى الیهو وراء

هذا الباب ، وعلى اليمين توجد الحجرة التي وضعت بها التوابيت الأربعة التي

استقرت فيها أسرة رع .

إحدى الزائرات - أما زالت موجودة ؟

حريش - أجل .. رع وزوجته نفرو وابنه حور .. وابنته مريت .

عمر - أتسمع .. إنها موجودة .

مصطفى - جئة في تابوت .

حريش - (مستمراً في حديثه) إنها تبدو آية في الجمال .. وعلى وجهها

ابتسامة ساحرة .. وكأنها لم تمت .

عمر - كأنها .. لم تمت !!

مصطفى - كأنها .. لم تمت ، وماذا يفيدك ذلك .. على العكس .. إنه يؤكد

أنها ماتت .. كونها تبدو بابتسامة ساحرة كأنها لم تمت .. لن يعنى سوى أنها

مومياء محنطة بمهارة ملفوفة جيداً بالشاش .. أتذكر .

عمر - أنكر - ماذا ؟

مصطفى - كنت .. نفسك تخشى هذا المصير .. قلت لى عندما أوشكت أن أعود إلى الموقع .. وخشيت أن أتركك وحيداً .. إن الأرض ستغرق والمعبد سيرفع .. وإنك ستكون فيه مومياء ملفوفة بالشاش .

عمر - ليتنى بقيت .

مصطفى - لترقد فى التابوت ؟

عمر - بجوارها .

مصطفى - ونصبح فرجة للناس .. يشير إليك هذا الرجل حريش قائلاً : وهذا جسد .. عشيقها ؟

عمر - زوجها .. لقد كتب الكاهن العقد .

مصطفى - لتكون من تكون .. المهم أنك ستكون فرجة لكل من هب ودب ، حتى راحة الموت وحرمة لن تنعم بها .

(صفية تقبل لتسمع إلى الشرح مع الزوار)

حريش - (مستمراً فى الشرح وهو يشير إلى اللوحة الحجرية) وفوق هذه اللوحة نقشت أسطورة تروى محاولة غزو الشمال لأرض فرعون .. كيف تقدموا بجحافلهم على الضفة الشرقية ، ولكن ابنة فرعون أحبت أميرهم .

صفية - وهل أحبها ؟

عمر - (مؤكداً وبلا وعى) جداً .

صفية - (تلتفت إليه فى دهشة) .

- مصطفى - (يزغد عمر بمرقه) اثبت .. لا داعي للفضائح .
- حريش - يقال إن أمير الشمال حاول أن يستغل حبها .. للاستيلاء على ملك فرعون ، ولكن أخاها حوراً اكتشف الخديعة في اللحظة الأخيرة .. حين علم أن الأمير وأعوانه يدبرون مؤامرة لإغراق الأرض .
- عمر - (في غيظ) حور الكلب .. لاشك أنه هو الذي نقش هذه اللوحة .
- حريش - وقد قبض ابن فرعون على المتآمرين وأودعهم السجن ، وحكم على أمير الشمال بالإعدام .
- صفية - (في أسف) وأعدم ؟
- مصطفى - قال الله ولا فالك .
- حريش - يقال إن الأميرة .. قد أنقذتهم من السجن في اللحظة الأخيرة ، وإنها أطلقت سراحهم في جنح الليل .
- صفية - وهربوا ؟
- حريش - أجل .. عبروا النيل على مركب
- صفية - وهي .. والأميرة .. ماذا فعلت ؟
- حريش - تركت ملكها ، وقصرها .. تركت كل شيء ، ولحقت به .
- عمر - (متهدأ) ياليت .. ربنا يسمع منك .. وتلحق بي .. أو ألحق بها .
- مصطفى - (يجنبه من نراعه) ... هيا بنا .. هيا .
- عمر - (شاردأ) أسمعت .. إنها لحقت بي .

مصطفى - هذه أسطورة .. منقوشة على الحجر .. لقد سمعناها من قبل
عندما زرنا المعبد أول مرة وهو على الشاطئ .. أتتكر ؟

عمر - ولكنها لم تعد أسطورة .. لقد وقعت فعلا .. أنت نفسك كنت أحد
أطرافها .. أتتكر ؟

مصطفى - أتكر .. أو لا أتكر .. ما جنوى كل هذا ؟

عمر - إنها موجودة هنا .. موجودة .

مصطفى - جثة في تابوت يأخى ، كل ما نملكه لها .. هو الفاتحة .. إذا
قبلتها آلهتها ، وقربان من تين ونبذ وعطر .. حسب تقاليدهم ، أو فطير وبلح
حسب تقاليدك .

عمر - (مسمراً في مكانه) .

مصطفى - هيا بنا .. هيا (متادياً) صفية .. هيا بنا .

(تلقت صفية وتقترب منهم ويلتفت حريش لأول مرة منذ بدأ الشرح ليواجه
عمر ومصطفى)

(عمر يجد فيه صورة طبق الأصل من حريو حارس السجن فيصيح
مشدوهاً)

عمر - حريو .. أجل .. هو بعينه .. (يقترب من حريش ويهتف به)
اسمع يا حريو .

(مصطفى يلحق به ويجره من ساعده)

مصطفى - عمر .. اسمع .

عمر - (لحريش) أنت تعرف الأميرة بالطبع .

- حريش - طبعاً يا أفندم .. رأيتها كثيراً ...
- عمر - (لمصطفى) أسمعت .
- حريش - (مستطرداً) وهي راقدة في التابوت .
- عمر - (لحريش) اسمع يا حريو .
- حريش - محسوبك حريش .
- عمر - حريو .. حريش .. المهم .. أنك تعرف الأميرة .
- حريش - طبعاً يا أفندم .
- عمر - إذن لابد أنك تتكرنى .
- حريش - (يهرش في رأسه محاولاً التذكر) والله نكرنى سيانكم ..
- أين ؟
- عمر - فى السجن -
- حريش - السجن؟! مرة واحدة ، لا ياسعادة البيه .. حد الله بينى وبينك .. ربنا لا يحكم علينا .. أنا رجل .. فى حالى .. ولست رد سجون .
- عمر - أنا الذى كنت مسجوناً .
- حريش - سيانك رد سجون .. أنت حر .. ولكن أنا لا .. لم أتشرف بزماله سيانك .
- عمر - ياأخى .. لم تكن زملاء .. كنت مسجانى .
- (صفية مذهولة وهى تنظر إلى عمر كأنه جن وتهنئ به)
- صفية - عمر .. ما هذا ؟

عمر - اسكتي أنت .. هذه أشياء بيننا .

صفية - (لمصطفى) مصطفى .. ما هذا الذي يقوله ؟

مصطفى - (يجذبها نحوه) .. لا تفزعي هكذا .. أنت تعرفين عمر يحب المزاح .

صفية - مزاح .. أهذا مزاح ؟

حريش - (يسير مع الزوار وهو يهز رأسه) إذا كان هو رد سجون .. مالي أنا . سجان !! أنا سجان ؟

عمر - (صائحاً) ولا أحد جدونك .. يا أخ حريو .

حريش - حريش يا أخي حريش .

عمر - (مؤكداً) كنت حريو .. والله .. وكنت رجلاً طيباً .

صفية - أي مزاح هذا .. عيب .. عيب جداً .

مصطفى - (يجنب عمر محاولاً إخراجه) هيا بنا يا عمر .. هيا .. أرجوك .

(يدخل صبحي ومعه صفيحة ماء)

صبحي - عن إننكم .. نملأ الصفيحة من البئر .

مصطفى - يا أخي .. أي بئر هذه التي ستملأ منها الصفيحة ؟

صبحي - (مشيراً إلى البئر) هنا .

مصطفى - يا أخي .. هذه بئر جافة .

صبحى - (ضاحكا) أنا أعرفها خيراً منك ياباشمهندس ، لقد ملأت
الصفحة بنفسى فى المرة السابقة ألا تنكر .

مصطفى - (محاولاً إخراجهم) تعال ياأخى تعال .. لا ندرى من أين
تلاقيها .. منك أم من الباشمهندس . هيا بنا .

(صبحى ينظر نحو الدرج ويرى مريم عز الدين موظفة الآثار التى تعمل
فى نقل المعبد صورة طبق الأصل من مريت وهى تهبط الدرج فيصرخ
مشدوهاً) .

صبحى - الله .. ست مريت .

عمر - (يلتفت نحو الدرج فيبصر مريم ويصيح مندفعاً نحوها) مريت ..
مريت .. غير معقول .

(مصطفى - وصفية ينظران إليه فى ذهول)

(مريم تبدو عليها الدهشة وهى ترى عمر يندفع إليها)

عمر - كنت واثقاً أنك ستأتين .. أجل .. كنت واثقاً من هذا يا مريت .

مريم - (فى هدوء) اسمى مريم يا سيدى .. لست مريت .. وأنا خريجة
قسم الآثار .. وأعمل ضمن بعثة معهد تسجيل الآثار التى تعمل فى نقل
المعبد .

صفية - (فى دهشة) ما هذا الذى يفعله عمر .. لماذا يسميها مريت ويندفع
إليها هكذا كالمخابيل .. أليست هى مريم التى سجلنا لها الحديث فى القناة ؟

مصطفى - (لنفسه فى ذهول) غير معقول !! مريم التى سجلنا لها الحديث
لا بد وأن تكون راقدة فى التابوت .. مستريحة أربعة وعشرين قيراطاً .

عمر - (مؤكد لمريم) خريجة الآثار .. أعرف .. أعرف .. لقد اتفقنا على هذا .

مريم - على ماذا ياسيدى ؟

عمر - على أن تكونى مريم .. خريجة قسم الآثار .

مريم - ولكنى أنا فعلا كذلك .

عمر - أيا كنت .. مريم أو مريت .. يكفى أنك عدت .. يكفى جداً .. لست أريد شرحاً .. سأقبل أى تفسير .. يكفينى أنك موجودة .. ستذهبين معى يامريم .

مريم - إلى أين ؟

عمر - لنتزوج ..

مريم - (ضاحكة) هكذا مرة واحدة ؟

عمر - أجل .

مريم - ولكنك لم تعرف عنى شيئاً .

عمر - بل أعرف كل شىء .

مريم - وأنا لا أعرف عنك شيئاً .

صفية - (هاتفة لمصطفى) أتسمع ؟ إنه يريد أن يتزوجها .. وهى تتجاهله تماماً .. كأنها لم تره من قبل .. هذا غير معقول .. برج من عقلى يكاد يطير .

مصطفى - (هامماً) لقد طار كل عقلى .

عمر - أنا مهندس فى السد .. ويكفى أن تعرفى أنى أريدك .. شريكة
عمرى .. وأن حياتى وكل ما أملك فى حياتى لك وحدك .

مريم - هذه أعجب طريقة للزواج .

عمر - ألا تثقين بى ؟

مريم - أحس أنى أثق .. لست أدرى لمة .

عمر - وتقبلين ؟

مريم - أحس أنى أريد أن أقبل ، لست أدرى كيف ؟

عمر - (يجرها من ذراعها) هذا يكفى .. يكفى جداً .. لاداعى أبداً لأن
تعرفى لمة .. ولا كيف .. هيا بنا .

صفية - (مذهولة) .. لا .. لا بد أن أردعه عن كل هذا .. إنى لا أكاد
أفهم أبداً .. لا أفهم شيئاً !!

مصطفى - لاداعى لأن تفهمى .

صفية - هذا جنون .

مصطفى - وكل الناس مجنون ولكن على قدر الهوى اختلف الجنون .

صفية - ولكن ...

مصطفى - ولكن ماذا؟! ألا تعجبك .. كزوجة لأخيك ؟

صفية - إنه حر .. مادامت تعجبه .

مصطفى - تعجبه جداً .

- صفية - فليشبع بها .. ولكن .. هذه الطريقة المذهلة .
- مصطفى - ماذا تهم الطريقة .. ما دامت النتيجة طيبة .. هيا بنا .. هيا .
- (يهم الجميع بالخروج من المعبد عندما يبدو حريش عند الدرج من الباب الذي خرجت منه مريم) .
- حريش - (صائحاً) يابوليس .. يابوليس .
- صبحى - مالك .. جرى إليه ؟ .
- حريش - اللصوص .. يابوليس ؟ .
- صبحى - ياأخى .. لصوص إليه ؟! ماذا يأخذ منكم اللصوص ؟! ماذا تأخذ الريح من البلاطة .
- حريش - (مستمراً فى الصياح) مومياء .. ضاعت .. مومياء سرقت .. يابوليس .
- صبحى - مومياء .. سرقت ؟
- حريش - أجل .. بنت فرعون .. ضاعت .. فقدت من التابوت .
- صبحى - (لنفسه) يا نهار أسود .
- (مريت تلتفت خلفها فى فزع) .
- مريت - ابنة فرعون ضاعت .
- صبحى - (لنفسه) طبعاً ضاعت .. كيف يمكن أن تبقى فى التابوت .. وأنت معنا هنا (صائحاً) هيا بنا .. هيا يا جماعة .
- مريت - لا .. لا بد أن أرى ما حدث .

صباحى - (هامساً) هيا ياست .. قبل أن يعيدوك إلى التابوت .. هيا بنا
يا جماعة .

عمر - (يجنب مريم من نراعتها) أجل .. هيا يا مريم هيا بسرعة .
حريش - يابوليس ..

صباحى - (وهم يهرولون إلى الخارج) طول عمرك حارس
خائب .. يهرب منك الأحياء .. والموتى .. هيا بنا .. هيا ..

(ستار الختام)

للمؤلف

قصص قصيرة	أطياف
رواية	نائب عزرائيل
قصص قصيرة	اثنتا عشرة امرأة
قصص قصيرة	خبايا الصدور
قصص قصيرة	يا أمة ضحكت
قصص قصيرة	اثنا عشر رجلا
رواية	أرض النفاق
قصص قصيرة	في موكب الهوى
قصص قصيرة	من العالم المجهول
قصص قصيرة	هذه النفوس
رواية	اني راحلة
قصص قصيرة	مبكي العشاق
	بين أبو الريش
قصص قصيرة	وجنينه ناميش
قصص قصيرة	أغنيات
مسرحية	أم رتية
قصص قصيرة	هذا هو الحب
قصص قصيرة	صور طبق الأصل
رواية	بين الاطلال
رواية	السقا مات

قصص قصيرة	سماز اللبائى
قصص قصيرة	الشيخ زعرب
قصص قصيرة	نقحة من الايمان
مسرحية	وراء الستار
قصص قصيرة	ست نساء وستة رجال
قصص قصيرة	هذه الحيازة
رواية	البحث عن جسد
مسرحية	جمعية قتل الزوجات
رواية	فديتك يا ليلى
قصص قصيرة	ليلة حمر
قصص قصيرة	همسة عابرة
رواية فى جزأين	رد قلبى
قصص قصيرة	ليال ودموع
رواية	طريق العودة
مقالات	أيام تمر
مقالات	من حياتى
مقالات	لطمات ولثمات
رواية فى جزأين	نادية
رواية فى جزأين	جفت الدموع
مقالات	أبام مشرفة
مقالات	أيام وذكريات

مفالات	أيام من عمرى
رواية فى جرائن	ليل له آخر
مسرحة	أقوى من الزمن
رواية فى جزأين	نحن لا نزرع الشوك
رواية	لست وحدك
مفالات	من وراء الغيم
مفالات	أيام عيد الناصر
رواية	ابتسامة على شفثيه
رحلات	طائر بين المحيطين
قصة	العمر لحظة